جائزة Strega الأدبية

من الأدب
الإيطالي

معجم عائلي

ناتاليا غينزبرغ

رواية

ترجمة
رامي طويل

دار الساقي

جائزة Strega الأدبية
من الأدب
الإيطالي
معجم عائلي
ناتاليا غينزبرغ
رواية
ترجمة
رامي طويل
دار الساقي

معجم عائلي

ناتاليا غينزبرغ

معجم عائلي

ترجمة
رامي طويل

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

”Questo libro è stato tradotto grazie ad un contributo per la traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano“

”حظيت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة وزارة الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية“

Lessico Famigliare, Natalia Ginzburg

© 1963, 1972, 1986, 1997, 2010 and 2014 Giulio Einaudi editore s.p.a., Torino

الطبعة العربية

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2024

الطبعة الإلكترونية، 2024

ISBN-978-614-03-0342-3

Published 2024 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

تقديم

حين اختارت ناتاليا غينزبرغ أن تمضي في هذه الحكاية لم تكن تفكّر في كتابة رواية، ولا حتى سيرة ذاتية. جلّ ما دار في ذهنها هو العودة بذاكرتها إلى الطفلة التي كانتها في عمر الثماني سنوات، وتسجيل مشاهداتها التي أثارت فضولها آنذاك ودفعتها، في ذلك العمر المبكر، لتأليف حواريّة مسرحية صغيرة تتضمن المفردات والعبارات التي يستخدمها أفراد عائلتها مكرّرين إياها بشكل دائم. هي المفردات والعبارات، إضافة إلى العديد من المشاهدات، التي بقيت حاضرةً في ذهنها حتى اللحظة التي اختارت فيها تدوينها لتجد أنها أنجزت كتاباً كاملاً عن الأمر لم ترغب إلّا في أن يُقرأ كرواية.

معجم عائلي سيرةٌ روائية بامتياز. لم تستند غينزبرغ إلى ذكرى محددة لتبني عليها عملاً روائياً، كما لم ترِوِ ذكرياتها الشخصية، بل مضت خلف كمّ هائل من الذكريات احتشدت في رأسها لتسرد بأسلوب أدبي رشيق تشوبه بعض السخرية والفكاهة، حكايةَ أفراد عائلتها والأشخاص الذين ضمتهم دوائر معارفهم، لتصير "الشيفرة العائلية" (العبارات والمفردات الخاصّة بأفراد العائلة) إضافةً إلى كونها الرابط الأساس بين أبطال الحكاية، نافذة على حقبة بالغة الثراء من تاريخ إيطاليا المعاصر، سنوات الحرب العالمية الثانية، ظهور الفاشية، النضال ضدّ الفاشية، الاضطهاد. ليست وثيقة تاريخية بالتأكيد إلّا أنها نافذة لفهم الكثير عن تفاصيل تلك الحقبة عبر سيرة عائلةٍ كان لها بعض الأثر في تلك الأحداث وعانت ما عانته من تبعاتها.

لا تختلف عائلة ناتاليا عن غيرها من العائلات التي تخلق في ما بين أفرادها لغة خاصّة مشتركة يصعب فهمها لغيرهم. وربّما يكون هذا هو الجانب الأكثر صعوبة في ترجمة هذا العمل. فالكثير من الكلمات والعبارات المختلقة بين أفراد هذه العائلة لا وجود لها في اللغة الإيطالية، وإنما هي نتاج تمازج لهجات مختلفة تعود بالدرجة الأولى إلى اختلاف أماكن نشأة الوالدين، وترجمتها الحرفية ستأتي في اللغات التي تنتقل إليها كلمات لا معنى لها. لذا، وحفاظاً

على حيوية الرواية وعلى حسّها الساخر والفكاهي في بعض الأحيان، ارتأينا ترجمة تلك المفردات إلى ما يعادلها في المعنى في اللغة العربية أحياناً، وأحياناً في لهجةٍ عربية محكية.

المترجم

تنويه

الأمكنة والأحداث والشخصيات في هذا الكتاب حقيقية. لم أخترع شيئاً؛ وفي كلّ مرّةٍ انسقتُ فيها خلف عادتي الروائية القديمة واختلقت شيئاً شعرتُ أنني مدفوعة للتخلّص منه حالاً.

الأسماء أيضاً حقيقية. لقد شعرتُ أثناء تأليف هذا الكتاب بشيء من التشدّد العميق حيال كلّ اختلاق، لم أستطع تغيير الأسماء الحقيقية التي بدت لي ملازمةً لحقيقة الشخصيات. ربّما يستاء أحدٌ ما لوجوده بهذه الطريقة، مع اسمه وكنيته، في كتاب، لكن لا إجابة لديّ حيال هذا الأمر.

لقد كتبتُ فقط ما كنتُ أتذكره. لذا إن قرئ هذا الكتاب على أنّه سيرة سيتم الاعتراض على وجود كمّ هائل من الثغرات فيه. أعتقد، رغم استناده إلى الواقع، أنّه يجب أن يقرأ كرواية؛ أي دون أن يطلب منه أكثر أو أقل ممّا تقدمه رواية.

ثمّة الكثير من الأشياء التي تذكّرتها وعزفتُ عن كتابتها، ومن بينها أشياءُ كثيرة أثارت قلقي بشكل مباشر.

لم أملك رغبةً كبيرة في الحديث عن نفسي. هي ليست قصتي في الحقيقة، لكنها قصّة عائلتي، حتى إن احتوت فجوات وثغرات. عليّ أن أضيف أنني طوال طفولتي ومراهقتي كنتُ أخطط لتأليف كتاب يحكي عن الأشخاص الذين عاشوا حولي آنذاك. إنه، في جزء منه، هو ذلك الكتاب، لكن في بعضه فقط، لأنّ الذاكرة مشوّشة، والكتب المستمدة من الواقع غالباً ما تكون ومضاتٍ خافتةً وشذرات ممّا رأيناه وسمعناه.

ناتاليا غينزبرغ

في منزل العائلة، حين كنت صغيرة، إن سكبتُ أنا أو إخوتي كأساً على مفرش المائدة، أو أوقعنا سكيناً، كان صوت أبي يصيح غاضباً: "بلا قلّة أدب".

وإن غمسنا الخبز بالمرق يصرخ: "لا تلحسوا الصحون! لا تجلغموا! لا تزبّلوا!".

الجلغمة والتزبيل، وكذلك اللوحات المعاصرة، كانت بالنسبة إلى أبي أشياء لا يستطيع تحمّلها.

كان يقول: "أنتم لا تعرفون كيف تجلسون إلى مائدة، لستم من النبلاء".

ويقول: "أنتم الذين تجلغمون كثيراً لو وجدتم على مائدة في إنكلترا فسوف يتم طردكم على الفور".

***

لقد حمل لإنكلترا أعلى درجة من التقدير، ورأى فيها المثال الأعلى للحضارة في العالم.

اعتاد أثناء الغداء التعليق على الأشخاص الذين رآهم خلال اليوم. كان شديد القسوة بأحكامه، يصف الجميع بالغباء. الغبي بالنسبة إليه هو "وغد". "لقد بدا بالنسبة إليّ وغد طيب" يقول معلّقاً على أحد معارفه الجدد. إضافة إلى "الأوغاد" كان هناك "النَّوَر". "النّوريّ" بالنسبة إلى أبي هو من لديه سلوكيات خرقاء مضطربة وخجولة، من يرتدي الملابس بطريقة غير لائقة، من لا يعرف الذهاب إلى الجبال، ومن لا يعرف لغةً أجنبية.

كلّ فعل أو إيماءة غير لائقة تصدر عنّا كان يصفها بالـ"نَوريّة". "لا تكونوا نَوَراً، لا ترتكبوا الأفعال النوريّة" يصرخ بشكل متواصل. مروحة الأفعال النوريّة كانت واسعة؛ أطلق صفة "نوريّ" على ارتداء أحذية المدينة أثناء رحلةٍ إلى الجبال، الحديث الصاخب في القطار أو في الطريق، إلى رفيق السفر أو إلى أحد المارّة، المحادثة عبر نافذة البيت مع أحد الجيران، خلع الأحذية في غرفة المعيشة، حشر الأقدام في الكوندشن لتدفئتها، التذمر من العطش أو التعب أو تشقق الأقدام أثناء رحلة في الجبال، إحضار الأطعمة المطبوخة والدهنية إلى الرحلات، استخدام منديل الطاولة لمسح الأصابع.

في الرحلات الجبيلة سمح فقط بأنواع معينة من الطعام: جبنة فونتينا، مربّى، إجاص، بيض مسلوق، كما سمح فقط بشرب الشاي الذي يعدّه بنفسه على بابور الكاز. ينحني متجهماً فوق البابور برأسه الطويل والشعر الأحمر القصير، حامياً اللهب بأطراف سترته، وهي سترةٌ من الصوف بلون الصدأ، مهترئة ومحروقة الجيوب، ودوماً هي ذاتها في العطلات الجبلية.

في الرحلات لم يسمح لا بالكونياك ولا بمكعبّات السكر، إنّها "أشياء نوريّة" كان يقول. كما أنه لم يسمح بالتوقف في الشاليه لتناول وجبة خفيفة، فذلك فعل نَوَريّ. فعلٌ نَوَريّ أيضاً حمايةُ الرأس من أشعة الشمس بواسطة فولار أو قبعة من القش، أو الاحتماء من المطر بواسطة المعاطف، أو التوشّح بالشالات حول الرقبة. وهي أدوات وقاية عزيزة على أمّي التي كانت تحاول في الصباح، أثناء التوجّه إلى رحلة، أن تدسّ بعضها في حقيبة الظهر، لأجلها ولأجلنا، والتي ما إن يجدها أبي بين الأيدي حتى يرميها بغضب.

في الرحلات ونحن نحتذي أحذيتنا الضخمة الثقيلة كالرصاص ذات المسامير، والجوارب الصوفية، وأقنعة التزلج، وعلى جباهنا النظّارات الواقية من الجليد، والشمس في ذروتها تضرب رؤوسنا المتعرّقة، كنّا ننظر بحسدٍ إلى "النّوَر" يمضون بخفّة بأحذية التنس أو يجلسون إلى طاولات الشاليهات يتناولون القشطة.

أمّي التي فضّلت دوماً البقاء في المنزل، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالخروج لتناول الطعام، لأنها كانت تحب قراءة الجريدة أو النوم على الأريكة في الداخل بعد تناول الطعام، سمّت نزهات الجبال "المتعة التي يمنحها الشيطان لأبنائه".

دوماً كنا نمضي الصيف في الجبل. نستأجر بيتاً لثلاثة أشهر، من تموز إلى أيلول، وعادةً ما تكون بيوتاً بعيدة عن المناطق المأهولة. كلّ صباحٍ يَمضي أبي وإخوتي بحقائب الظهر على أكتافهم للتسوّق من القرية. لم يكن هناك أيّ نوع من المتعة أو التسلية. المساء نقضيه في البيت متحلقين حول الطاولة، نحن الإخوة وأمّي، فيما يجلس أبي في الجانب الآخر من المنزل يقرأ، وبين حين وآخر يظهر في الغرفة حيث نجتمع للثرثرة واللعب. يظهر مرتاباً ومتجهماً

يشكو إلى أمّي خادمتنا ناتالينا التي أفسدت له ترتيب بعض الكتب: "إنها عزيزتكِ ناتالينا المجنونة" يقول غير مبالٍ بحقيقة وجود ناتالينا في المطبخ وأنها تستطيع سماعه.

من ناحية أخرى، بالنسبة إلى ناتالينا، فإن عبارة "تلك المجنونة ناتالينا" كانت معتادةً ولم تشعرْها بالإهانة مطلقاً.

في بعض المساءات في الجبل، واستعداداً للرحلات أو للتسلّق، كان أبي يجثو على الأرض ليدهن حذاءه وأحذية إخوتي بدهن الحوت. لقد اعتقد أنّه الوحيد من يعرف كيف يدهن الأحذية بذلك الدهن. ثمّ تُسمع قعقعة الخردة في جميع أرجاء البيت؛ إنه يبحث عن الكلاليب والمسامير وفؤوس الجليد. "أين أخفيتم فأسي؟" يصيح: "ليديا! أين أخفيتم فأسي".

يغادر للتسلق في الرابعة صباحاً، بمفرده أحياناً، وأحياناً مع صديقه المرشد، ومع إخوتي في مرات أخرى. في اليوم التالي للتسلّق، وبسبب الإنهاك، يصير حادّ الطباع، بوجهٍ محمّر ومتورّم بفعل وهج الشمس المنعكس عن الجليد، شفتين متشققتين نازفتين، أنفٍ ملطّخ بمرهم أصفر يبدو كالزبدة، وحاجبين مقطبين تحت جبينه المجعّد الغاضب. يقرأ الجريدة دون أن ينطق كلمة، ويكفي أيّ فعل تافه لجعله يثور بنوبة غضب عارمة. عند العودة من التسلق مع إخوتي كان أبي يقول إنّ إخوتي "نعانيع" و"نَوَرْ"، وإنّ أحداً منهم لم يرث عنه شغفه بالجبال، مستثنياً جينو، الأكبر بيننا الذي كان متسلّقاً عظيماً، وقد تقدّم مع صديق له إلى نقاط غاية في الصعوبة. عن جينو وصديقه ذاك تحدث أبي بمزيج من الفخر والحسد قائلاً إنّ أنفاسه ما عادت تساعده لأنه يكبر في السن.

كان شقيقي جينو، علاوةً على ذلك، المفضّل لديه ويرضيه في كلّ شيء. لقد اهتمّ بتاريخ الطبيعة، وجمع تشكيلةً من الحشرات والكريستال ومعادن أخرى، إضافة لكونه مجتهداً في الدراسة. التحق جينو بعد ذلك بكلية الهندسة، وحين كان يعود إلى البيت بعد الامتحان قائلاً إنه حاز ثلاثين علامةً، يسارع أبي للقول: "كيف تحصل على ثلاثين؟ لمَ لمْ تحز الثلاثين مع درجة الامتياز؟".

وإن حصل على الثلاثين مع درجة الامتياز يقول أبي: "آه، لقد كان الامتحان سهلاً إذاً".

في الجبل، إذا لم يذهب للتسلّق أو في رحلات تستمر حتى المساء، كان أبي يذهب كلّ يوم لـ"المسير". يغادر في الصباح الباكر مرتدياً ملابس مماثلة تماماً لما a>تديه عند الذهاب للتسلّق، لكن دون حبل أو حذاء المسامير أو فأس الجليد. وغالباً ما كان يمضي وحده لأننا، نحن وأمي، بحسب قوله: "كسالى" و"نعانيع" و"نَوَر". يمشي ويداه معقودتان خلف ظهره بخطوات يثقلها حذاؤه المشدود، مع الغليون بين أسنانه. في بعض الأحيان يرغم والدتي على اللحاق به: "ليديا! ليديا!" يصيح في الصباح: "لنمضِ إلى المسير وإلا ستغدين مترهلة لبقائك في مرعاكِ". عندئذ تتبعه أمّي طائعةً متأخرة عنه بضع خطوات، مع عصاها الصغيرة وسترتها المعقودة عن جانبيها، وشعرها الأشيب المجعد يهتز وقد قصّته بالغ القصر رغم موقف أبي من موضة الشعر القصير، حتى إنه أوشك أن يهدم البيت على رأسها يوم قصّته: "لقد قصصت شعركِ مجدداً! أيّ حمارة أنتِ" كان يقول في كلّ مرّة تعود فيها إلى البيت من عند الكوافير. "حمار" بلغة أبي لم يقصد بها الشخص الجاهل، بل من يقوم بأفعال مزعجة أو مهينة. نحن، أبناؤه، كنّا "حميراً" حين نتحدث باقتضاب أو نجيب بشكل سيئ.

"لا بدّ أنّ فرانشيس من أقنعتكِ بذلك" يقول أبي لأمي وهو يراها تواصل قصّ شعرها. في الحقيقة، فرانشيس، وهي صديقة أمي، كانت محبوبةً جداً ومحطّ تقدير من قبل أبي، عدا عن كونها زوجة صديق طفولته ورفيق دراسته لكن عيبها الوحيد، من وجهة نظر أبي، أنها أقنعت والدتي باتباع موضة الشعر القصير. كانت فرانشيس تذهب بشكل دوري إلى باريس حيث لها أقارب هناك، وفي أحد الشتاءات عادت من باريس وهي تقول: "في باريس الشعر القصير دارج. الموضة في باريس سبور. الموضة في باريس سبور"، وكرّرت أمّي وأختي ذلك طوال الشتاء وهما تقلدان قليلاً نبرة فرانشيس التي تلفظ الرّاء غيناً عندما تتحدث. قامتا بتقصير جميع الفساتين، وقصّت أمّي شعرها، بينما لم تفعل أختي لأنّ شعرها كان طويلاً يبلغ أسفل ظهرها، أشقر، فائق الجمال. كما أنها كانت تخشى والدي بشدة.

***

عادةً، في تلك العطلات الجبلية، كانت تجيء جدتي، والدة أبي. لم تسكن معنا بل في فندقٍ في القرية.

حين نذهب لرؤيتها نجدها جالسةً في الفناء الصغير للفندق تحت مظلة صغيرة. ضئيلة الحجم مع قدمين صغيرتين تحتذي فيهما جزمةً سوداء بأزرار صغيرة. كانت فخورة بتلكم القدمين تطلان من تحت تنورتها، كما فخرت برأسها ذي الشعر الأبيض المجعد مصفّفاً ككعكةٍ منفوخة. كان أبي يصحبها كل يوم في "مسير قصير". يمضيان في الطريق الرئيسي لكونها عجوزاً لا قدرة لها على السير في الدروب، خاصة مع تلك الأحذية ذات الكعوب الصغيرة. يمضيان، هو في المقدمة بخطواته الواسعة ويداه خلف ظهره والغليون في فمه، وهي خلفه بحفيف ملابسها وخطواتها الصغيرة مع طرطقة كعبيها. لم ترغب أبداً السير في طريق سلكاه في يوم سابق. دوماً تريد طرقاً جديدة: "إنه الشارع الذي مشيناه بالأمس" فيجيبها والدي شارداً دون أن يلتفت إليها: "لا، إنه شارع آخر". لكنّها تواصل التكرار: "إنها طريقُ أمس، الطريق التي مشيناها بالأمس"، وبعد برهة: "أنا أعاني من سعال يكاد يخنقني" تقول لأبي الذي يمضي قدماً دون أن يلتفت إليها.

"السعال يكاد يخنقني" تقول وهي تضع يدها على حلقها. اعتادت أن تكرر الأشياء ذاتها مرتين أو ثلاث مرات. "ذلك اللعين فانتيكّي صنع الفستان بنيّاً، أردته أزرق، أردته أزرق" وتضرب مظلتها على الرصيف بغضب، فيشير لها والدي أن تراقب الغروب فوق الجبال، لكنها تواصل ضرب مظلتها بالأرض غاضبةً موجّهةً حنقها كلّه ضد خيّاطها فانتيكّي. على كل حال، كانت تجيء إلى الجبل فقط للمكوث معنا، لأنها تكون في فلورنسا خلال السنة بينما نحن في تورينو، ولذا فهي لا ترانا إلّا صيفاً. عدا عن أنها لم تطق الجبال وقد حلمت دوماً أن تمضي العطلات في فيوجّي أو سالسوماجيوري حيث أمضت العطلات الصيفية في شبابها.

في الماضي كانت جدتي فائقة الثراء، لكن حالها افتقرت مع الحرب العالمية لأنها، باختصار، لم تصدق أنّ إيطاليا ستربح الحرب. كانت على ثقة عمياء بفرانشيسكو جوزيبّي فأرادت الاحتفاظ ببعض الأملاك التي حازتها في النمسا، وبذلك خسرت الكثير من النقود وكان والدي، كرجلٍ وحدويّ، قد حاول دون جدوى إقناعها ببيع تلك الأملاك النمساوية. كانت جدتي، وهي تجوب الغرفة جيئة وذهاباً في الصباح وتفرك أصابعها بخيبة أمل، تقول: "إنه سوء حظي" ملمحةً إلى خسارتها النقود. لقد امتلكت في فلورنسا منزلاً جميلاً بأثاث هنديّ وصيني وسجّاد تركي، لأن واحداً من أجدادها، الجد بارينتي، كان جامعاً للأشياء الثمينة. على الجدران هناك عُلّقت صور للعديد من أسلافها، الجد بارينتي، وعمتها فانديا التي أطلقوا عليها هذا الاسم لأنها كانت شخصية رجعية. لقد خصصت صالوناً للشخصيات المحافظة والرجعية، الكثير من العمات وبنات العمات اللواتي حملن جميعاً اسم مارغريتا أو ريجينا، الاسمين اللذين اعتادت العائلات اليهودية استخدامهما في الماضي. لم يكن بين تلك الصور واحدة لوالد جدتي، وهي لم ترغب في الحديث عنه، فبعدما صار أرملاً تشاجر في أحد الأيام مع ابنتيه اللتين قد صارتا بالغتين فعلاً، وأعلن أنه، نكايةً بهما، سيتزوج بأوّل امرأة يصادفها في الشارع. وهذا ما فعله، أو على الأقل هذا ما تروي العائلة أنه فعله. لا أعرف إن كانت نفسها أول امرأة قابلها عند الباب أثناء مغادرته المنزل. على كل حال، لقد أنجب من زوجته الجديدة أيضاً ابنةً لم ترغب جدتي في التعرف إليها، وكانت تطلق عليها بامتعاض "غنوجة بابا". "غنوجة بابا" تلك هي الآن سيدة ناضجة ومميزة وفي الخمسينات من عمرها، وصودف أن التقيناها أحياناً في العطلات، وكان أبي يقول لأمي: "أرأيتِ؟ أرأيتِ؟ هذه كانت غنوجة البابا!".

قالت جدتي دوماً: "أنتم تفعلون كل شيء كأنكم في ماخور. كل ما في هذا البيت يشي بالماخور"، وهذا يعني، بالنسبة إلينا، أنه ليس ثمّة ما هو محرّم. وقد بقيت العبارة مشهورة في العائلة، وصرنا نرددها في كل مرة نريد أن نضحك فيها من الموت أو في الجنازات. لطالما اشمأزت جدتي من الحيوانات، وكانت تثور حين ترانا نلاعب قطّة، قائلةً إننا سنلتقط الأمراض منها وننقلها

إليها. ”ذلك الوحش الملعون“ تقول وهي تنتصب واقفة تنقر بمظلتها على الأرض. كانت تقرف من كل شيء، ومذعورة من المرض، رغم صحتها الممتازة، حتى إنها توفيت وقد تجاوزت الثمانين دون أن تحتاج إلى طبيب، ولا حتى طبيب أسنان. لقد خشيت دوماً أن يقوم أحد منا بتعميدها رغماً عنها؛ لأنّ واحداً من إخوتي قام مرّةً، ممازحاً، بحركات العمادة لها. لقد واظبت على تلاوة صلواتها كلّ يوم بالعبرية دون أن تفهم منها شيئاً، لأنها لم تعرف العبرية. تجاه غير اليهود مثلها شعرت باشمئزاز مماثل لما شعرت به تجاه القطط مستثنية من هذا أمّي فقط. إنها الشخص الوحيد غير اليهودي الذي جمعتها به علاقة طوال حياتها. أمّي أيضاً أحبتها جداً، وكانت تقول إنها بأنانيتها بريئة وساذجة كطفل رضيع.

كانت جدتي في شبابها، بحسب قولها، فائقة الجمال. ثاني أجمل فتاة في بيزا، الأولى كانت صديقتها فيرجينيا ديل فيكيو. مرّة حضر إلى بيزا شخص يدعى السيد سيغريه سائلاً التعرّف إلى أجمل فتاة ليطلبها للزواج. رفضت فيرجينيا الزواج به، عندئذ قدّموا إليه جدتي، لكن جدتي رفضت الزواج به أيضاً قائلةً إنها لن تأخذ ”فضلات فرجينيا“.

بعد ذلك تزوّجت جدّي، جدّي ميكيلي، الرجل الذي يبدو أنه كان لطيفاً ووديعاً معها. ترمّلت في سنّ مبكرة من شبابها. سألناها مرّةً لماذا لم تتزوج مرّةً أخرى، فأجابت مع ضحكةٍ صاخبة عنيفة لم نتوقعها قطّ من عجوز نقّاقة متذمّرة: ”Cuccù [1]! ليجعلني آكل كلّ ما لديّ!“.

1 كلمة يقولها من لا يرغب في تبديل أوراقه في لعبة ورق يفوز بها من يبقى محتفظاً بالملك. (جميع الهوامش من المترجم)

اشتكى إخوتي وأمّي أحياناً بسبب الملل الذي يشعرون به في تلك العطلات في الجبل وفي تلك البيوت النائية، حيث لا متعة ولا صحبة. أنا، لكوني الأصغر، فقد استمتعت بعض الشيء ولم أشعر بملل العطلات في تلك السنوات.

”أنتم تشعرون بالملل لعدم امتلاككم حياةً داخلية“ كان يقول أبي.

في أحد الأعوام كنّا مفلسين وبدا أنه علينا تمضية الصيف في المدينة. في اللحظة الأخيرة عثرنا على بيت بكلفةٍ زهيدة في ناحيةٍ من قرية تدعى Saint–

Jacques–d’Ajas. بيت مع قناديل الكاز ودون مصابيح كهربائية. لا بدّ أنه كان ضيّقاً وغير مريح لأنّ أمّي ما برحت طيلة الصيف تقول: ”زريبة البقر! الملعونة Saint–Jacques–d’Ajas“. ملاذنا الوحيد كان بعض الكتب، ثمانية أو عشرة مجلدات مغلّفة بالجلد، ملفّات مجلّدة تضم مجلات أسبوعية لا أعرفها تحتوي أحجيات وألغازاً، وروايات مرعبة أعارها لأخي ألبيرتو صديقٌ له يدعى فرينكو. بقينا نعتاش على كتب فرينكو طوال الصيف. ثمّ أقامت أمّي صداقةً مع سيدة تقطن في بيت مجاور. كانتا تخوضان الأحاديث حين لا يكون أبي في البيت، فهو القائل إنّ الحديث إلى الجيران هو فعل ”نَوَريّ“. لكن ما إن اكتشف أن السيدة غيران تلك تعيش في تورينو في المبنى نفسه الذي تقطن فيه فرانشيس، وأنها تعرفها بالنظر ويمكن أن تخبرها عنه، حتى غدا يعاملها بمنتهى اللطف. في الحقيقة كان والدي دائم الحذر والتشكك حيال الغرباء خشية منه أنهم ”أناس ملتبسون“، لكنه يطمئن حال اكتشافه رابطاً مبهماً يجمعه بهم.

على المائدة، ونحن نتناول الأطباق التي علّمتنا إيّاها، لم تكفّ والدتي عن الحديث عن السيدة غيران. ”نجمٌ جديد يسطع“ يقول والدي في كلّ مرة يذكر فيها اسم السيدة غيران. ”نجم جديد يسطع“ أو: ”نجمٌ جديد“ فقط، كانت تلميحته الساخرة دائماً أمام كلّ جديد يبهرنا. ”لا أعرف ماذا كنا لنفعل دون كتب فرينكو، أو من غير السيدة غيران“ قالت أمي في نهاية ذلك الصيف. عودتنا إلى المدينة في تلك السنة بقيت محفوظة بعلامة مميزة؛ وصلنا محطة السكك الحديدية بعد بضع ساعات. صعدنا إلى القطار واحتللنا مقاعدنا، لندرك فجأة أنّ حقائبنا كلها بقيت على الأرض. رفع المفتّش رايته وصرخ: ”إقلاع“. ”إقلاع خرا!“ صاح والدي عندئذ وارتفع صراخه في أرجاء العربة. لم يتحرك القطار حتى تمّ تحميل آخر صندوق من أمتعتنا.

في المدينة افترقنا بحسرة عن كتب فرينكو الذي أراد استعادتها. أما بالنسبة إلى السيدة غيران فلم نرها بعد ذلك مطلقاً. ”إنه أمر معيب، علينا دعوة السيدة غيران“ كان يقول أبي أحياناً. لكن أمي لطالما كانت متقلّبةً بعواطفها وغير مستقرة بعلاقاتها، فهي إمّا ترغب في رؤية الأشخاص كلّ يوم وإمّا لا

ترغب في رؤيتهم أبداً. كما أنها لم تملك القدرة على تطوير العلاقات من منطق اللياقة الاجتماعية. كانت دائمة الذعر من "السأم"، كما خشيت أن يجيء الناس لزيارتها فيما هي ترغب في نزهةٍ على الأقدام.

باستثناء فرانشيس وبعض الأخريات اللواتي كنّ زوجات أصدقاء أبي، كانت أمي تلتقي صديقاتها، ودوماً هنّ أنفسهن. لقد اختارت على الدوام صديقات شابات أصغر منها بكثير. سيدات شابات متزوّجات حديثاً ومسكينات يمكنها إسداء النصح لهنّ واقتراح الخيّاطات عليهنّ. لقد أرعبتها "العجائز"، كما سمّت من يقاربنها العمر، كما أرعبتها حفلات الاستقبال. إن أرسلت إليها إحدى معارفها القدامى تخبرها أنها ستأتي لزيارتها فإنها تصاب بالذعر: "لن أستطيع الذهاب في نزهة اليوم إذاً" تقول بخيبة. أما أولئك الشابات فبالعكس من ذلك، إذ يمكنها أن تصحبهنّ معها إلى النزهة أو تمضي معهنّ إلى السينما، فالتعامل معهنّ سهل ومريح ودون تكلّف، وإن كان لديهن أطفال فهذا أفضل لأنها أحبت الأطفال كثيراً. وكان يحدث في بعض الظهيرات أن تأتي صديقاتها جميعهن سويّةً لرؤيتها. صديقات أمّي كنّ يُسَمّين وفق لغة أبي "العجيّات". عندما يقترب موعد العشاء يصرخ أبي من مكتبه ملء صوته: "ليديا! ليديا. هل رحلت جميع تلك العجيّات؟". عندئذ يمكن رؤية آخر عجيّةٍ منهن وهي تندفع في الممر وتنسلّ من الباب. جميع تلكم الشابات، صديقات أمي، تملّكهن ذعر رهيب من أبي. وعلى العشاء يقول أبي لأمي: "ألستِ منهكةً من اللعي؟ ألم تتعبي من الثرثرة؟".

في بعض المساءات كان يجيء إلى منزلنا أصدقاء أبي؛ إنهم مثله، أساتذة جامعيون، بيولوجيون وباحثون. عندما يعلنون عن تلك السهرات على العشاء يتوجه أبي بالسؤال إلى أمّي: "هل قمتِ بتحضير بعض الضيافة؟". الضيافة كانت عبارة عن شاي وبسكويت. الخمور لم تدخل منزلنا قط. أحياناً لم تكن أمي قد أعدّت أيّة ضيافة فيغضب والدي عندئذ: "كيف لا توجد ضيافة؟ لا يمكن استقبال الناس دون تقديم الضيافة إليهم! لا تكوني نَوريّة!".

من بين الأصدقاء المقرّبين لوالديّ عائلةُ لوبيز، وتحديداً فرانشيس وزوجها، وعائلة تيرني. زوج فرانشيس يدعى أميديو لكنّه يلقب بلوبيز، وقد بقي

محتفظاً باللقب منذ كان وأبي طالبين يدرسان معاً. لقبُ أبي أيّام الدراسة كان بُم، في إشارة إلى البندورة بسبب شعره الأحمر، غير أنّه كان يستشيط غضباً إذا ما نودي بُم، وقد سمح لأمي فقط أن تناديه بذلك. مع هذا اعتاد آل لوبيز فيما بينهم تسمية عائلتنا بـ"آل بُم"، بالطريقة ذاتها التي كنّا نسمّيهم فيها "آل لوبيز". لم يستطع أحد أن يفسّر لي السبب وراء حصول أميديو على هذا اللقب، وأعتقد أنّ الأمر فُقد في مجاهل الزمن. أميديو كان سميناً، بخصلات شعر بيضاء وناعمة كالحرير، يتحدث مبدلاً حرف الراء غيناً، مثل زوجته وأبنائهما الثلاثة الذكور، أصدقائنا. آل لوبيز كانوا أكثر منّا أناقةً ورقيّاً ومعاصرةً، يملكون منزلاً أجمل، لديهم مصعد وهاتف، وهو ما لم يملكه أحد في ذلك الزمن. فرانشيس غالباً ما تذهب إلى باريس وتعود منها بآخر صرعات الملابس والموضة. في إحدى المرات حملت معها لعبةً صينية في صندوق يحمل رسوماً للتنين تسمّى Ma–jong. لقد تعلّموا جميعهم اللعب بالـMa–jong تلك. وكان لوتشيو، الابن الأصغر لآل لوبيز، والذي يماثلني عمراً، يفاخر دوماً أمامي بتلك الـMa–jong دون أن يرغب أبداً في تعليمي إيّاها قائلاً إنها لعبة معقّدة، وإن والدته لن تسمح لأحد بمسّ الصندوق، ما جعلني أغتاظ حسداً عند رؤيتي ذلك الصندوق الثمين في منزلهم متخماً بالغموض.

حين كان والداي يذهبان للسهر عند آل لوبيز فإنّ أبي، عند العودة، يستفيض بمديح منزلهم، الأثاث، الشاي الذي تمّ تقديمه على عربة بكؤوس خزفية جميلة، قائلاً إنّ فرانشيس "امرأة مدبّرة"، قاصداً أنها عرفت كيف تعثر على أثاث جميل وكؤوس جميلة، وأنها تعرف كيف تؤثث بيتاً، وكيف يُقدّم الشاي.

لم نعرف إن كانت عائلة لوبيز أكثر ثراءً أو أفقر منّا. أمّي قالت إنهم أكثر ثراءً بكثير، غير أنّ أبي قال إنهم مثلنا، لا يملكون الكثير من المال، إلا أنّ فرانشيس "امرأة مدبّرة" وليست "فوضوية مثلكم أنتم". من ناحية أخرى كان أبي يشعر بالفقر الشديد، خاصة عندما يستيقظ في الصباح الباكر، فيوقظ أمي أيضاً ويقول لها: "لا أعرف كيف سنستمرّ"، "ألا تلاحظين أنّ العقارات تنهار؟". كانت أسعار العقارات دائمة الانخفاض ولم ترتفع قطّ. "تلك العقارات الملعونة" تقول أمي دوماً وتشتكي من فقدان أبي لأي حسّ تجاريّ، بمجرد

وجود إعلان سيئ يسارع للشراء، ولطالما توسّلت إليه أن يطلب النصح من وسيط ماليّ، إلا أنّه كان يغضب عندئذ، لرغبته، كما في كلّ الأمور الأخرى، في أن يكون شغلُه من رأسه.

أما بالنسبة إلى آل تيرني فقد كانوا فائقي الثراء. رغم ذلك كانت لماري، زوجة تيرني، عاداتها البسيطة؛ تتواصل مع عدد قليل من الناس، وتمضي الأيام بتأمل طفليها مع المربيّة أسّونتا التي ترتدي ملابس كلّها بيضاء، وكثيراً ما كانت ماري وكذلك المربية التي تقلدها تهمسان بحماسة: "إشش! إشش!". تيرني أيضاً كان يفعل ذلك دائماً وهو يتأمّل طفلَيه. كما قال "إشش، إشش" عن كل شيء؛ عن خادمتنا ناتالينا التي لم تكن جميلة، عن بعض الملابس القديمة التي رآها وقد ارتدتها أختي أو أمي. عن كل امرأة يراها يقول: "وجه مثير" وإنها تشبه بعض اللوحات الشهيرة، يتأملها لبضع دقائق ثم يأخذ قطعة حلوى يمسحها بمنديل فائق البياض والنعومة. كان تيرني بيولوجياً، وقد حظي بسبب دراسته بتقديرٍ كبير من قبل أبي الذي كان يقول: "ذلك الوغد تيرني" لأنه وجد أنه كان متصنّعاً في الحياة، وكان يقول في كلّ مرّة بعد أن يلتقيا: "تيرني متصنّع"، ويكرر بعد قليل: "أعتقد أنّه متصنّع". تعوّد تيرني حين يأتي لزيارتنا أن يقف معنا في الحديقة للتحدث عن الروايات. كان مثقفاً وقد قرأ جميع الروايات المعاصرة. وهو أوّل من أحضر إلى بيتنا رواية **البحث عن الزمن المفقود**. أظنّ في الحقيقة، بعد التفكّر بالأمر، أنّه حاول التشبّه بشخصية سوان، عبر قطع الحلوى، والتظاهر باكتشاف الشبه بين كلّ منّا وإحدى اللوحات الشهيرة. يناديه أبي من مكتبه بصوت مرتفع طالباً أن يأتي ليتحدثا عن خلايا الأنسجة: "تيرني! تعالَ إلى هنا، لا تكن وغداً كبيراً"، "لا تجعلْ نفسك مهرّجاً" يصرخ حين نكون مع تيرني نتهامس بحماسة وهو يحشر أنفه في ستائر غرفتنا البالية والمغبرّة متسائلاً إن كانت جديدة.

***

الأشياء التي حظيت باحترام والدي وتقديره هي: الاشتراكية، إنكلترا، روايات إيميل زولا، مؤسسة Rockfeller، الجبل، المرشدون في Val d'Aosta. الأشياء

التي أحبتها أمي هي: الاشتراكية، قصائد بول فرلان، الموسيقا وبخاصّة أوبرا Lohengrin التي اعتادت أن تغنيها لنا في المساء بعد العشاء.

والدتي من ميلانو غير أنّ أصولها تعود في الوقت نفسه إلى تريستينا، وقد أكسبها زواجها من أبي الكثير من التعبيرات التريستانية غير أنّ اللهجة الميلانية تحضر في حديثها حين تروي ذكريات الطفولة.

في أحد الأيام، وهي صغيرة، رأت أثناء سيرها في ميلانو رجلاً يقف بزهوّ دون حراك أمام واجهة صالون حلاقة، يحدق بثبات إلى رأس دمية ويقول لنفسه: "جميلة. جميلة، جميلة. رقبة طويلة جداً".

الكثير من ذكرياتها هي على هذا النحو؛ عبارات بسيطة سمعتها. في أحد الأيام خرجت في نزهة مع زميلاتها في المدرسة الداخلية والمعلمين، وفي لحظة مباغتة انفصلت طفلة عن الصف راكضةً لتحتضن كلباً عابراً وهي تقول: "إنها هي، هي، هي، هي أخت كلبتي!".

لقد بقيت في المدرسة الداخلية لعدة سنوات، وحظيت فيها بعالمٍ من المتعة.

لقد مثّلت وغنّت ورقصت في حفلات المدرسة. مثّلت في إحدى المسرحيات وهي ترتدي زي القرد. وغنّت في عرض أوبرالي بعنوان *La pianella perduta nella neve* [النعل الضائع في الثلج]. كما كتبت أوبرا ولحنتها. وقد بدأتها على هذا النحو:

أنا الدون كارولس تادريد
وأنا طالب من مدريد
في طريق بيرزوبللينا
بينما ذهبت ذات صباحْ
رأيت بغتةً في نافذةٍ
معلّمةً بوجّه وضّاحْ

كما كتبت قصيدةً تقول فيها:

تحيةً أو جهلاً
يكفّ الألم عن أحشائي حين أفكر فيك
السلامة حيث تكون
لنترك الدرس للحمقى
لنشرب، لنرقص، ولا نفكّر
لنحتفل!
أنت موسى، والآن توحي لي
أخبرني بما يقوله لي القلب
قل لي إنّ الفيلسوف فظّ
وإنه عند الأرعن نجد الحبّ

ثمّ إنها سخرت من ميتاستاسيو[2] على هذا النحو:

2 Pietro Metastasio: بيتر أنطونيو دومينيكو ترابارسي المعروف باسم ميتاستاسيو، شاعر ومؤلف أوبرالي إيطالي (1689–1782).

إن سكن الكرب الجميع
يُقرأ ذاك على الجبين
كثرٌ من على أقدامهم يمضون
ليصيروا في العربة يغادرون

بقيت في المدرسة الداخلية حتى السادسة عشرة من عمرها. في أيام الآحاد تذهب لزيارة خالها الذي يدعى باربيسون. الغداء يكون ديكاً روميّاً. وبعد الانتهاء من الطعام يشير باربيسون إلى بقايا الديك الرومي قائلاً لزوجته: "سنأكل ذلك أنا وأنت صباح الغد".

زوجة باربيسون، الخالة شيليستينا، كانت تلقّب بباريت[3]. أحدهم شرح لها أنّ الباريت موجود في كلّ مكان ولذا صارت، على سبيل المثال، تشير إلى الخبز على الطاولة قائلةً: "هل ترى الخبز هناك؟ إنه مليء بالباريت".

3 الباريت معدن مكوّن من كبريتات الباريوم يكون في الأغلب أبيض أو عديم اللون.

باربيسون كان رجلاً فظّاً. ”مثل أنف باربيسون“ اعتادت أمّي أن تقول كلما رأت أنوفاً حمراء. وكان باربيسون يقول لأمي بعد وجبات غداء الديك الروميّ:

”ليديا، أنا وأنت نعرف شيئاً من الكيمياء. ماذا تشبه نتانة كبريتيد الهيدروجين؟ إنّها نتانة الحيوانات الأليفة. كبريتيد الهيدروجين هو نتانة الحيوانات الأليفة“.

الاسم الحقيقي لباربيسون كان بيريغو. وقد كتب له بعض الأصدقاء الأبيات التالية:

جميل رؤية بيت بيريغو
وقبوه
صبحاً ومساء

شقيقات باربيسون لقّبن بـ”المباركات“ بسبب تعصبهنّ الشديد.

كان لأمّي خالة أخرى هي الخالة سيسيليا التي اشتهرت بهذه العبارة: ”ماذا طبختم للغداء الأرز أو المعكرونة؟“. في إحدى المرات روت لها والدتي أنهم قلقون على جدّي لتأخره عن العودة إلى المنزل، وأنهم يخشون أنّ مكروهاً أصابه. الخالة سيسيليا سألت حالاً: ”ماذا طبختم للغداء الأرز أو المعكرونة؟“

”معكرونة“ أجابت أمّي.

”من الجيد أنكم لم تطبخوا الأرز لأنه في هذه الحال من كان يعلم كم سيستغرق الأمر“.

جدّاي لأمّي ماتا كلاهما قبل أن أولد. جدّتي بينا، أمّ أمّي، انحدرت من عائلة متواضعة، وتزوّجت بجدي الذي كان جارها، شاب صغير بنظارات طبية، محامٍ متميز في بداية مسيرته المهنية، وكانت كلّ يوم تسمعه يسأل البوّاب: ”هل ثمّة خطابات لي؟“. اعتاد جدّي أن يقول ”خطابات“ بهذه الطريقة بدل رسائل، وبدا نطقه لهذه الكلمة ميزة عظيمة بالنسبة إلى جدتي. لقد تزوّجته من أجلها، وكذلك لأنها رغبت في أن ترتدي معطفاً من المخمل الأسود في الشتاء. لم يكن زواجاً سعيداً.

جدّتي بينا هذه كانت شقراء وجميلة في شبابها، وقد عملت مرّة في مسرح الهواة. عندما ترفع الستارة كانت جدّتي تظهر مع فرشاة وحامل لوحات وتقول الكلمات التالية:

”لا أستطيع مواصلة الرسم. روحي لا تميل للعمل والفن. إنها تحلّق بعيداً من هنا، تقتات الأفكار الموجعة“.

انخرط جدّي بعد ذلك في الاشتراكية، كان صديقاً لليونيدا بيسولاتي، وفيليبو توراتي، وآنّا كوليشوف. جدتي بينا بقيت دوماً بعيدةً عن الحياة السياسية لزوجها ولكونه ملأ البيت بالاشتراكيين اعتادت القول عن ابنتها: ”جزّازة الغنم تلك سينتهي بها الأمر متزوجةً من عامل الغاز“. وانتهى بهما الأمر للعيش منفصلين. ترك جدّي السياسة في الأعوام الأخيرة من حياته واستأنف عمله محامياً، لكنه بقي ينام حتى الخامسة عصراً، وحين يجيئه موكّلون يقول: ”ماذا جاؤوا يفعلون؟ اطردوهم“.

جدّتي بينا، في أعوامها الأخيرة، بقيت في فلورنسا، وأحياناً تذهب لرؤية والدتي التي تزوجت في هذه الأثناء وكانت تعيش أيضاً في فلورنسا، إلا أنّ جدتي بينا كانت تخاف أبي كثيراً. جاءت مرّة لرؤية شقيقي جينو، وكان رضيعاً يعاني شيئاً من الحمّى. ولتهدئة قلق أبي الشديد أخبرته جدتي أنّ سبب الحمّى ربّما يكون ظهور الأسنان. غضب والدي لأنه رأى أنّ ظهور الأسنان ليس سبباً للحمّى. حين التقت جدّتي أثناء خروجها بخالي سيلفيو القادم لزيارتنا أيضاً، همست له عند الدرج: ”ليست إلا الأسنان“.

باستثناء: ”ليست إلا الأسنان“، ”جزّازة الغنم تلك سينتهي بها الأمر متزوجة من عامل الغاز“، ”لا أستطيع مواصلة الرسم“، لا أعرف عن جدتي هذه شيئاً. وأذكر أيضاً عبارة كانت ترددها في منزلنا: ”كل يوم واحدة! كل يوم واحدة! لقد كسرت دروسيللا النظارة أيضاً“.

لقد أنجبت ثلاثة أبناء: سيلفيو، أمّي، ودروسيللا التي عانت من قصر النظر وكانت تكسر نظاراتها دوماً. توفيت في عزلةٍ، في فلورنسا، بعد حياة مليئة بالآلام؛ ابنها البكر، سيلفيو، انتحر في الثلاثين من عمره. أطلق النار على رأسه في إحدى الليالي في واحدة من حدائق ميلانو العامّة.

بعد المدرسة الداخلية غادرت أمّي ميلانو وذهبت لتقيم في فلورنسا. التحقت بكليّة الطب، لكنها لم تتمّ دراستها الجامعية لأنها التقت أبي وتزوّجته. جدّتي لأبي لم ترغب بهذا الزواج لأنّ أمّي ليست يهودية، وقد أخبرها أحدهم أنّها كاثوليكية متديّنة جداً، وأنها كلّما رأت كنيسة فإنها تنحني وتصلّب كثيراً. هذا لم يكن حقيقياً، فأحد من عائلة أمّي لم يذهب إلى الكنيسة ولم يرسم علامة الصليب. عارضت جدّتي لبعض الوقت ثمّ وافقت على لقاء أمّي. اجتمعتا في إحدى الليالي في المسرح، وشاهدتا معاً عرضاً مسرحياً حيث كان هناك امرأة بيضاء انتهى بها المطاف بين أفارقة. امرأة إفريقية تغار منها صرّت على أسنانها وهي تقول: "شرائح مدام بيضاء! شرائح مدام بيضاء!". "شرائح مدام بيضاء" كانت أمّي تقول دوماً في كل مرة تتناول فيها شرائح اللحم. لحضور تلك المسرحية حصلوا على حجز مجانيّ لأنّ شقيق أبي، عمّي تشيزري، كان ناقداً مسرحياً. العمّ تشيزري كان مختلفاً عن أبي بكلّ شيء، هادئاً، بديناً، دائمَ الابتهاج، وكناقد مسرحي لم يعرف الصرامة قطّ، ولم يرغب في الحديث بالسوء عن أيّ عمل مسرحي مطلقاً، وفي كلّ عمل كان يعثر على شيء جيد. حتى إن قالت أمي عن مسرحية إنها بدت بالنسبة إليها مجرد حماقة كان يجيبها غاضباً: "ما رأيك أن تحاولي كتابة مسرحية مماثلة؟". تزوّج العم تشيزري بعد ذلك من ممثلة، الأمر الذي شكّل مأساةً كبيرة بالنسبة إلى جدتي، ولسنوات طويلة لم ترغب في أن يعرّفها العمّ تشيزري إلى زوجته، فالممثلة بدت لها أكثر سوءاً من تلك التي ترسم علامة الصليب.

عندما تزوّج أبي عمل في فلورنسا، في عيادة أحد أعمام أمّي، والذي لقّب بـ"المخبول" لأنه طبيب مجانين. المخبول كان للحقيقة فائق الذكاء، مثقفاً وساخراً. ولا أدري إن عرف يوماً أنّهم لقبوه بهذا في العائلة. في منزل جدتي لأبي قابلت أمي حاشيةً متنوعة من المارغريتات والريجينات، بنات عمّات وعمّات أبي، وكذلك فانديا الشهيرة، التي كانت ما تزال على قيد الحياة في تلك الأعوام. الجد بارينتي كان قد توفي منذ بعض الوقت، وكذلك زوجته، الجدّة دولشيتّا، وخادمهما بيبو فاكين. الجدّة دولشيتّا عرفت بأنها ضئيلة وسمينة كالكرة، وعانت من عسر الهضم بسبب نهمها. كانت مريضة، تبقى

مستلقية في السرير وتتقيأ باستمرار. غير أنهم بعد لحظات يجدونها تأكل بيضة: "إنها طازجة" تقول مبررة نفسها.

الجد بارينتي والجدة دولشيتّا كان لديهما ابنة تدعى روزينا. زوج روزينا توفي تاركاً لها أطفالاً صغاراً والقليل من النقود. عادت عندئذ إلى بيت أبيها، وفي اليوم التالي لعودتها وبينما الجميع مجتمعون حول المائدة قالت الجدة دولشيتّا وهي تحدق إليها: "ما خطب ابنتنا روزينا اليوم، مزاجها ليس بالطزاجة المعتادة؟".

قصة جدتي مع البيضة، ومع روزينا، حكتها لي أمّي بإسهاب لأنّ أبي كان يروي بطريقة سيئة ومشتتة، ودوماً تتخلل حكاياته ضحكات مدوية، فذكريات عائلته وطفولته تثير البهجة في نفسه، لهذا لم نفهم الكثير من حكاياته المتقطعة بتلك الضحكات.

أمّي بخلافه، أبهجتها رواية الحكايات لأنها أحبّت متعة السرد. في كلّ مرة نجلس فيها إلى الطاولة تكرر الحكايات لواحد منّا. وسواء روت قصصاً عن عائلة والدي أو عن عائلتها فإنها تنتشي فرحاً دوماً كما لو أنها تسرد الحكاية للمرة الأولى على مستمعين لم يعرفوها قطّ: "كان لديّ خال يسمونه باربيسون" هكذا تبدأ، وإن قال أحد: "أعرف هذه القصة! لقد سمعتها مراراً!" تلتفت إلى آخر وتخفض صوتها مواصلةً سرد تلك القصة. "كم من المرّات سمعت هذه الحكاية!" يقول أبي وقد تناهت إلى سمعه بضع كلمات أثناء مروره. غير أن أمي، وبصوت خفيض، تواصل الحكاية.

المخبول كان لديه في عيادته مجنون يعتقد أنّه الله. كلّ صباح يقول له المخبول: "صباح الخير سيّد ليبمان المحترم"، فيجيبه المجنون عندئذ: "محترم ربّما! أمّا ليبمان فعلى الأرجح لا!" وهذا لأنه اعتقد أنّه الله.

هناك أيضاً العبارة الشهيرة لقائد الأوركسترا، واحد من معارف سيلفيو، الذي أثناء وجوده في بيرغامو ضمن جولة كان يقول للمغنين المشتتين أو غير المنضبطين: "لم نأتِ إلى بيرغامو بغرض التخييم، نحن هنا لأداء كارمن، رائعة جورج بيزيه".

نحن خمسة إخوة نعيش في مدن مختلفة. بعضنا في الخارج، وفي الغالب لا نراسل بعضنا بعضاً. عندما نلتقي نستطيع أن نكون لا مبالين ومشتتين واحدنا حيال الآخر. لكن تكفي في ما بيننا كلمة واحدة، عبارة واحدة، واحدة من تلك العبارات القديمة التي سمعناها وكررناها مرّات لا تحصى أيّام طفولتنا. إذ يكفي أن نقول: "لم نأتِ إلى بيرغامو بغرض التخييم" أو: "ماذا تشبه نتانة كبريتيد الهيدروجين؟" لنستعيد حالاً صلات طفولتنا وشبابنا القديمة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتلك العبارات والكلمات. واحدة من تلك العبارات أو الكلمات ستكون كفيلة، بيننا نحن الإخوة، بتعرّف أحدنا على الآخر حتى في كهف مظلم، أو بين ملايين البشر. تلك العبارات هي لغتنا القديمة، مفردات أيامنا الماضية، إنها مثل الهيروغليفية للمصريين، أو الآشورية والبابلية. إنها الأثر الباقي من نواة حياة لم تعد موجودة غير أنها بقيت في النصوص محفوظةً من غضبة الماء ومن تآكل الزمن. تلك العبارات هي أساس وحدة عائلتنا التي ستتواصل طالما بقينا في العالم نعيد خلقها وإحياءها في أكثر بقاع العالم اختلافاً. عندما سيقول أحدنا: "سيّد ليبمان المحترم" سيرنّ في آذاننا على الفور صوت أبي نافد الصبر: "أنهوا تلك القصة! لقد سمعتها بالفعل مرات كثيرة!".

***

لا أعرف كيف حدث أن خرج أبي وشقيقه تشيزري عن سلالتهما وأقاربهما من المصرفيين، محرومين من أي نوع من الأعمال. لقد أمضى أبي معظم حياته في البحث العلمي، وهي مهنة لم تدرّ عليه المال، كما بقيت فكرته عن المال مبهمة ومشوشة تهيمن عليها لامبالاة فظيعة. لذلك حين صودف أن عمل عملاً يتعلق بالمال فإنه كان يخسره دائماً، أو على الأقل يتصرف بطريقة تودي به للخسارة، وإن لم يخسر ونفد بجلده يكون ذلك بمحض الصدفة. لقد بقي طوال حياته على قلق عظيم من أن يجد نفسه يوماً مشرداً على الرصيف. هو قلق غير عقلاني عاش فيه مصحوباً بحالات مختلفة من المزاج السيئ والتشاؤم، كالتشاؤم من نجاح أو حظ أبنائه، قلق أثقل كاهله ككتلة من الكآبة

على هيئة غيمة سوداء تعلو الصخور والجبال، ورغم ذلك فهي لم تمس لامبالاته المطلقة حيال المال المعششة فيه. كان يقول: "مبلغ كبير" عند حديثه عن خمسين ليرة، أو بالأحرى، كما اعتاد أن يسميها هو، خمسين فرنكاً، فوحدة القياس النقدي بالنسبة إليه كانت الفرنك وليست الليرة. في المساء يجول على الغرف صارخاً علينا ألا نترك الأنوار مضاءة، لكنه بعد ذلك خسر الملايين دون أن يدرك تقريباً، إما بسبب أسهم اشتراها وباعها عشوائياً، وإما مع ناشرين قدّم إليهم أعماله غافلاً عن المطالبة بأجر عادل. بعد فلورنسا ذهب والداي للعيش في سردينيا لأنّ أبي عيّن أستاذاً في ساسّاري، وقد مكثا هناك لبضع سنوات. ثمّ انتقلا إلى باليرمو حيث ولدتُ أنا؛ الأخيرة بين خمسة أخوة. ذهب والدي إلى الحرب، على هضبة كورسو، كضابط في الطبيّة. وأخيراً جئنا للعيش في تورينو.

***

السنوات الأولى في تورينو كانت صعبة بالنسبة إلى أمّي. الحرب العالمية الأولى انتهت لتوها وارتفعت إثرها تكاليف المعيشة ونحن لا نملك إلا القليل من المال. في تورينو الطقس بارد، وقد اشتكت أمي من البرد طوال الوقت. عثر أبي على البيت بمفرده قبل وصولنا ودون استشارة أحد. كان بيتاً رطباً ومعتماً. أمّي، بحسب ما يقول أبي، كانت دائمة الشكوى في باليرمو، وكذلك في ساسّاري: دوماً تعثر على طريقة للتذمر. الآن تتحدث عن باليرمو وعن ساسّاري كأنهما الجنّة على الأرض. في ساسّاري، كما في باليرمو، كوّنت الكثير من الصداقات التي لم يكتب لها الاستمرارية لأن أمّي افتقدت قدرة المحافظة على العلاقات مع أشخاص بعيدين. هناك كان لديها بيوت جميلة تملؤها الشمس، حياة مريحة ويسيرة، وخادمات ماهرات. في الأيام الأولى في تورينو لم تنجح بالعثور على خادمات إلى أن وصلت ناتالينا في أحد الأيام إلى منزلنا، ولا أعرف كيف، لتبقى معنا ثلاثين سنة.

في الحقيقة حتى لو أنها كانت دائمة الشكوى والتذمر في ساسّاري وباليرمو، إلّا أنّ أمي كانت هناك سعيدة جداً، فالسّرور هو طبيعتها، وقد

استطاعت أن تعثر في كل مكان على أشخاص تحبهم ويحبونها، كما أوجدت في كل مكان طريقة للاستمتاع بالأشياء من حولها لتغدو سعيدة. لقد كانت سعيدة هنا أيضاً في تورينو في السنوات الأولى، سنوات عدم الراحة إن لم نقل الصعوبات، والتي غالباً ما بكت فيها بسبب مزاج والدي السيئ، البرد، الحنين لأماكن أخرى، أبنائها الذين كبروا وباتوا بحاجة كتب ومعاطف وأحذية دون أن يوجد الكثير من المال. رغم ذلك كلّه كانت سعيدة وما إن تتوقف عن البكاء حتى تغدو مبتهجة تغني بأعلى صوتها في أرجاء البيت: "Il Lohengrin“" ،"IL Pianella perduta nella neve“، و"Don Carlos Tadrid“. ولاحقاً، وهي تستذكر تلك السنوات، السنوات التي كان فيها جميع الأولاد ما يزالون في البيت، وليس ثمّة نقود، والعقارات تواصل الانخفاض دوماً، والبيت معتم ورطب، كانت تتحدث عنها دوماً كما لو أنها سنوات بغاية الروعة ومفعمة بالسعادة: "الوقت في باسترينغو“، وفيما بعد صارت تعرّف تلك الحقبة بالقول: "باسترينغو، الشارع الذي عشنا فيه عندئذ“.

***

البيت في شارع باسترينغو كان كبيراً جداً، احتوى على عشر أو اثنتي عشرة غرفة، فناء، حديقة، وشرفة زجاجية مطلة على الحديقة، ورغم ذلك كان شديد العتمة، ورطباً بالطبع، ما تسبب بظهور بعض الفطور في المرحاض شتاءً. حول تلك الفطور دار كلام كثير في العائلة؛ إخوتي أخبروا جدتي لأبي، التي كانت ضيفتنا آنذاك، أننا سنطبخها ونأكلها، ورغم عدم تصديق جدتي للأمر إلا أنها شعرت بالخوف والاشمئزاز، وكانت تقول: "في هذا البيت يجعلون من كل شيء كرخانة“.

كنت طفلةً صغيرة في ذلك الوقت ولم أملك إلا ذكريات غائمة عن باليرمو، المدينة التي ولدت فيها وغادرتها وأنا في الثالثة من عمري. مع ذلك تخيّلت أنني أنا أيضاً، مثل شقيقتي وأمي، أعاني من الحنين إلى باليرمو، إلى شاطئ مونديللو حيث كنا نذهب للسباحة، وإلى بعض مشاهد السيدة ماسّينا، صديقة أمّي، وإلى فتاة صغيرة تدعى أولغا، صديقة أختي، والتي أسميتها آنذاك "أولغا

الحيّة“ لتمييزها عن دميتي أولغا، ما دفعني للقول في كل مرة التقيناها فيها عند الشاطئ: ”أنا أخجل من أولغا الحيّة“. هؤلاء هم الأشخاص الذين كانوا في باليرمو وفي موندياللو. انغماسي بالحنين، أو توهّم الحنين، دفعني لكتابة أوّل قصيدة في حياتي مكوّنةً من بيتين فقط:

باليرمو باليرمو
أنتِ أجمل من تورينو

تمّ الترحيب بتلك القصيدة في البيت واعتبارها فاتحةً شعرية. شعرتُ بالكثير من التشجيع فكتبتُ على الفور قصيدتين قصيرتين أخريين كانتا عن الجبال التي سمعتُ عنها من إخوتي:

يحيا جبل غريفولا
إن انزلقت قدماك
يحيا مونت بيانكو
إن أنهكت خطاك

كتابة القصائد كانت عادةً شائعة جداً في بيتنا على أي حال. شقيقي ماريو كتب في إحدى المرات قصيدةً عن بعض أولاد توسي الذين شاركهم اللعب في موندياللو ولم يستطع احتمالهم:

عندما يصل السادة توسي
كل شيء يغدو مغمّاً
كل شيء يغدو مملّاً

لكن القصيدة الأشهر والأجمل هي التي كتبها شقيقي ألبيرتو وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، ولم تكن مرتبطة بأي واقعة حقيقية بل خلقت من لا شيء، ثمرة نقية للإبداع الشعري:

العانس العجوز
دون حلمة
أنجبت طفلاً
بغاية اللطف

في بيتنا كانت تلقى مسرحية *La figlia di Jorio* [ابنة يوريو]. لكن حول المائدة مساءً ألقيت على وجه الخصوص قصيدة حفظتها أمّي حين سمعتها في طفولتها أثناء حفل خيري أقيم لصالح الناجين من فيضان وادي بانادا، وقد لقّنتنا إيّاها:

أيام كثيرة مضت ونحن نرتجف
العجائز يقولون: "أيتها العذراء المقدسة، الأمواج
تعلو ساعةً بساعة
خذي الأطفال بعنايتك؛ يرحلون مع الأشياء!
لكن! اتركيهم وحدهم، العجائز المساكين الطيبين".
لم يرغب الأب الجسور الشاب بذلك، ولم يصدق أن يحدث أمر بمثل هذه الفظاعة
أمضى ذلك المساء يقول للأم: "روزا؛
احملي الأطفال إلى السرير، وأنت عليك النوم بسلام
نهر Po هادئ مثل مارِدٍ ساكن
في سرير الأرض العظيم حفره الله
اذهبي! نامي! مثلي أنا، أرواح كثيرة واثقة
يحرسون الضفة، الكثير من الأكتاف المتينة
إنهم هناك لحماية هذا الوادي المسكين".

لم تذكر أمّي التتمة، وأظن أن الدقة عازتها حتى في المطلع، فهي على سبيل المثال حين تقول "الأب الشاب الجسور" فإن السطر يطول دون أيّ

احترام للوزن، غير أنّها عوّضت عمّا أغفلته الذاكرة بتركيزها الشديد على الكلمات.

الكثير من الأكتاف المتينة
إنهم هناك لحماية هذا الوادي المسكين

لم يطق والدي هذه القصيدة. وكلما سمعنا نلقيها مع والدتي كان يستشيط غضباً ويقول إننا "مشخّصاتية" وإنّ لا قدرة لنا على التعامل بجدية مع الأمور الجديّة.

في بعض الأمسيات كان يجيء لزيارتنا تيرني وبعض أصدقاء شقيقي جينو، الأكبر بيننا، الذي التحق في ذلك الوقت بكليّة الفنون التطبيقية. نتحلّق حول الطاولة لنلقي القصائد ونغنّي:

أنا الدون كارولس تادريد
وأنا طالب من مدريد

كانت أمّي تغني، وأبي الذي يقرأ في مكتبه يلتفت بين فينة وأخرى ناحية باب غرفة الطعام، مرتاباً، متجهماً، والغليون في يده:

"دوماً تتلفظ بكلام الدراويش! دوماً تشخّص".

الموضوعات الوحيدة التي تقبّلها والدي هي الموضوعات العلمية والسياسية وبعض التحركات التي تحدث في "الكليّة". حين يتم استدعاء أستاذ ما إلى تورينو، ظلماً من وجهة نظره، فمردّ ذلك لأنه "وغد"، وعندما يستثنى أحدهم من الدعوة، ظلماً، إلى تورينو يكون بالنسبة إليه شخصاً ذا "قيمة عظيمة". في المواضيع العلمية وفي ما يحدث في "الكلية" لم يستطع أحد منا مجاراته. غير أنه تعوّد كل يوم على المائدة أن يخبر أمّي بالأوضاع "في الكليّة"، وبما حدث في مختبره لبعض عينات الأنسجة التي وضعها تحت الزجاج، ويستشيط غضباً إن بدت هي شاردةً. على المائدة كان أبي يأكل بنهم وبسرعة يبدو معها كما لو أنه لم يأكل شيئاً قطّ إذ سرعان ما يغدو طبقه فارغاً. كان على قناعة أنه يأكل

القليل، وقد نقل قناعته تلك إلى أمّي التي تواصل التوسل إليه أن يأكل. وبالمقابل فإنه يوبخ أمي لأنها تأكل كثيراً.

"لا تأكلي كثيراً، ستصابين بعسر الهضم".

"كفّي عن تقشير إصبعك" يصيح من حين إلى آخر. لقد عانت أمي في الحقيقة منذ طفولتها عادةً سيئة؛ هي تقشير إصبعها. أصيبت بالداحس وتعودت تقشير ذلك الإصبع بعد أن فعلت ذلك مرة في المدرسة الداخلية.

جميعنا، بحسب أبي، كنا شرهين للطعام وسنعاني عسر الهضم. تعوّد القول عن الأطعمة التي لا تعجبه إنها تسبب المرض وتمكث في المعدة، وعن الأطعمة التي أحبها إنها تمنح الصحة و"تثير التجشؤ".

إن حضر على المائدة طبق لم يعجبه يغضب: "لماذا صنعتم اللحم بهذه الطريقة؟ تعلمون أنني لا أحبه!". وإن صنعوا له فقط طبقاً يحبه فإنه يغضب بالقدر نفسه: "لا أريد أشياء خاصة! لا تميزوني".

"أنا آكل كل شيء" كان يقول: "لستُ صعب المزاج مثلكم. المهم بالنسبة إليّ هو الطعام!".

"لا تتحدثوا دوماً عن الطعام، إنه أمر مشين" يصيح إن سمعنا نتحدث في ما بيننا عن طبق أو آخر.

"كم أحب الجبن" تقول أمّي دوماً في كل مرة يحضر فيها الجبن على المائدة. فيقول أبي: "كم أنتِ رتيبة! لا تكرري الأشياء نفسها دوماً".

لقد أحب أبي الفاكهة بالغة النضوج، فإن عثرنا على إجاصة فاسدة كنا نأخذها إليه. "تمنحونني إجاصاتكم الفاسدة! يا لكم من حمير!" يقول مع ضحكة يتردد صداها في أرجاء المنزل ثمّ يلتهم الإجاصة بلقمتين.

"الجوز مفيد للصحة. إنه يثير التجشؤ" يقول وهو يكسر الجوز.

لتعاجله أمّي: "أنت رتيبٌ أيضاً، تكرر دوماً الأشياء ذاتها".

"يا لك من حمارة" يوبخها أبي عندئذ: "تقولين لي إنني رتيب! حمارة جيدة أنت".

لطالما احتدمت في منزلنا، بشأن السياسة، نقاشاتٌ انتهت بالتوبيخ وإلقاء مناديل المائدة في الهواء وصفق الأبواب بعنفٍ تسبّب بارتجاج البيت. كانت

السنوات الأولى للفاشية. لا أستطيع تفسير عنف نقاشات أبي وإخوتي. جميعهم، بحسب ما أعتقد، كانوا ضد الفاشية. لقد سألت إخوتي عن الأمر قبل بعض الوقت لكنّ أحداً منهم لم يستطع توضيح الأمر لي، رغم أنهم جميعهم يذكرون تلك المشاجرات العنيفة. يبدو لي أنّ شقيقي ماريو، وبدافع معارضة والديّ، اتخذ موقفاً مدافعاً عن موسوليني بطريقة ما، وهذا بالطبع أثار حنق والدي الذي كان دائم النقاش مع ماريو لأنه يجد عنده دوماً رأياً يخالف رأيه.

أبي كان يقول عن توراتي إنه ساذج. وأمي التي لم تجد في السذاجة ذنباً تتنهد وتتمتم: "مسكين ولدي فيليبو". في إحدى المرّات آنذاك جاء توراتي إلى بيتنا أثناء مروره بتورينو. أتذكره جالساً في الصالون سميناً كالدب، بلحية شائبة محلوقة بشكل دائري. رأيته مرتين، يومها، ولاحقاً حين اضطرّ للهرب من إيطاليا فجاء ليختبئ عندنا مدة أسبوع. لا أستطيع رغم ذلك تذكر كلمة واحدة قالها في بيتنا، فقط أذكر الصياح العظيم والجدال.

كان أبي يعود دوماً إلى البيت غاضباً، إما لأنه التقى في الطريق بمجموعات من القمصان السود، وإما لأنه اكتشف في جلسات الكليّة فاشيين جدد من بين معارفه. "مهرجون! حثالة! يهرّجون!" يتمتم باحتقار وهو جالس إلى الطاولة، يخبط منديل المائدة، يخبط صحنه، يخبط كأسه. في الشارع اعتاد التعبير عن أفكاره بصوت مرتفع مع معارفه الذين يصحبونه إلى البيت ما يدفعهم للتلفت حولهم خائفين. "مهرجون! نَوَر!" يصيح وهو يروي مخاوف معارفه أولئك، وأظنه كان يستمتع بإخافتهم عبر التحدث بصوت مرتفع في الشارع حين يكون معهم. هي بعض المتعة من ناحية، ومن ناحية أخرى هو لم يستطع التحكم بنبرة صوته المرتفعة جداً حتى عندما يظن أنه يهمس.

بشأن نبرة صوته المرتفعة التي لم يفلح بالسيطرة عليها، تحدث تيرني وأمّي أنّه في أحد الأيام وأثناء احتفال للأستاذة، وبينما الجميع مجتمعون في صالة الجامعة، سألت أمّي أبي بصوت خفيض عن اسم شخص يقف على بعد خطوات قليلة منهما: "من هذا؟"، عندها صرخ أبي بصوت مرتفع جداً جعل الجميع يلتفتون:

"من هذا؟ سأخبرك من هو! إنه أحمق عظيم".

في العموم لم يحتمل أبي النكات التي كنّا نرويها نحن وأمّي. النكات في منزلنا كانت تدعى "دعابات" وقد استمتعنا جداً بروايتها والاستماع إليها، غير أنها أثارت حنق أبي. من بين الدعابات تَقبَّلَ فقط تلك المناهضة للفاشية، ومن ثمّ بعض الدعابات العائدة لزمنه والتي عرفها هو وأمّي واستحضرها أحياناً في بعض المساءات بحضور آل لوبيز الذين عرفوها هم أيضاً من ذلك الوقت. بعض تلك الدعابات بدت بالنسبة إليه بذيئة جداً، رغم أنّها، كما أظن، في غاية البراءة. لذا حاول في حضورنا أن يرويها هامساً، إلا أنّ صوته لا يلبث أن يصير ضجيجاً صاخباً فنستطيع بذلك أن نتبيّن جيداً الكثير من الكلمات ومن بينها كلمة "عكروتة" الواردة دوماً في دعابات القرن التاسع عشر، والتي يحاول لفظها بهمسٍ أشدّ من الأخريات وبنوع خاص من الخبث والمتعة.

***

اعتاد أبي دوماً الاستيقاظ في الرابعة صباحاً. هاجسه الأول عند الاستيقاظ هو أن يمضي لتفقّد "الميتزورادو" إن كان جيداً. الميتزورادو هو نوع من الحليب المحمّض تعلّم صناعته من بعض الرعاة في سردينيا. إنّه لبنٌ بكل بساطة. في تلك السنوات لم يكن اللبن رائجاً ولا يعرض للبيع كما اليوم لا في متاجر الحليب ولا في المقاهي. أبي كان رائداً في تناول اللبن كما الكثير من الأشياء الأخرى. الرياضات الشتوية لم تكن رائجة أيضاً في ذلك الزمن، وربّما كان أبي الوحيد في تورينو من يمارسها. ما إن يتساقط القليل من الثلج حتى يغادر مساء السبت إلى كلافيير وزلاجته على كتفه. آنذاك لم تكن قد وجدت قرية سيستيريير ولا فنادق شيرفينيا. اعتاد أبي النوم في كوخ ريفي أعلى كلافيير يدعى "كابّانا ماوتينو". أحياناً يصطحب خلفه إخوتي أو بعض مساعديه الشغوفين بالجبال مثله. الزلاجات اعتاد تسميتها "gli ski". لقد تعلم الذهاب للتزلج منذ شبابه أثناء إقامته في النروج. عند عودته مساء الأحد ردّد دوماً أنّ الثلج كان سيئاً. الثلج بالنسبة إليه دائماً شديد الميوعة أو شديد الكثافة، مثل الميتزورادو الذي لم يكن يوماً كما يجب وقد بدا بالنسبة إليه إما مائعاً وإما شديد الكثافة.

”ليديا! الميتزورادو لم ’يختر‘!“ يصيح من الكوريدور. الميتزورادو يوضع في المطبخ في قدرٍ مغطّى بطبق وملفوف بشال قديم بلون السلمون عائد لأمي. في بعض الأحيان لا ”يختر“ أبداً ولا يكون غير حبيبات خضراء مع كتل صلبة ببياض الرخام ويجب التخلص منه. الميتزورادو فائق الحساسية، يكفي أي فعل، كأن ينزاح عنه الشال الذي يغطيه أو أن يرشح إليه شيء من الهواء، لجعله يفشل. ”اليوم أيضاً لم ’يختر‘. كلّ ذلك بسبب حبيبتكِ ناتالينا“ يصيح أبي لأمّي من الكوريدور، فتجيبه من السرير وهي ما تزال نصف نائمة بكلمات غير مترابطة. وعندما نذهب في عطلة علينا أن نتذكر أن نحضر معنا ”أم الميتزورادو“ التي هي عبارة عن قدر من الميتزورادو مغلّفة بإحكام ومربوطة بخيط. ”أين الأم؟ هل أخذتم الأم؟“ يقول أبي في القطار وهو يفتش حقيبة الجبل: ”لا شيء! هناك لا يوجد شيء!“ يصرخ. أحياناً تكون الأم منسيةً بالفعل ولا بد من إعادة صنعها من الصفر باستخدام خميرة البيرة.

اعتاد والدي الاستحمام بالماء البارد صباحاً. كان يطلق من تحت سوط الماء صرخة تشبه زئيراً طويلاً، ثمّ يرتدي ملابسه ويجرع كؤوساً كبيرة من ذلك الميتزورادو المتجمد بعد أن يضيف إليه عدداً كبيراً من ملاعق السكر. يخرج من البيت فيما الشوارع ما تزال معتمة وشبه مهجورة، يخرج في الضباب، في برد فجر تورينو، معتمراً على رأسه بيريه واسعة تأخذ شكل خوذة فوق جبينه، بمعطف مطريّ طويل وواسع مليء بالجيوب والأزرار الجلدية، مع يديه خلف ظهره، والغليون. ومع خطواته العوجاء تبدو إحدى كتفيه أعلى من الأخرى. الشوارع تكون مقفرةً تقريباً إلا أنّه يصطدم بالأشخاص القلائل الذين يعبرون جواره وهو يمشي متجهماً ومطرقاً برأسه للأسفل. لا أحد في مختبره في تلك الساعة، ربمّا حاجبه كونتي فقط، رجل قصير، هادئ، مطيع، بقميص رمادي. لقد أحبّ والدي كثيراً وأحبّه بدوره هو الآخر. كان يجيء إلى منزلنا أحياناً حين يكون ثمة حاجة لإصلاح الخزانة أو استبدال سوكة المصباح أو ربط الصناديق. بحكم بقائه في المختبر تعلّم كونتي التشريح، وأثناء الامتحان كان يتدخل فيغضب والدي، إلا أنه في البيت يخبر أمي بافتخار أنّ كونتي يعرف علم

التشريح أفضل من الطلاب. في المختبر تعوّد أبي أن يرتدي قميصاً رمادياً مماثلاً لقميص كونتي، والسير في الممرات صارخاً كما يصرخ في ممر البيت.

أنا الدون كارولس تادريد
أنا طالب من مدريد

تغني أمّي ملء صوتها وهي واقفة تمشط شعرها الذي ما يزال مبلولاً. هي أيضاً كانت تستحمّ بالماء البارد مثل أبي، وكلاهما يرتديان قفازات خشنة يفركان نفسيهما بها بعد الاستحمام بغية الدفء. "أنا متجمدة" تقول أمي، ولكن بفرح لأنها أحبت الماء البارد كثيراً. "ما زلت متجمدة، كم هي باردة، يا لفعلها!" ثم تمضي ملتحفةً البرنس وفي يدها فنجان القهوة. عندئذٍ ينعم منزلنا بشيء من السلام. أمي تغني وتنثر شعرها المبلول في هواء الصبح. ثم تذهب إلى غرفة الكيّ للتحدث إلى ناتالينا ورينا.

غرفة الكيّ كانت تسمّى أيضاً "غرفة الخزائن". هناك ماكينة الخياطة، ورينا تخيط عليها. رينا هي واحدة من خياطات البيوت لكنها تجيد فقط قلب معاطفنا رأساً على عقب، ترقيع السراويل والفساتين، ولا تفعل شيئاً آخر. حين لا تتواجد عندنا تكون عند آل لوبيز. كانت تقفز بين فرانشيس وأمي. هي امرأة ضئيلة جداً، قزم نوعاً ما، تنادي أمّي "السيدة ماما" وعندما تلتقي أبي في الممر تفرّ هاربة كالفأر لأنه لم يكن يطيقها.

"رينا! اليوم أيضاً رينا هنا!" يقول باهتياج. "لا أطيقها! إنها ثرثارة! عدا عن كونها لا تجيد فعل شيء".

"لكنهم دوماً يستدعونها إلى بيت لوبيز أيضاً" تبرّر والدتي.

رينا كانت صاحبة مزاج متقلّب. حين تجيء إلينا بعد انقطاع تبدو بغاية اللطف وتبذل جلّ استطاعتها للقيام بألف وظيفة؛ تحاول ترتيب مفارشنا ووسائدنا كلها، غسل الستائر، إزالة بقع القهوة عن السجاد، مثلما كانت تفعل في بيت فرانشيس. لكنها سرعان ما تخمد، تتجهم، تستاء مني ومن لوتشو لأننا نواصل الدوران حولها لكونها وعدتنا سابقاً بالنزهة والحلويات. لوتشو هو الابن الأصغر

لفرانشيس، وكان يجيء إلينا كل يوم تقريباً للعب. "اتركاني وشأني، عليّ أن أعمل" تقول رينا وهي تخيط على المكنة وتتشاجر مع ناتالينا.

"تلك الملعونة رينا!" تقول أمّي في الصباح إن لم تظهر رينا دون إخطار، ولا أحد يعرف أين تلاشت لأنها لم تذهب إلى فرانشيس حتى. بسبب فعلتها تتكوم المفارش والوسائد غير المرتبة، أكوام الصوف تتكدس في "غرفة الخزائن"، السجاد ببقع القهوة التي تركت عليه آثاراً صارت إلى اللون الأصفر. "تلك الملعونة رينا! لن أسمح لها بالمجيء مرّة أخرى أبداً!". غير أنّ رينا تعود بعد بضعة أسابيع، مرحةً، لطيفة، سخيةً بالمبادرات والوعود فتنسى أمّي خطأها حالاً، وتبقى في غرفة الخزائن للاستماع إلى ثرثرات رينا وهي تخيط على المكنة بسرعة وتضرب دواستها بعضلات قدم القزمة الصغيرة محتذيةً شبشباً من البشكير.

رأت أمّي أنّ ناتالينا تشبه لويس الحادي عشر. كانت صغيرةً، نحيلة، بوجه طويل، وشعر ناعم وأملس في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى مجعّد مثل سيف الألمونيوم. "أهلاً لويس الحادي عشر" تقول أمّي حين تراها صباحاً تدخل غرفة النوم ممتعضةً وقد لفت رقبتها بوشاح حاملة الدلو والممسحة بيديها. ناتالينا كانت تختلط عليها الضمائر المذكرة والمؤنثة. فتقول لأمّي: "لقد خرجتْ هذا الصباح دون المعطف". "من هي؟". "هي السيد ماريو. وهو كان عليه أن يقول له". "من هو؟". "هو، هو السيدة ليديا" تقول ناتالينا مستاءةً وهي تقرقع بالدلو.

أثناء حديثها مع صديقاتها كانت أمي تصف ناتالينا بـ"البرق" لأنها تنجز أعمال المنزل بسرعةٍ استثنائية، وبأنها "زلزال" لأنها تفعل كل شيء بعنف وكثير من الضجيج. لها هيئة كلب مشرد لأنها عاشت طفولة غير سعيدة، يتيمة، نشأت في دور أيتام وملاجئ، ثمّ في خدمة أسياد قساة. أثناء حديثها عن أسيادها القدامى كانت تشير إلى أنهم كانوا يضربونها على رأسها لدرجة تجعلها تتألم لأيام وتشعر بشيء من الحنين لماضيها. في عيد الميلاد كُتبت بطاقات المعايدة المذهبة لها، كما أرسلت إليها الهدايا. لم تحتفظ جيوبها بالمال، كانت سخيّةً، تنفق بسخاء، ومستعدة دوماً لإقراض المال لصديقاتها اللواتي تخرج

معهنّ يوم الأحد. هيئة الكلب المشرد التي احتفظت بها دوماً تشهرها بوجهنا نحن، وبوجه أمي بشكل خاص، بطريقتها الساخرة المتسلطة والمتعنّتة. لقد جمعتها بأمي التي أحبّتها بعطف وأحبت هي ذلك العطف، علاقة فيها شيء من الفظاظة والسخرية ولا أثر فيها للعبودية. "لحسن الحظ أنّه سيدة، وإلا كيف كان ليكسب لقمة عيشه. هو لا يجيد فعل شيء" تقول لأمّي. "من هو؟". "هو! أنتِ، أنتِ".

***

في البيت عشنا دوماً في ظلّ كابوس ثورات أبي التي تنفجر بغتةً ولأسباب تافهة غالباً؛ بسبب حذاء لم يعثر عليه، كتاب في غير مكانه، مصباح محترق، تأخر طفيف في الغداء، أو طبق مطبوخ أكثر مما يجب. كذلك عشنا في ظل كابوس الشجارات بين شقيقيّ ألبيرتو وماريو التي تنفجر أيضاً بشكل مباغت، إذ نسمع فجأة ضجيج كراسيّ تنقلب في غرفتهما، ضربٌ على الجدران يليه صراخ مدوّ متوحش. ألبيرتو وماريو آنذاك كانا كبيرين، فائقي القوة، يؤذيان بعضهما بعضاً حين يلكم أحدهما الآخر، فيخرجان بأنفين نازفين وشفاه متورمة وملابس ممزقة. "يقتلان" تصرخ أمّي ناسيةً، بسبب الذعر، حرف التاء المكرر من كلمة "يقتتلان": "تعال بيّنو! إنهما يقتلان" تصرخ مناديةً أبي.

تدخّل أبي كان عنيفاً مثل أفعاله كلها. يرمي نفسه بين الاثنين المشتبكين يتضاربان ويمطرهما بالصفعات. كنتُ صغيرةً وأتذكر برعب أولئك الرجال الثلاثة يتشاجرون بعنف. الأسباب التي دفعت ألبيرتو وماريو للاقتتال كانت دوماً بتفاهة الأسباب التي دفعت أبي للانفجار غضباً؛ كتاب لم يعثر عليه، ربطة عنق، أولوية الذهاب للاغتسال. في إحدى المرات التي ذهب فيها ألبيرتو إلى المدرسة برأس مضمّد سأله المعلّم عمّا أصابه، فنهض وقال: "أخي وأنا أردنا الاستحمام".

ماريو هو الأكبر بين الاثنين والأقوى. امتلك كفين بصلابة الحديد. وحين يغضب يهتاج بعصبية فتتشنج عضلاته وأوتاره وفكه. في طفولته كان ضعيفاً بعض الشيء فصحبه أبي للسير في الجبل لتقويته، كما فعل معنا جميعاً على

كل حال. كره ماريو الجبال كراهيةً فظيعة، وبمجرد أن تخلّص من سلطة أبي توقف تماماً عن الذهاب إليها. لكن في تلك السنوات، حين كان ما يزال مرغماً على الذهاب إليها، لم يكن ألبيرتو موضوع غضبه في بعض الحالات، بل أشياء ليست بمتناول يده. ينزل في ظهيرة السبت إلى القبو بحثاً عن زلاجاته. لقد أضاعها. يبحث عنها بغضب مكتوم إما لأنه لم يجدها، وإما لأن الأربطة لا تفتح مهما ضغطها بيديه. في ثورة غضبه يحضر كل من ألبيرتو وأبي بالطبع رغم بعدهما في تلك اللحظة؛ ألبيرتو لأنه عبث بأشيائه، وأبي لأنه يرغمه على الذهاب إلى الجبال التي يكرهها مع زلاجات قديمة وملازم صدئة. أحياناً يحاول ارتداء حذاء التزلج ولا ينجح بإدخال قدمه. يقوم بذلك وحده هناك، في القبو، ونحن في الأعلى نسمع الضوضاء العظيمة؛ يرمي جميع زلاجات البيت أرضاً، يرمي الملازم، أحذية التزلج، جلود الفقمة، يمزق الحبال، يحطّم الجوارير، يركل الكراسيّ والجدران وسيقان الطاولات. أذكر أنني رأيته مرّة في الصالون جالساً بهدوء يقرأ الصحيفة، وفجأة استولت عليه واحدة من نوبات الغضب المكتوم، فأخذ يمزق الصحيفة بضراوة. تلك المرة لم يكن للأمر علاقة بألبيرتو ولا بأبي؛ ببساطة هي أجراس كنيسة قريبة أخذت تقرع وأثار قرعها المتواصل غضبه.

في إحدى المرات، إلى المائدة، وفي واحدة من نوبات غضبه الأكثر فظاعة والتي تسبب بها أبي، أخذ سكين الخبز وراح يكشط بها ظهر كفه. تدفقت شلالات من الدم. أذكر خوف أمّي عليه وصراخها ودموعها، شعر أبي بالخوف أيضاً وراح يصرخ طالباً الشاش المعقّم وصبغة اليود.

بعد أن يتشاجر مع ألبيرتو، وبعد التضارب، يبقى ماريو بضعة أيام بوجه "مكشّر" أو "كالح" كما أسميناه في بيتنا. يجيء إلى المائدة شاحباً بجفون متورمة وعينين بالغتي الصغر. كانت عينا ماريو دوماً صغيرتين وضيقتين ومتطاولتين كأعين الصينيين، لكنهما في تلك الأيام، أيام "الكلح"، تتقلصان إلى شقين لا مرئيين. لا يتفوّه بكلمة. يبقى مكشّراً لأنّه في العموم يرى أنهم في بيتنا يتفقون دوماً مع ألبيرتو ضده، كما أنه يرى أنّه بات أكبر من أن يواصل أبي

صفعه. ”هل رأيتِ تكشيرة ماريو؟ رأيتِ الكالح؟“ يقول أبي لأمي بمجرد أن يغادر ماريو الغرفة: ”ما خطبه الكالح؟ لم يتفوّه بكلمة حتى. يا له من حمار!“.

ثمّ في الصباح، وبعدما يكفّ ماريو عن الكلوح، يدخل الصالون، يجلس على الكنبة وهو يقرص وجنتيه مبتسماً وشارداً وعيناه نصف مغمضتين ويبدأ القول: ”الدودة تنخر تفاحْ“ الدعابة التي أحبها كثيراً وكررها دون ملل: ”الدودة تنخر تفاحْ. منقارٌ يضرب مفتاحْ. حيوان يقعي مرتاحْ“. ”ماريو“ يصرخ أبي: ”كفّ عن البذاءة“.

”الدودة تنخر تفاحْ“ يكرّر ماريو حالما يخرج أبي. إن جلس في الصالون يثرثر مع أمي وتيرني، صديقه الأعز، تقول أمي: ”كم هو رقيق ماريو حين يكون هادئاً، كم هو لطيف! إنه يشبه سيلفيو!“.

سيلفيو هو شقيق أمّي الذي انتحر. قصة انتحاره اكتنفها الغموض في بيتنا. لقد عرفتُ أنه انتحر لكن لم أعرف السبب. أظن أن هذا الغموض حول شخصية سيلفيو فرضه أبي تحديداً لأنه لم يرغب في أن نعرف أن ثمّة انتحاراً حدث في عائلتنا، أو ربّما لأسباب أخرى مجهولة. أما بالنسبة إلى أميّ فقد تحدثت دوماً عن سيلفيو بفرح. لقد امتلكت أمي تلك الطبيعة السعيدة التي سمحت لها أن تتلقى وتتقبل كل شيء، وأن تتعامل مع كل ما يصدر عن أي شخص بطيبة وفرح تاركةً الألم والسوء في الخفاء مكتفيةً بشأنهما ببعض التنهدات القصيرة بين فينة وأخرى.

سيلفيو كان موسيقياً وأديباً. لحّن بعض القصائد لبول فرلان، Les feuilles mortes [الأوراق الميتة]، وغيرها أيضاً. لم يجد العزف كثيراً، كان يترنم بألحانه رفقة البيانو يعزف عليه بإصبع واحدة فقط، ويقول لأمي أثناء ذلك: ”اسمعي يا حمقاء، انصتي لهذا الجمال“. ورغم سوء عزفه وغنائه بصوت حاد إلا أنها كانت تستمع به جداً، تقول أمي. سيلفيو كان شديد الأناقة، يرتدي الملابس بعناية فائقة، والويل إن لم يكن بنطاله مكوياً بشكل جيد وثنيته مستقيمة. امتلك عكازاً بمقبض عاجي. يخرج في ميلانو مع عكازه وقبعة القش ويمضي للقاء أصدقائه في المقهى لمناقشة الموسيقا. في حكايات والدتي سيلفيو هو دوماً شخصية مرحة. نهايته، حين علمت تفاصيلها، بدت لي غير قابلة للفهم. على

الكومودينة الخاصة بأمي وجدت صورة باهتة له مع قبعة القش وشاربين معقوفين، جوار صورة أخرى تجمع أمي مع آنّا كوليشوف تحت المطر، ترتديان الإشارابات وقبعتين مع ريش.

كان هناك أيضاً من آثار سيليفيو في المنزل مسرحية *Peer Gynt* [للمسرحي النرويجي هنريك إبسن]، عمل غير مكتمل، وعدد كبير من الملفات ضمن مجلدات مربوطة بشرائط موضوعة في قمّة الخزانة. "كم كان بارعاً سيليفيو" قالت أمي دوماً: "كم كان لطيفاً! *Peer Gynt* كانت عملاً ذا قيمة".

تمنّت أمي على الدوام أن يصبح واحد من أبنائها، على الأقل، موسيقياً مثل سيلفيو؛ الأمنية التي تركتها محبطةً لأنّنا جميعاً أظهرنا حيال الموسيقا صمماً تاماً، رغم أننا جميعاً رغبنا في الغناء. باولا، وهي ترتب غرفتها في الصباح، كانت تغني بصوت قطّةٍ حزين مقاطعَ من الأوبرا والأغاني التي سمعتها من أمي. رافقت باولا أمي إلى الحفلات الموسيقية مدّعية حبها بالموسيقا، إلا أن أشقائي قالوا إن الأمر برمته في الحقيقة مجرد ادعاء وإنها لم تكترث لها إطلاقاً. بالنسبة إليّ وإلى أشقائي، كنا كلما اقتادونا للتدرب على بعض المقطوعات نبقى نائمين طوال الوقت، وعند اصطحابنا إلى الأوبرا لا نكف عن الشكوى: "بسبب كل هذه الموسيقا لن يسمحوا لنا بسماع كلمة واحدة". مرةً صحبتني أمي للاستماع إلى La Butterfly. حملتُ معي مجلة *Corriere dei Piccoli* وبقيت أقرأ طوال الوقت محاولةً تبيّن الكلمات تحت الضوء الشحيح للمسرح وأنا أغلق أذنيّ بيديّ كيلا أسمع الزعيق.

رغم ذلك كنّا جميعاً، حين تغني أمي، نصغي بأفواه فاغرة. مرّةً سأل أحدهم جينو إن كان يعرف أعمال فاجنر. "بالطبع" أجاب: "il Lohengrin سمعتها مغناة من أمي".

أبي ليس فقط لم يحبّ الموسيقا بل كرهها. لقد كره أية آلة تصدر الموسيقا سواء بيانو أو أكورديون أو حتى طبلة. في إحدى المرات كنتُ معه في روما في أحد المطاعم، مباشرة بعد الحرب. دخلت امرأة تطلب المساعدة فقام النادل بإيماءة لطردها. انفجر والدي غضباً في وجه النادل صارخاً: "أمنعك من طرد تلك المرأة المسكينة! دعها تبقى" وقام بمنحها صدقةً. انسحب النادل

إلى إحدى الزوايا متأففاً غاضباً مع المنديل فوق ذراعه. أخرجت المرأة من معطفها غيتاراً وبدأت العزف. بعد لحظات بدأ والدي يبدي علامات نفاد الصبر، العلامات ذاتها التي يبديها على المائدة؛ يخبط الأكواب، يخبط الخبز، يخبط أدوات المائدة، ينفض منديل المائدة على ركبتيه. المرأة واصلت العزف وهي تنحني ناحيته مع غيتارها ممتنةً لحمياته لها وعن الغيتار تصدر نغمات كئيبة طويلة. انفجر أبي بغتةً: "كفي عن هذه الموسيقا. لا أطيق سماع العزف". غير أنها واصلت العزف فيما النادل صامت في ركنه يتأمل المشهد بشعور المنتصر.

إضافةً إلى انتحار سيلفيو ثمّة أمر آخر في بيتنا اكتنفه الغموض دوماً، وهو متعلق بأشخاص تحدثنا عنهم بشكل متواصل، فالحقيقة أنّ توراتي وكوليشوف اللذين عاشا مع بعضهما بعضاً لم يكونا متزوجين. حتى هذا النوع من الغموض أدركتُ أنه رغبةٌ من والدي لتجنب الموضوع، لأن أمي وحدها ما كانت لتفكر في الأمر. كان باستطاعتهما بغاية البساطة أن يكذبا علينا ويخبراننا أنهما زوجان، لكن لا، بالعكس من ذلك، بالنسبة إلينا، أو على الأقل بالنسبة إلي وكنت ما أزال صغيرة، فقد تمّ إخفاء أنهما يعيشان معاً. أسمعهما دوماً يتحدثان عنهما كثنائي وأسأل إن كانا زوجاً وزوجة أو شقيقين أو ماذا، فيأتيني الجواب غائماً. لاحقاً لم أفهم من أين انبثقت أندرييننا كوستا، صديقة الطفولة لأمي وابنة كوليشوف، ولماذا سميت بكوستا، وما علاقته بالأمر أندريا كوستا الذي توفي منذ بعض الوقت، والذي رغم ذلك غالباً ما يتم ذكره مع أولئك الأشخاص.

توراتي وكوليشوف حضرا دوماً في ذكريات أمّي، وعلمتُ أنهما لا يزالان على قيد الحياة، ويقيمان في ميلانو (ربما معاً وربما في منزلين مختلفين) وأنهما لا يزالان منخرطين في السياسة ويناضلان ضد الفاشية. رغم ذلك فهما يختلطان في مخيلتي مع شخصيات أخرى حضرت أيضاً على الدوام في ذكريات أمّي: والدَيْها، سيلفيو، ديمينتي، باربيسون، أحياء أو أموات، أو حتى عجائز هرمون لا يزالون على قيد الحياة، إلا أنهم حضروا في ذاك الماضي البعيد، في تلك الوقائع السحيقة، حين كانت صغيرة، حين سمعت عبارة "هي أخت كلبتي"، أو "ماذا تشبه نتانة كبريتيد الهيدروجين"، أناس لا يمكن الالتقاء

بهم الآن، لا يمكن لمسهم، والذين حتى لو التقيتهم أو لمستهم فهم ليسوا الأشخاص الذين فكرت فيهم، والذين حتى لو كانوا لا يزالون على قيد الحياة إلا أنهم باتوا قريبين جداً من أولئك الموتى الساكنين روحي، وقد اكتسبوا منهم خفّة الخطوة المستحيلة.

"أوه! مسكينة ليديا" تتنهد أمي بين فينة وأخرى متحسرة على نفسها بسبب الأعباء التي تعاني منها؛ شحّ المال، توبيخ أبي، شجارات ألبيرتو وماريو الدائمة، عدم رغبة ألبيرتو بالدراسة وذهابه الدائم للعب كرة القدم، تجهمنا، وتجهم ناتالينا.

أنا أيضاً كنتُ أتجهم في بعض الأحيان أو أثور غضباً. كنتُ ما أزال صغيرة ولم تنزعج أمي كثيراً من تجهمي أو ثورات غضبي في ذلك الوقت. "إنها تسبب لي الحكة، تسبب لي الحكة" أبدأ القول صباحاً فيما أمي تلبسني بعض الملابس الصوفية التي تثير القشعريرة في جلدي. "لكنها كنزات جيدة" تقول أمي: "إنها من نويبرغ، لا تريدين أن نرميها أليس كذلك".

كنزاتنا كانت أمي قد اشترتها من نويبرغ، والكنزة القادمة من نويبرغ لا بدّ أنها فائقة الجودة، ناعمة ويستحيل أن تتسبب بشعور سيئ للجلد. الكنزات كانت تُشترى من نويبرغ، أمّا معاطفنا فيخيطها ماكّيروني. أمّا أحذيتنا الشتوية فأبي هو من يتولّى أمرها ويقوم بطلبها من عند إسكافي يدعي "السيد كاستانييري" صاحب الدكان في شارع سالوتزو. كنتُ أدخل غرفة الطعام وأنا ما أزال متجهمة بسبب كنزة نويبرغ، وحين تراني أمّي أدخل بكل ذلك العبوس والقتامة تقول: "ها هي ماريا تيمبورالا!".

لقد كرهت أمي البرد ولذا اشترت كل تلك الكنزات من نويبرغ. لقد كرهت البرد رغم ذلك الدوش البارد الذي تأخذه كل صباح وتحبه. لكن البرد، برد أيام الشتاء القارس، فقد كرهته. "يا له من برد" تقول بشكل متواصل وتشد كنزةً فوق أخرى وتشد الأكمام لتغطي الكفين. "يا له من برد! يا لفعله. لا أطيق البرد" وتسحب جوانب كنزة نويبرغ إلى الأسفل بينما أنا أحاول التملّص. "كلها مصنوعة من الصوف يا ليديا!" تقول مقلدةً رفيقةً قديمة لها كانت معها في

المدرسة. ”أظن أن رؤيتي لك في هذه الكنزة الجميلة الدافئة تمنحني الشعور بالسكينة“.

لقد كرهت الحرّ أيضاً. عند الحرّ تبدأ بالنفخ لإبعاد ياقة الفستان عن رقبتها: ”ما هذا الحرّ! أنا لا أطيق الحرّ“ تقول. ويقول أبي: ”يا لك من صعبة المراس! يا لك من صعبة المراس!“.

حين تسافر مع أبي كانت أمي تحمل معها كميات من السترات والفساتين مختلفة الأوزان ولا تكفّ عن تبديل ملابسها مع أدنى تغيّر بدرجة الحرارة. ”لا أعثر أبداً على ما يناسب هذا الطقس“ تقول فيجيبها أبي: ”كم أنت مملة، في البرد وفي الحر دوماً تجدين ما تتذمرين منه“.

أنا لم أحبّ قطّ تناول الفطور في الصباح. كنت أكره الحليب وكرهت الميتزورادو أكثر. رغم ذلك عرفت أمي أنني عندما أتناول وجبة خفيفة في بيت فرانشيس كنتُ أشرب كؤوساً من الحليب، وكذلك أيضاً عند تيرني. في الحقيقة كنت أتناول ذلك الحليب عند تيرني وفرانشيس بقمّة الامتعاض. لقد شربته بدافع الانصياع والخجل لأنني لست في بيتي. قررت أمّي أنني أحبّ الحليب من بيت فرانشيس، لذا صارت تجيئني بكأس كل صباح، وحين أرفض قطعاً أن أمدّ يدي إليه: ”لكنه حليب من عند فرانشيس“ تقول أمي: ”إنه حليب من عند لوتشيو! من بقرة لوتشيو“، بغية إقناعي أنهم ذهبوا لإحضاره من عند فرانشيس. لوتشيو وفرانشيس امتلك كلّ منهما بقرة خاصة، والحليب في بيتهما لم يُشترَ من بائع الحليب بل كان يجيء كلّ يوم من الأراضي التي يملكانها في نورماندي، في قرية صغيرة تدعى جروشيت.

”إنه حليب جروشيت! حليب من عند لوتشيو!“ تواصل أمي لبعض الوقت، وبما أنني أرفض بحزم أن أشربه ينتهي الأمر عند ناتالينا التي تصنع لي الحساء.

رغم بلوغي سن الذهاب إلى المدرسة فإنّني لم أذهب إليها لأن أبي رأى أن المدرسة تنقل الميكروبات. أشقائي أيضاً تابعوا دراستهم الابتدائية مع أساتذة في البيت للسبب نفسه. أنا درّستني أمّي. لم أفهم الحساب، ولم أنجح بحفظ جدول الضرب، فكانت تصرخ وتحضر الحصى من الحديقة وترصفها على الطاولة، أو تستخدم قطع السكاكر. في بيتنا كان ممنوعاً تناول السكاكر لأنّ

أبي رأى أنها تؤذي الأسنان، لم يعرف بيتنا حتى الشوكولا أو أي حلويات أخرى لأن تناولها محظور "بين الوجبات". الحلوى الوحيدة التي سمح بتناولها، والتي حضرت دوماً على المائدة، هي نوع من الكعك يسمى "gli smarren" ولا أعرف مَن الطباخ الألماني الذي علّمه إياها. يبدو أنها كانت حلوى رخيصة وقد أكلناها حتى ما عدنا نطيقها. ثمّ كانت هنالك الحلوى التي تعلّمت ناتالينا صنعها وأسمتها "حلوى جريسّوني"، ربّما لأن ناتالينا تعلمت صنعها حين كنا في جريسّوني، في الجبل.

السكاكر اشترتها أمّي فقط لتعلمني الحساب، غير أنّني كرهت أكثر الحساب المرتبط بالحصى والسكاكر. اشتركت أمّي، لتعلم طرق التدريس الحديثة، بمجلة مدرسية اسمها *I diritti della scuola* [الحقوق المدرسية]. لا أعرف ما الذي تعلّمته من تلك المجلة حول الأنظمة التربوية؛ ربّما لا شيء، غير أنها عثرت فيها على قصيدة أحبتها جداً وراحت تنشدها لإخوتي:

لنهتف جميعاً
تحيا اليد الأنيقة
لطفلة مهذبة
تمارس الفضيلة

أثناء تعليمي الجغرافيا كانت أمّي تحكي لي عن كل البلدان التي زارها أبي في شبابه. لقد ذهب إلى الهند حيث أصيب بالكوليرا وبالحمّى الصفراء كما أظنّ. وذهب إلى ألمانيا وهولندا. كما ذهب أيضاً إلى جزيرة سبيتسبيرج. في سبيتسبيريج دخل جمجمة الحوت بحثاً عن العُقَد المخية الشوكية لكنه لم ينجح بالعثور عليها. لقد غطاه دم الحوت بالكامل، والملابس التي عاد بها كانت ملطخة بدمٍ متيبس لا يزول. احتوى بيتنا الكثير من الصور لأبي مع الحيتان، وكانت أميّ تعرضها عليّ فتترك عندي شيئاً من خيبة الأمل لأنها صور باهتة لا يظهر أبي إلّا في خلفيتها كظل صغير، ومن الحوت لا يظهر لا خطمه ولا ذيله. هضبة مسننة فقط، رمادية وضبابية، ذاك كان الحوت.

في الربيع نَمت في حديقتنا ورود كثيرة. كيف نمت لم أعرف قطّ ما دام أحدٌ منا لم يهجس إطلاقاً بسقايتها أو تقليم الشجيرات. مرّة واحدة في العام يجيء بستانيّ، ويبدو أنّ هذا كان كافياً.

”ورود ليديا! بنفسجات ليديا!“ تقول أمّي وهي تمشي في الحديقة وتعيد تقليد رفيقتها تلك من أيام المدرسة. في الربيع جاء إلى حديقتنا أطفال تيرني مع مربيتهم أسّونتا التي ترتدي مئزراً أبيض وجوارب بيضاء مصنوعة من الخيوط الأسكتلندية. تخلع حذاءها وتضعه جوارها فوق المرج. وكان كوكّو ولولّينا، ابنا تيرني، يرتديان ملابس بيضاء أيضاً، فتلبسهما أمّي المراويل ليلعبا دون أن يلطخا ملابسهما. ”هش! هشش! انظروا ما الذي يفعله كوكّو“ تقول تيرني معجبةً بطفليها يلعبان على الأرض. تيرني أيضاً تخلع حذاءها وسترتها على المرج لتلعب بالكرة، غير أنها سرعان ما تعود لارتدائهما إن شعرت بمجيء أبي.

احتوت حديقتنا على شجرة كرز تعوّد ألبيرتو تسلّقها لأكل الكرز مع أصدقائه؛ فرينكو، صاحب الكتب، شخصية متجهمة يرتدي سترة وبيريه، وأشقاء لوتشيو. لوتشيو كان يجيء صباحاً ويغادر في المساء. في الفصول الجميلة أقام دوماً في منزلنا لأنهم لم يمتلكوا حديقةً.

لوتشيو كان رقيقاً، ضعيفاً، لا يجوع أبداً. إلى المائدة يأكل القليل ثمّ يتنهد ويضع الشوكة ويقول: ”لقد تعبتُ من المضغ“. مثل عائلته كلها كان يلفظ الراء غيناً أيضاً. كان لوتشيو فاشياً، فيثير إخوتي غضبه بحديثهم السيئ عن موسوليني. ”دعونا لا نتحدث في السياسة!“ يقول لوتشيو بمجرد رؤيته لأشقائي يصلون. في طفولته امتلك خصلات سوداء مجعدة تنسدل على جبينه، ثمّ قصّوا له شعره فصار لديه رأسٌ مرتب وناعم، يلمع بفضل البريانتين. ودوماً كان يلبس مثل رجل صغير، سترات صغيرة ضيقة مع ربطات عنق صغيرة على هيئة فراشة. تعلّم القراءة معي، إلا أنني قرأتُ أكواماً من الكتب بينما لم يقرأ هو إلا القليل لأنه كان يقرأ ببطء ويشعر بالتعب. رغم ذلك اضطرّ هو أيضاً للقراءة في بيتنا لأنني، بين حين وآخر، كنتُ أملّ اللعب فأستلقي على المرج مع كتاب. كان لوتشيو يمضي للتباهي أمام أشقائي بأنه قرأ كتاباً كاملاً، لأنهم

اعتادوا مشاكسته بأنه يقرأ القليل. ”اليوم قرأت ليرتين“، ”اليوم قرأت خمس ليرات“ يقول متفاخراً عارضاً السعر الموضوع على غلاف الكتب. في المساء تجيء مربيته ماريّا بوونونسييني لأخذه، وهي امرأة عجوز مجعدة، مع فراء ثعلب يطوق عنقها. ماريّا بوونونسييني تلك كانت امرأة شديدة التديّن، تأخذنا أنا ولوتشيو إلى الكنيسة وإلى الاحتفالات الدينية. كانت صديقة للأب سيميريا وتتحدث عنه دوماً. في إحدى المرات، لا أعرف في أية مناسبة دينية، عرّفتنا أنا ولوتشيو إلى الأب سيميريا الذي ربّت على رأسينا وسألها إن كنّا أولادها. ”لا! إنهم أبناء أصدقائي“ أجابت ماريّا بوونونسييني.

لم يحب آل لوبيز ولا آل تيرني الجبال. وكان أبي أحياناً يقوم برحلاته وبالتسلق مع صديق له يدعى غاليوتّي.

عاش غاليوتّي في قرية تدعى بوتزوولو مع شقيقةٍ وابنها. زارت أمي مرّة تلك القرية واستمتعت جداً وكانت دوماً تتحدث عن تلك الأيام في بوتزوولو: هناك الدجاج والديكة الرومية، ويقيمون ولائم عظيمة. آديل راسيتّي، شقيقة غاليوتّي، قامت بنزهات كثيرة مع أمّي مخبرةً إيّاها بأسماء الأعشاب والنباتات والحشرات، لأنهم جميعاً في تلك العائلة بيولوجيون وعلماء نبات. آديل أهدت أمّي لوحةً تظهر فيها بحيرة من الألب وقد احتفظنا بها معلّقةً في غرفة طعامنا. في الصباح كانت آديل، صغيرة، نحيلة، بأنف مدبب وقبعة من القش، تستيقظ باكراً لتجري حسابات المزارع، وترسم، أو تمضي إلى حقولهم لـلـ”تعشيب“. ”كم هي ماهرة آديل! تستيقظ باكراً، ترسم، وتمضي للتعشيب!“ تقول بإعجاب أمّي التي لم تعرف الرسم، ولم تعرف التفريق بين الهندباء والحبق. أمي كانت خمولة يملؤها دوماً الإعجاب بالأشخاص النشيطين. في كلّ مرة تلتقي فيها آديل راسيتّي تبدأ بقراءة كتيّبات علمية لتتعلم هي أيضاً بعض الأشياء عن الحشرات والنباتات، ولا تلبث أن تتركها وقد شعرت بالملل.

غاليوتّي كان يجيء لزيارتنا صيفاً في الجبل مع ابن اخته، ابن آديل، صديق شقيقي جينو. جدتي كانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً في الصباح حائرةً تتساءل عمّا يجب أن ترتديه. ”البسي ذاك الرماديّ مع الأزرار“ تقول أمي. ”لا، لقد رآه غاليوتّي قبلاً“ تجيب جدتي وهي تفرك كفيها ببعضهما بعضاً بقلق.

غاليوتّي أثناء انغماسه في الحديث مع والدي والتخطيط للمشي والتسلّق لم يكن ينظر مطولاً إلى جدتي، ورغم ذلك تبقى على قلقها من أن يكون غاليوتّي قد رأى "هذه الثياب في الأمس". لم تكن تطيق غاليوتّي، وجدته فظّاً بسيطاً، كما خشيت أن يقود والدي إلى أماكن خطِرة.

ابن أخت غاليوتّي ويدعى فرانكو راسيتّي كان يدرس الفيزياء وقد امتلك هو أيضاً هوس جمع الحشرات والمعادن. انتقل ذلك الهوس إلى جينو. يعودان من الرحلات بكميات من الطحالب في المناديل، خنافس ميتة وبلورات كريستال في حقائب الجبل. إلى المائدة يتحدث فرانكو راسيتّي بشكل متواصل، ودوماً عن الفيزياء أو الجيولوجيا أو الخنافس. كان لديه أنف مدبب وذقن حادة، وبشرته تبدو دوماً مثل سحلية خضراء شاحبة، مع شاربين شائكين. "إنه فائق الذكاء" قال عنه أبي: "لكنه جِلفٌ! جِلفٌ كثيراً". فرانكو راسيتّي، في إحدى المرات، وأثناء عودته رفقة جينو من إحدى الرحلات، وخلال توقفهما في كوخ مهجور بانتظار توقف المطر، كتب قصيدةً رغم أنّه جِلفٌ:

بطيئاً ورتيباً يتساقط المطر
فوق الحقول الخضراء وفوق الصخور السوداء
في الهواء تتلاشى الأشكال
محجّبة بضباب رقيق

جينو لم يكتب الشعر، حتى إنه لم يحب الشعر كثيراً ولا الروايات، غير أنه أحبّ تلك القصيدة كثيراً وصار ينشدها باستمرار. هي قصيدة طويلة وأنا للأسف لا أذكر منها غير ذلك المقطع. قصيدة الصخور السوداء بدت لي أيضاً جميلة جداً ومتّ غيظاً لأنني لم أكتبها أنا. كان الأمر بسيطاً، حقول خضراء وصخور سوداء، إنها أشياء رأيتها مرات كثيرة في الجبال دون أن يخطر لي أن أقوم بشيء حيالها، تأملتها فحسب. القصائد هي هكذا؛ بسيطة ومصنوعة من لا شيء. مصنوعة من أشياء كنتُ أتأملها. بعينين متيقظتين صرت أجول

بناظري حولي باحثةً عن أشياء تشبه الصخور السوداء أو تلك الحقول الخضراء، وهذه المرة لن أسمح لأحد أن يجعلها تهرب مني.

”جينو وراسيتّي يمشيان جيداً“ قال أبي: ”لقد قطعا مسار جبل l’Aiguille Noire de Peteré. أبليا حسناً، للأسف أن ريساتّي جِلفٌ لا يتحدث بالسياسة ولا يكترث لها. إنه جِلف“.

”لكن آديل ليست كذلك، ليست جِلفة“ تقول أمّي: ”كم هي ماهرة، تستيقظ باكراً. ترسم. أود لو كنت مثل آديل“.

غاليوتّي كان دائم البهجة. قصير إلى حد، ممتلئ الجسم، يرتدي ملابس من الصوف الموبّر، ولديه شاربان أشيبان قصيران، وشعر يتماوج بين الأبيض والأشقر، ووجه برونزي. جميعنا أحببناه كثيراً. ولا أذكر عنه شيئاً آخر.

ذات يوم وقفت أمي وتيرني في غرفة الانتظار. أمّي كانت تبكي. قالوا إن غاليوتّي مات.

ستبقى عبارة ”غاليوتّي مات“ ترافقني دوماً. حتى تلك اللحظة لم أكن قد اختبرت موت شخص عرفناه بهذا القرب. الموت في ذهني صار مرتبطاً ولا مجال لفصله عن هيئته بملابس الصوف الرمادية، مبتهجاً، يجيء لزيارتنا في الجبل صيفاً.

توفي غاليوتّي بغتةً جرّاء التهاب رئوي.

بعد سنوات كثيرة وإثر اكتشاف البنسلين، قال والدي دوماً:

”لو كان البنسلين موجوداً في زمن المسكين غاليوتّي لما مات. لقد مات بسبب التهاب رئوي نتيجة إصابته بالباكتيريا. نعم، مع البنسلين كان ليشفى“.

بمجرد موت شخص فإنّ أبي يضيف على الفور إلى اسمه صفة ”مرحوم“، وكان يغضب من أمي لأنها لا تفعل ذلك. كلمة ”مرحوم“ هي واحدة من العادات المحترمة جداً في عائلة أبي. فعندما تتحدث جدتي عن شقيقتها المتوفاة تقول دوماً ”المرحومة ريجينا“ ولا تسميها بغير ذلك.

هكذا صار غاليوتّي، بعد ساعة واحدة من وفاته، ”المرحوم غاليوتّي“. جدّتي تلقّت نبأ موته باحترازٍ شديد، هي التي تملكّها ذعر شديد من الموت، ولم تكن ممنونةً أن يحوم الموت قريباً منها، بين أناسٍ تعرفهم.

بعد وفاة غاليوتّي لم يعد أبي يفرح كثيراً فَي التسلّق. مارسه لكن دون ذلك الفرح القديم. وتحدّث باستمرار مع أمّي عن السعادة والبهجة حين كان غاليوتّي ما يزال حياً، وكانا أكثر شباباً، حين كانت الجبال بالنسبة إلى أبي بمثابة السحر، وحين بدا أنّ نهاية الفاشية وشيكة.

***

"كم هو رقيق! كم هو لطيف ماريو" تقول أمّي وهي تمسّد شعر ماريو الذي استيقظ للتوّ وعيناه ضيقتان ولا مرئيتان تقريباً بسبب النعاس.

"الدودة تنخر تفاحْ" يقول ماريو وهو يبتسم ساهماً مداعباً فكّه. إنها طريقته في الإعلان أنه ليس متجهماً وسيتحدث مع أمّي وشقيقتي ومعي.

"كم هو لطيف ماريو! كم هو جميل!" تقول أمّي: "يشبه سيلفيو، يشبه سويس آيّا كاوا". سويس آيّا كاوا هو ممثل ياباني كان معروفاً آنذاك. عندما رأت أمّي على الشاشة العينين المنغوليتين لسويس آيّا كاوا، مع عظام الوجنتين البارزتين صرخت: "إنّه ماريو! كأنه هو".

"ألا ترى أنت أيضاً أنّ ماريو جميل؟" تسأل أبي، فيجيبها: "لا أراه جميلاً جداً. جينو أجمل منه".

"جينو أيضاً جميل" تقول أمّي: "كم هو لطيف جينو! جينوني. بالنسبة لي، أنا معجبة بأولادي فقط. أنا أستمتع فقط مع أولادي".

عندما يرتدي ماريو وجينو ملابس جديدة من صنع الخياط ماكّيروني، كانت أمّي تعانقهما وتقول: "أنا فداء أولادي. حين يرتدون ملابس جديدة أحبهم أكثر".

في منزلنا دارت نقاشات ساخنة حول جمال الناس وقبحهم. والنقاش المتواصل كان حول ما إذا كانت جيلدا، خادمة عائلةٍ من أصدقائنا في باليرمو، جميلة أو لا. فبينما رأي إخوتي أنّها شديدة القبح ولها بوز كلب، قالت أميّ إنها تملك جمالاً استثنائياً.

"ماذا؟!" صرخ أبي مع واحدة من ضحكاته الرنانة التي يتردد صداها في أرجاء المنزل: "ماذا؟! تلك المرأة جميلة؟!".

ولطالما دار نقاش مستفيض حول من الأقبح، كولومبو أو كوين، صديقينا اللذين كنا نلتقيهما في الجبل صيفاً. "الأقبح هو كوين" يصرخ أبي: "تريدون وضع كولمبو معه! لا مجال للمقارنة. كولومبو هو الأفضل. ألا تملكين عينَين؟ وأنتم أيضاً أليس لديكم عيون؟".

اعتاد أبي القول عن بنات عمومته المختلفات، واللواتي حملن جميعاً اسم مارغريتا أو ريجينا، أنهن كنّ جميلات جداً. "ريجينا في شبابها" يبدأ الحديث: "كانت امرأة فائقة الجمال" فتقول أمي: "لا بيّنو! كانت عبارة عن ساحرة شريرة" وتمطّ شفتها وذقنها من تحتها لتعرض كم كانت رجينا تلك ساحرة شريرة، فيغضب أبي: "أنت لا تفقهين شيئاً بالجمال والقبح. أنت تقولين إن كولومبو أقبح من كوين".

***

جينو كان جديّاً، مجتهداً، وهادئاً. لم يتشاجر مع أحد من إخوته وماهر في الجبال. كان المفضّل عند أبي. لم يقل عنه قط "حماراً"، بل قال "الرسن متروك له". إرخاء الحبل على الغارب في بيتنا كان يعبر عنه بـ"إرخاء الرسن". في الحقيقة أرخى الرسن لجينو بعض الشيء لأنه قارئ وعندما يتحدث إليه يجيب باقتضاب دون أن يرفع رأسه عن الكتاب. وإن تشاجر ألبيرتو مع ماريو فلا يتحرك، ويواصل القراءة، فتضطر أمي أن تناديه وتنبهه ليجيء فيفرّقهما. أثناء القراءة يأكل الخبز رويداً رويداً، رغيفاً تلو آخر، يأكل منه قرابة الكيلو بعد الغداء.

"جينو" يصرخ أبي: "لا تأخذ الرسن كله! أنت لا تحكي شيئاً، ثمّ كفّ عن أكل الكثير من الخبز ستصاب بعسر الهضم". في الحقيقة لقد عانى جينو من عسر الهضم في كثير من الأوقات، فيصير وجهه أحمر، كئيباً، وتلوح أذناه بلون أحمر كالنار. "لماذا بوز جينو على هذه الهيئة؟" يقول أبي لأمي وهو يوقظها في منتصف الليل. "ما باله ذاك الكالح؟ هل أوقع نفسه في ورطة؟". أبي لم يعرف تمييز ملامح عسر الهضم في وجوه أبنائه. وأمام أي نوع من عسر الهضم يشك بوجود قصص تتعلق بالنساء، العكاريت، كما كان يقول.

في بعض المساءات يأخذ جينو معه إلى آل لوبيز. فهو بالنسبة إليه يبدو الأكثر وقاراً وتهذيباً، والأكثر حضوراً من بين أبنائه. غير أن جينو اعتاد النوم بعد تناول الطعام، فكان ينام هناك أيضاً، عند آل لوبيز. فيما هو جالس على الكنبة وفرانشيس تتحدث إليه تضيق عيناه ويأخذ رأسه بالتأرجح بلطف، ثم بعد لحظات يغفو مع ابتسامة رضى باهتة، وكفّاه في حجره.

"جينو" يصيح أبي: "ليس وقت النوم! أنت نائم، وأنتم! لن تتعلموا كيف تكونون من النبلاء".

***

كان هناك جينو وراسيتّي مع الجبال، "الصخور السوداء"، بلورات الكريستال، والحشرات، من ناحية. ومن ناحية أخرى ماريو مع أختي باولا، وتيرني، الذين كرهوا الجبال وأحبوا الغرف المغلقة الدافئة خافتة الإضاءة، والمقاهي. أحبوا لوحات كازوراتي، مسرح بيراندييللو، قصائد بول فيرلان، مطبوعات غاليمار، وبروست. لقد كانا عالمين متناقضين.

كلا العالمين جذبني. وبقيت تائهةً بينهما لا أعرف إن كنت أريد في حياتي أن أدرس الخنافس والكيمياء وعلم النبات، أو أن أرسم اللوحات، أو أكتب الروايات بدلاً من ذلك. في عالم راسيتّي وجينو كل شيء كان واضحاً، كل شيء يحدث تحت ضوء الشمس، كل شيء منطقي، ليس ثمّة غموض أو أسرار. بعكس المناقشات التي دارت بين تيرني وباولا وماريو، فوق الأريكة في الصالون، والتي تميزت بغموض يصعب اختراقه أصابني بمزيج من الانبهار والخوف.

"ما الذي لدى تيرني مع ماريو وباولا ليعلوكنه؟" يقول أبي لأمّي: "إنهم دائماً في ذلك الركن يعلّكون. ما كل هذه السخافات؟".

السخافات بالنسبة إلى أبي هي الأسرار. لم يطق رؤية أناس منغمسين بالحديث دون أن يعرف ما يقولونه.

"يتحدثون عن بروست" تقول أمي.

أمّي قرأت بروست بالفعل، وهي، كما تيرني وباولا، أحبته كثيراً. حكت لأبي أن بروست ذاك هو شخص أحبّ والدته وجدته كثيراً، وأنه أصيب بالربو ولم يكن يستطيع النوم. ولأنه لم يحتمل الضوضاء قام بتبطين جدران غرفته بالفلين.

"لا بدّ أنه كان غليظاً" قال أبي.

لم تختر أمّي أيّاً من العالمين، عاشت لبعض الوقت في كلّ منهما، وفي كلّ منهما عاشت بفرح لأن فضولها لم يرفض شيئاً، بل كان يتغذى على أي نوع من المأكل أو المشرب.

أبي، بخلافها، نظر إلى الأشياء الجديدة التي لا يعرفها بنظرةٍ متجهمة ملؤها الارتياب. وقد خشي دوماً أن تكون الكتب التي يحضرها تيرني إلى بيتنا غير "ملائمة" لنا. "هل هو ملائم لباولا؟" يسأل أمي وهو يقلّب **البحث عن الزمن المفقود**، ويقرأ بضع جملٍ فيه لا على التعيين. "لا بدّ أنها أشياء مملة" يقول وهو يرمي الكتاب بعيداً. حقيقة كونها "أشياء مملة" كانت تبعث فيه شيئاً من الطمأنينة.

بخصوص لوحات كازوراتي التي كان تيرني يحضر نسخاً منها فإنّ أبي لم يطقها: "خربشات! جلغمة!" كان يقول. لم يثر الرسم اهتمامه على أية حال. رافق أمي إلى المتاحف الفنية أثناء سفرهما، وقد منح الرسامين "العتاق"، مثل فرانشيسكو غويا وتيتزيانو فيتشيليو، شيئاً من المشروعية نظراً إلى كونهم صاروا معروفين عالمياً ومحتفى بهم. رغم ذلك أراد لتلك الزيارات إلى المتاحف أن تكون خاطفة ولم يسمح لأمي بالوقوف طويلاً أمام اللوحات. "ليديا! هيا نذهب" يقول وهو يسحبها بعيداً. أثناء السفر كان دوماً في غاية الاستعجال.

أمي أيضاً، على أي حال، لم تهتم كثيراً بالرسم. لقد عرفت كازوراتي شخصياً ووجدته لطيفاً. "يا لوجه كازوراتي الجميل" قالت دوماً. وبما أنها وجدت وجهه جميلاً فقد تقبّلت لوحاته أيضاً. "كنتُ في مرسم كازوراتي" تقول أختي عند عودتها. "كم هو لطيف كازوراتي! يا لجمال وجهه" تقول أمّي. "أيّ هراء تذهب باولا لفعله في مرسم كازوراتي؟" يسأل أبي بشيء من العبوس

والارتياب. لقد خشي أبي دوماً أن نضع أنفسنا في شيء من ”اللخبصة“، بمعنى أن نجد أنفسنا محاصرين بحبائل قصص حب غامضة. وفي كلّ مكان رأى تهديدات لعفّتنا.

”لا شيء. لقد ذهبتْ مع تيرني لتسلّم على نيللا ماركيزيني“ تشرح له والدتي.

اسم نيللا ماركيزيني، صديقة الطفولة لشقيقتي والتي يعرفها جيداً، كان كافياً لطمأنة أبي. كانت نيللا ماركيزيني تدرس الرسم مع كازوراتي واعتبر والدي وجودها في مرسمه مبرراً. غير أنّ مرافقة تيرني لم تكن لتطمئنه لأنه لم يجدها حمايةً موثوقة.

”كم من الوقت يملك تيرني ليخسره؟“ يلاحظ: ”من الأفضل له أن ينهي عمله في علم أمراض الأنسجة. منذ عام أسمعه يتحدث عن ذلك“.

”هل تعلم أنّ كازوراتي مناهض للفاشية؟“ تقول أمي. مناهضو الفاشية في ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا نادرين، وما إن يسمع أبي بواحد منهم حتى يبتهج.

”آها، هو مناهض للفاشية! حقاً؟“ يقول باهتمام: ”لكن لوحاته مجرّد خربشات كبيرة! ربّما يحبها الناس!“.

تيرني كان صديقاً مقرباً لإتوري بيتروليني. وعندما جاء بيتروليني إلى تورينو لتقديم سلسلة من العروض حظي تيرني كلّ ليلة تقريباً ببطاقات مجانية يمنحها لأشقائي وأمّي. ”يا للروعة“ تقول أمي خلال النهار: ”الليلة أيضاً سنذهب للاستماع إلى بيتروليني، وسنذهب مع مقاعد في الصفوف الأمامية. كم أحب الذهاب إلى المسرح مع مقعد في الصفوف الأمامية. إنّ بيتروليني لطيف جدّاً وفكاهي. كان سيليفو ليحبه كثيراً“. ”آها. الليلة أيضاً ستخلفونني وحدي“ يقول أبي، فتجيبه أمي: ”فلتأتِ معنا أنت أيضاً ببّينو“. ”ماذا؟“ يصرخ أبي: ”تخيلوا أن أذهب لأستمع إلى بيتروليني! أن أهتم ببتروليني! إنه مهرج“.

”لقد ذهبنا مع تيرني لتحية بيتروليني في غرفة الملابس“ تقول أمّي في اليوم التالي: ”وحضرت ماري أيضاً. إنهم أصدقاء مقربون من بيتروليني“.

من وجهة نظر أبي حضور ماري، زوجة تيرني، التي حمل لها أعلى درجات الإعجاب والتقدير، يبعث على الطمأنينة والثقة. حضور ماري هو قيمة تمنح

المبرر والحشمة لتلك الأمسيات في المسرح، وربّما القليل أيضاً لشخصية بيترولیني الذي واصل احتقاره رغم ذلك، مستنكراً أنه من أجل التمثيل عليه أن يضع أنفاً ورديا أو أن يصبغ شعره بالأوكسجين. "لا أفهم كيف لماري أن تكون صديقةً لبيترولیني" يقول بذهول كبير: "لا أفهم كيف لها أن تستمتع كثيراً بالاستماع إلى بيترولیني! أفهم تيرني والآخرين، المعجبين بالأوغاد. أمّا أن يكونوا أصدقاء مقربين لبيترولیني؟ لا بد أنهم أشخاص مثيرون للريبة".

بالنسبة إلى أبي فالممثل، وبشكل خاص الممثل الكوميدي الذي يقوم بالإيماءات على الخشبة لإضحاك الناس، هو دون شك "شخص مثير للريبة". تذكّره والدتي بأن شقيقه تشيزري أمضى حياته رفقة الممثلين، وأنه تزوج ممثلة، وأنه من غير الوارد أن يكون كل أولئك الأشخاص الذين اعتاد شقيقه التواصل معهم أشخاصاً "مثيرين للريبة" حتى لو أدوا مشاهد بملابس تنكرية أو صبغوا شعورهم وشواربهم. "ومولییر؟" تقول له والدتي: "ألم يكن مولییر ممثلاً أيضاً؟ هل تريد القول إن مولییر أيضاً كان شخصاً مثيراً للريبة!".

"آه، مولییر!" يقول أبي الذي يكنّ لمولییر أعلى درجات التقدير: "مولییر فائق الجمال. المرحوم تشيزري كان شغوفاً بمولییر. لكن أبداً لا تقصدين مقارنة مولییر ببيترولیني؟" يصيح أخيراً مع واحدة من تلك الضحكات الرنانة التي تسكب فوق بيترولیني أشد درجات الازدراء.

أمّي وباولا وماريو اعتادوا الذهاب إلى المسرح، وعادةً رفقة آل تيرني الذين إن لم يكن لديهم مقاعد في الصفوف الأولى تكون دعوة في الشرفة. لهذا لم يستطع أبي القول: "لا أريدكم أن تبذروا أموالكم في المسرح" كما أنه نظر بشي من الإيجابية إلى أمسيات أمّي مع ماري.

"تذهبين دوماً للاستمتاع وتتركينني وحدي" يقول لأمّي التي تجيبه: "لكنك في المساء تبقى مقفلاً على نفسك في المكتب، لا تعيرني أدنى اهتمام. ولا ترغب في صحبتي". "يا لك من حمارة!" يقول أبي: "أنت تعلمين ما الذي أفعله. ليس لديّ وقتٌ لأضيعه مثلكم. ثمّ إنني لم أتزوجكِ لأبقى برفقتك".

في المساء كان أبي يعمل في مكتبه، يصحّح مسودات كتبه ويلصق بعض الرسوم التوضيحية. في بعض الأحيان يقرأ الروايات. "جميلة هذه الرواية،

ببّينو؟“ تسأل أمي. ”لا. إنها مملة. هراء“ يجيب رافعاً كتفيه. رغم أنه يواصل القراءة بتركيز شديد وهو يدخن الغليون وينفض الرماد عن الصفحة. عند عودته من بعض السفرات كان يحمل معه دوماً الروايات البوليسية التي يشتريها من أكشاك المحطات، وينهي قراءتها في مكتبه مساءً. عادةً تكون روايات باللغة الإنكليزية أو الألمانية؛ بدا له أقلّ ربّما تفاهةً أن يقرأها بلغة أجنبية. ”هراء“ يقول رافعاً كتفيه، ورغم ذلك يقرأها حتى آخر صفحة. لاحقاً، حين بدأت تصدر روايات جورج سيمينون، صار أبي قارئاً منتظماً لها ويقول: ”ليس سيئاً سيمينون. إنه يصف ذلك الإقليم الفرنسي جيداً. لقد وصف البيئة فيه بشكل جيد جداً“. لكن، في سنوات حي باسترينغو لم تعد روايات سيمينون حاضرة. الكتب التي صار أبي يحملها معه من أسفاره صارت مجلدات جيب مع شخصياتٍ نسائية مذبوحة على أغلفتها. عثرت أمّي عليها في جيوب معطفه، وقالت: ”لكن انطروا أيّ هراء يقرأ ببّينو!“.

***

لقد خلق تيرني بين باولا وماريو شيئاً من التواطؤ استمرّ حتى بعد مغادرته. كان تواطؤاً مضمراً، بقدر ما استطعت الفهم، ميزته الكآبة. لقد قام ماريو وباولا بنزهات كئيبة، إمّا مع بعضهما بعضاً، أو كلٌّ بمفرده، عند الغسق. ومع بعضهما قرآ قصائد حزينة ترنّما بها بهمسٍ متوجّع.

تيرني، إن أسعفتني الذاكرة، لم يكن على الإطلاق شخصاً كئيباً. لم يكن منجذباً على نحو خاص إلى الأمكنة المهجورة أو التي يخيم عليها الصمت، ولم يقم قطّ بنزهات كئيبة وانفرادية. لقد عاش تيرني حياة طبيعية تماماً في بيته مع زوجته ماري، والمربية أسّونتا، وابنيه الاثنين كوكّو ولولّينا، اللذين أفسدهما هو وزوجته، وكانا ينتشيان بأفعالهما. غير أن تيرني حمل إلى بيتنا طعم الكآبة، التصرفات الكئيبة، تماماً مثلما حمل إليه مجلّة *Nouvelle Revue Française* ونسخ كازوراتي. وقد قبلت باولا وماريو تلك الدعوة، لكن ليس جينو الذي لم يحب تيرني ولم يحبّه تيرني إطلاقاً، ولا ألبيرتو الذي لم يكترث للشعر والرسم، والذي من بعد ”العانس العجوز دون حلمة“ لم يكتب الشعر قطّ وكان يفكر

فقط في لعب كرة القدم. ولا أنا التي لم يثر تيرني كثير اهتمامي، ولم أرَ فيه غير والد كوكّو، الطفل الذي ألعب معه في بعض الأحيان.

باولا وماريو، التائهان في كآبتهما، أظهرا تذمّراً شديداً من استبداد أبي ومن ظروف بيتنا البسيطة والمتقشفة. تملّكهما شعور أنّ بيتنا أشبه بالمنفى. حلما بمنزل مختلف كلياً وعادات مغايرة تماماً. تذمّرهما تُرجم إلى وجهين متجهمين وكالحين بشكل كبير، نظرات فارغة، وجهين جلفين، أجوبة من كلمة واحدة، إغلاق الأبواب بغضب يهتز له البيت، الرفض القاطع للذهاب إلى الجبل يومي السبت والأحد. حالما يخرج أبي من الغرفة يهدآن لأنّ تذمّرهما لم يشمل أمّي بل كان مصوباً تحديداً نحو أبي. يستمعان لحكايات أمّي وينشدان معها بصوت مرتفع قصيدة الطوفان:

"أيّام كثيرة مضت ونحن نرتجف".

أراد ماريو دراسة الحقوق غير أن أبي أرغمه على الالتحاق بالتجارة والاقتصاد. لقد بدت له كلية الحقوق، ولا أدري السبب، كليّةً غير جديّة بما يكفي ودون مستقبل مضمون. بقي ماريو حاقداً عليه بصمت لسنوات. أما باولا فكانت بالعموم غير راضية عن الحياة التي عاشتها، رغبت بالمزيد من الملابس إذ لم تعجبها الملابس التي امتلكتها وبدت لها صبيانية وبقصّات ثقيلة. فوالدي أرادنا جميعاً أن نرتدي ملابس الخياط ماكّيروني، خياط رجالي، ورخيص، أو على الأقل هو من قرر أنه رخيص. أمّي أيضاً كانت لديها خياطة، الخياطة آليس، التي لجأنا إليها في بعض الأحيان، غير أن أمي رأت أنها غير ماهرة. "كم أرغب بفستان من الحرير الخالص" تقول أختي لأمي وهما تثرثران في الصالون، فتجيبها أمّي: "أنا أيضاً". كانتا تتصفحان مجلات الموضة. "أرغب بفستان أميرة من الحرير الخالص" قالت أمي، لتجيبها أختي: "وأنا أيضاً". غير أنّهما لم تستطيعا شراء الحرير الخالص بسبب شح المال، كما أنّ الخياطة آليس كانت لتفسده لأنها لا تعرف القصّ. رغبت باولا في قص شعرها وانتعال الكعوب العالية ولبس الأحذية الصبيانية الثقيلة التي يصنعها "السيد كاستانييري"، الذهاب للرقص في بيوت صديقاتها، لعب التنس. وأي من ذلك لم يكن مسموحاً لها، بل كانت مرغمةً على الذهاب يومي السبت والأحد إلى

الجبل مع جينو وأبي. رأت باولا أن جينو ممل، ريساتّي ممل، جميع أصدقاء جينو مملون للغاية، والجبل لا يطاق. رغم ذلك كانت تتزلج بمهارة، دون أسلوب، كما قالوا، ولكن بكثير من الجلد على المشقة وبشجاعة عظيمة. ترمي نفسها في المنحدرات بزخم لبوة. الزخم والعنفوان اللذان اندفعت بهما في المنحدرات دفعاني للاعتقاد أنها كانت سعيدة بالتزلج وتحوز منه قدراً كبيراً من المتعة، غير أنها أظهرت كرهاً عميقاً للجبال. قالت إنها تكره أحذية التزلج ذات المسامير، الجوارب الصوفية، حبّات النمش الصغيرة التي تتركها الشمس على أنفها الصغير الرقيق. ولإخفاء تلك الحبات من النمش اعتادت، عند عودتها من الجبال، استخدام بودرة بيضاء تمسح بها وجهها. لقد رغبت في ألّا تكون عفيّةً تماماً، وبهيئةٍ هشّة، ووجه بشحوب القمر، مثل نساء لوحات كازوراتي. ولطالما استاءت حين قيل إنها "نضرة كالوردة". لدى رؤيته بياض وجهها لم يشتبه أبي بأنها تضع البودرة، بل كان يقول إنها مصابة بفقر الدم وعليها تناول الحديد.

كان أبي يفتح عينيه في الليل ليقول لأمّي: "يا لروعتهما ماريو وباولا! لقد أجريا فيما بينهما تحالفاً عظيماً. يبدو لي أنّ هذا الوغد تيرني قد وضعهما في مواجهتي".

لم أعرف ما كان يتهامس به تيرني وباولا وماريو على الأريكة في الصالون آنذاك، وما زلت لا أعرفه الآن. لكن أحياناً كانوا يتحدثون فعلاً عن بروست. حتى أمي تدخلت أحياناً في نقاشاتهم. "La petite phrase" تقول أمي: "يا للروعة حين يقول !La petite phrase كم كان سيلفيو سيعجب بها أيضاً". يفتح تيرني قطعة السكاكر، يمسحها بالمنديل، على طريقة Swann، وتبدأ الهسهسة "هست هست"، "يا لعظمتها! يا لجمالها!" يردد دوماً، وتقلدانه، باولا وأمّي، طوال النهار. "نميمة" يقول أبي ملتقطاً بعد الكلمات أثناء مروره: "لقد سئمتُ نمائمكم" ويواصل وجهته نحو المكتب ومن هناك يصرخ: "تيرني لم ينهِ بعد عمله حول أمراض الأنسجة، إنه يضيّع الكثير من الوقت في الهراء! إنه كسول، لا يعمل بما يكفي. إنه كسولٌ كبير".

وقعت باولا في حبّ زميل لها في الجامعة؛ شاب صغير، لطيف، صاحب صوت آسر. تنزّها معاً على طول نهر Po وحدائق فالينتينو، وتحدّثا عن بروست، لكون الشاب بروستيّ متحمّس، وهو في الحقيقة أول من كتب عن بروست في إيطاليا. ذلك الشاب كان يكتب قصصاً قصيرة ومقالات نقدية أدبية. أعتقد أنّ باولا وقعت في حبّ ذلك الشاب لأنه كان بصغره وأناقته وصوته الآسر فائق الحلاوة نقيض والدي تماماً. إضافة إلى أنه لا يعرف شيئاً عن أمراض الأنسجة، ولم تطأ قدماه مطلقاً ميادين التزلج. عرف أبي بأمر تلك النزهات فثار غضباً؛ قبل كل شيء لأن بناته ما كان عليهن التنزّه رفقة رجال، ثم لأنه رأى في الأديب، الناقد، الكاتب، شيئاً دنيئاً، تافهاً، ومريباً أيضاً. إنّه العالمُ الذي أثار نفوره. مع ذلك واصلت باولا نزهاتها رغم منع أبي. وقد التقاها آل لوبيز في بعض الأحيان، وأصدقاء آخرون لوالديّ، وأخبروا أبي مع معرفتهم بمنعه لها. طبعاً إن صادفها تيرني فإنه لن يذهب ليخبر أبي لأنّ باولا باحت له بالأمر أثناء التهامس السريّ على الأريكة.

يصرخ أبي لأمّي: "لا تتركيها تخرج. امنعيها من الخروج". أمّي أيضاً لم تسعدها تلك النزهات، كما أنها نفرت أيضاً من ذلك الشاب. لقد نقل إليها أبي لا شعورياً عدوى النفور من عالم الأدباء، العالم الغريب عن بيتنا الذي لم يدخله إلّا البيولوجيون والعلماء أو المهندسون. من ناحية أخرى كانت علاقة أمّي بباولا وثيقة جداً. قبل أن تبدأ باولا علاقتها بذلك الشاب كانت تذهب مع أمي في جولات في أنحاء المدينة تتأملان فيها "الملابس المصنوعة من الحرير الخالص" والتي لم تستطع أي منهما شراءها. أما الآن فنادراً ما تملك باولا الوقت للخروج مع أمي، وإن امتلكته وخرجتا معاً تثرثران متشابكتي الذراعين، وسرعان ما ينتهي بهما الأمر للحديث عن ذلك الشاب. عند عودتهما إلى البيت تكون كل منهما غاضبة من الأخرى؛ لأنّ أمّي، التي بالكاد تعرفه، لم توافق على كلّ ما طالبت به باولا من إعجاب وقبول لذلك الشاب. أمّي كانت عاجزةً تماماً عن منع أي شيء عن أي شخص. "لا سلطة لديك!" يصرخ أبي موقظاً إياها في الليل. ومن ناحية أخرى لم يبدِ هو أيضاً تسلطاً كبيراً، لأن باولا واصلت لسنوات الخروج مع ذلك الشاب الصغير، وكفّت عن ذلك فقط حين انطفأ

الأمر من تلقاء نفسه رويداً رويداً مثلما ينطفئ ضوء الشمعة. ليس نزولاً عند رغبة أبي، بل متحررةً تماماً من صراخه ونواهيه.

انصبّ غضب أبي أيضاً، عدا عن باولا وذلك الشاب الصغير، على دروس شقيقي ألبيرتو الذي عوض أن يدرس واجباته المنزلية كان يمضي دوماً للعب كرة القدم. من بين الرياضات أحبّ أبي الجبال فقط. بقية الرياضات الأخرى اعتبرها إمّا دونيّة وتافهة كالتنس، أو مملة وخرقاء كالسباحة، لأنه كره البحر والشواطئ والرمال. أمّا كرة القدم فقد اعتبرها لعبة أولاد الشوارع ولم يحتسبها ضمن الرياضات حتى. كان جينو يدرس جيداً، وكذلك ماريو. باولا لم تدرس لكن أبي لم يكترث للأمر؛ إنها فتاة، وفكرته كانت أنّه لا بأس إن لم ترغب الفتيات بالدراسة لأنهن في نهاية المطاف سيتزوجن؛ لذا هو لم يعرف أبداً أنني لم أتعلم الحساب. وحدها أمي اليائسة من الأمر، كان عليها أن تعلمني إياه. ألبيرتو لم يكن يدرس بتاتاً، وأبي الذي لم يعتد ذلك مع أبنائه الذكور الآخرين كان يستولي عليه ذعرٌ مخيف حين يجيء إلى البيت بتقرير سيئ، أو عندما يتم إيقافه عن المدرسة بسبب عدم الانضباط. لقد تملّك أبي القلق على مستقبل أبنائه الذكور كلهم. حتى أنه كان يستيقظ ليلاً ليقول لأمّي: "ماذا سيفعل جينو؟ ماذا سيفعل ماريو؟" أما بشأن ألبيرتو الذي كان آنذاك في الثانوية، فهو لم يقلق بل استولى عليه ذعرٌ حقيقي. "ذلك الشقي ألبيرتو! ذلك السافل ألبيرتو!" لم يقل أبداً "ذلك الحمار ألبيرتو" لأن ألبيرتو كان أكثر من حمار؛ أخطاؤه بدت لأبي مروعة وقميئة. لقد أمضى ألبيرتو نهاراته إمّا في ملاعب كرة القدم التي يعود منها متسخاً، وأحيانا بدماء أو ضمادات على ركبتيه أو رأسه، وإما في التسكع مع أصدقائه. ودائماً ما يعود متأخراً عن موعد الغداء. كان أبي يجلس إلى المائدة ويبدأ يخبط الكأس، الشوكة، الخبز، دون أن يعرف إن كان غاضباً من موسوليني أو من ألبيرتو الذي لم يعد بعد. "الشقيّ! السافل!" يقول بينما ناتالينا تدخل بالحساء، ويتصاعد غضبه رويداً رويداً بمرور الوقت على الغداء. مع تناول الفاكهة يصل ألبيرتو نضراً، مورّداً، مبتسماً. ألبيرتو لم يمتلك قطّ شحوب القمر، كان مبتهجاً دوماً. "أيها الشقي!" يرعد أبي: "أين كنت؟". "في المدرسة" يقول ألبيرتو بصوته العذب المرح: "ثم

ذهبت لحظةً رفقة صديق لي“. ”صديق لك! شقيّ ولا شيء غير ذلك! ”الأوان“ مضى“. بالنسبة إلى أبي الساعة الواحدة هي ”الأوان“، وحقيقة أن يعود ألبيرتو ”بعد الأوان“ هي أمرٌ مروّع.

أمّي أيضاً كانت دائمة الشكوى من ألبيرتو: ”إنّه متّسخ دوماً“ تقول: ”يتسكع فيبدو مثل بارباس. لا يفعل غير طلب المال مني. إنه لا يدرس“.

”أنا ذاهب لدقيقة مع صديقي باييتّا“، ”أنا ذاهب لبعض الوقت مع صديقي بيستيللي“، ”ماما، أَعطيني ليرتين لو سمحتِ“، هذه الكلمات التي كان ألبيرتو يقولها في البيت، ولم يقل الكثير غيرها، ليس لأنه لم يكن اجتماعياً بل إنه كان الأكثر اجتماعية وألفة ومرحاً بيننا. ”دوماً مع باييتّا، مع باييتّا، مع باييتّا!“ تقول أمّي ناطقةً ذلك الاسم خاصّة بسرعة وغضب، ربّما للإشارة إلى السرعة التي يفرّ بها ألبيرتو. الليرتان كانتا آنذاك أيضاً مبلغاً صغيراً، غير أن ألبيرتو تعوّد أن يطلب ليرتين أكثر من مرة خلال النهار. متنهدةً تفتح أمّي درج خزانتها بالمفاتيح. النقود لم تكن كافية قطّ بالنسبة إلى ألبيرتو. تعوّد بيع كتب البيت إلى أن تبدأ رفوفنا تفرغ شيئاً فشيئاً. وبين الحين والآخر يبحث والدي عن كتاب فلا يعثر عليه، وكيلا تغضبه أمّي تخبره أنها أعارته لفرانشيس، غير أنّ الحقيقة هي أنّ المطاف انتهى به إلى كشك الكتب المستعملة. في بعض الأحيان حمل ألبيرتو أيضاً فضّيات البيت إلى Monte di Pietà [4]. بكت أمّي عندما لم تعثر على ركوة القهوة وهي تقول لباولا: ”انظري ما الذي فعله ألبيرتو، انظري ما الذي فعله بي! ولا أستطيع إخبار البابا لأنه سيوبخه!“. خافت غضبَ أبي، حتى إنها راحت تبحث عن إيصالات Monte di Pietà لاسترداد أواني القهوة خاصتها سرّاً دون أن تخبره.

4 منظمة أوروبية غير ربحية وجمعية خيرية أنشئت في إيطاليا منذ القرن الخامس عشر تقدّم المساعدات والقروض للمحتاجين.

لم يعد ألبيرتو صديقاً لفرينكو الذي اختفى في إحدى الليالي مع كتبه المرعبة، ولا حتى مع أولاد فرانشيس. صار لدى ألبيرتو باييتّا وبيستيللي، زميلاه في المدرسة، وكانا مجتهدين فاعتادت والدتي القول إنّ ألبيرتو دوماً يختار أصدقاء أفضل منه. ”بيستيللي“ تشرح أمّي لأبي: ”إنه فتى مجتهد جداً،

ومن عائلة محترمة. والد بيستيللي ذاك كان يكتب في جريدة *La Stampa*، ووالدته هي كارولا بروسبيري" تقول بإطراء لتحسّن نظرة أبي إلى ألبيرتو. كارولا بروسبيري هي كاتبة أحبتها أمي ولم تعتبرها من ضمن عالم الأدباء المراوغ لأنها كتبت أيضاً كتباً للأطفال، وكتبها التي كتبتها للكبار قالت أمّي عنها دوماً إنها "مكتوبة بشكل جيد". أبي الذي لم يقرأ كتب كارولا بروسبيري كان يكتفي بهز كتفيه.

أمّا بايتّا، وفيما هو لا يزال فتى صغيراً يرتدي السراويل الرياضية القصيرة، اعتُقلَ بسبب توزيعه منشورات ضد الفاشية بين مقاعد الدراسة. واستُدعيَ ألبيرتو الذي كان من بين أكثر أصدقائه المقربين، إلى التحقيق. أرسل بايتّا إلى سجن الأحداث، فقالت أمّي لأبي متباهيةً:

"أرأيت! كما أخبرتك بيّنو، ألبيرتو دوماً يختار أصدقاءه جيداً، إنهم دائماً أشطر منه وأكثر جدية".

رفع والدي كتفيه. غير أنه شعر بالتباهي أيضاً لأنّ ألبيرتو استُجوِبَ في مركز الشرطة، وكفّ لبضعة أيام عن مناداته بالشقيّ.

"بارباس" كانت أمي تقول حين يرجع ألبيرتو من كرة القدم متسخاً، شعره الأشقر يغطيه الوحل، وملابسه ممزقة. "بارباس".

"يدخن! وينفض الرماد على الأرض" تشكو لصديقاتها. "يستلقي على السرير بحذائه ويوسّخ الأغطية. لا يكف عن طلب المال، لا يكفيه المال أبداً".

"في طفولته كان بغاية اللطف" تواصل الشكوى: "كان حلواً جداً ووديعاً. كان جرواً. ألبسته كل ثيابه من الدانتيل، وكان لديه ضفائر جميلة. انظروا كيف أصبح الآن".

***

نادراً ما حضر أصدقاء ألبيرتو وماريو إلى بيتنا، بخلاف جينو الذي لطالما اصطحب أصدقاءه إلى البيت في المساء وكان والدي يدعوهم للبقاء على العشاء.

أبي كان دائم الاستعداد لدعوة الناس إلى العشاء أو الغداء حتى لو لم يكن لدينا إلا القليل من الطعام. وقد خشي دوماً أن "نتناهم على الغداء" في منازل الآخرين. "يؤسفني أنكم تناهمتم على الغداء عند فرانشيس". وإن تمت دعوة واحد منّا لتناول الطعام عند أحدهم وقال في اليوم التالي إن ذلك الشخص كان مملاً أو بغيضاً يحتجّ والدي حالاً: "بغيض! لكنك تناهمت على غدائه!".

عشاؤنا عادةً ما تكوّن من حساء ليبيغ العزيز جداً على أمي، والذي كانت ناتالينا تصنعه شهياً جداً، مع العجّة. لذلك تعود أصدقاء جينو أن يتشاركوا معنا دوماً هذا العشاء المتطابق. ثمّ حول المائدة، يصغون إلى حكايات أمّي وأغانيها. من بين أولئك الأصدقاء كان واحد يدعى أدريانو أوليفيتيه. أذكر أنه في أوّل مرة دخل فيها بيتنا كان يرتدي زيَّ جندي، لأنه في ذلك الوقت كان يؤدي الخدمة العسكرية. جينو أيضاً آنذاك كان يؤدي خدمته العسكرية، وكان الاثنان يتشاركان المهجع ذاته. كان لأدريانو لحية مجعدة وشعثاء بلون بنيّ فاتح، وشعر أشقر فاتح طويل يتدلى على رقبته، وكان سميناً وشاحباً. الزي العسكري يزحط بشكل سيئ عن كتفيه المستديرتين السمينتين. أنا لم أرَ قطّ شخصاً بالزيّ الممّوه مع مسدس على خصره أكثر عتهاً أو أقل عسكريّةً منه. كانت له هيئة بمنتهى الكآبة، ربما لأنه لم يحبّ قطّ أن يكون جندياً. كان خجولاً وصامتاً، لكن عندما يتحدث فإنه يتحدث طويلاً، وبصوت خافت جداً، ويقول أشياء غائمة أو غير مفهومة وهو يحدق في الفراغ بعينيه السماويتين الصغيرتين اللتين كانتا باردتين وحالمتين. لقد كان أدريانو بذلك تجسيداً لما يطلق عليه أبي "الأبله"، ومع ذلك لم يقل أبي إنه أبله، أو أخرق، أو حتى نَوريّ، لم ينطق أيّاً من هذه الكلمات في حديثه. أتساءل لماذا؟ وأفكّر في أنّ حدس أبي النفسيّ كان أكبر مما لدينا من التباس، وقد امتلك بصيرة سمحَت له أن يستشف صورة الرجل الذي سيكون عليه ذلك الفتى الأبله لاحقاً. وربّمّا هو لم يصفه بالأبله فقط لأنه علم أنه يذهب إلى الجبال، ولأنّ جينو أبلغه أنه مناهض للفاشية، وأنه ابنٌ لاشتراكي هو أيضاً صديق لتُوراتي.

امتلك آل أوليفيتيه مصنعاً لصناعة الآلات الكاتبة في إيفريا. نحن لم يكن من ضمن معارفنا، حتى ذلك الوقت، أيّ من الصناعيين. الصناعي الوحيد الذي دار

الحديث عنه في منزلنا هو شقيق لوبيز، يدعى ماورو، وهو مقيم في الأرجنتين وفائق الثراء، وقد خطط والدي لإرسال جينو للعمل مع ماورو ذاك في شركته. آل أوليفيتيه كانوا أول صناعيين نراهم عن قرب. لقد تأثرت أنا بفكرة أنّ اللوحات الإعلانية التي أشاهدها على الطرقات، والتي تصوّر آلةً كاتبة على سكة قطار، مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بأدريانو ببذلته المموهة، والذي يتناول معنا في المساء حساءنا الذي لا طعم له.

بعد الخدمة الإلزامية واصل أدريانو المجيء إلينا مساءً. صار أكثر كآبة، أكثر خجلاً، وأكثر صمتاً، لأنّه وقع في حب شقيقتي باولا التي لم تكترث له. كان أدريانو يملك سيارة. هو الوحيد من معارفنا الذي امتلك سيارة. حتى تيرني الثريّ لم يمتلك واحدة آنذاك. حين يضطر أبي للخروج كان أدريانو يعرض عليه حالاً أن يصحبه بالسيارة فيثور أبي حالاً. والدي لم يطق السيارات، ولم يطق، كما قال دائماً، الدماثة.

لدى أدريانو الكثير من الإخوة والأخوات، وجميعهم منمّشون وشعورهم حمراء، وربّما تعاطف أبي معهم لهذا السبب، فهو أيضاً كان يملك نمشاً وشعره أحمر. لقد عرف عنهم الثراء الكبير، غير أنهم كانوا بسطاء بعاداتهم، يرتدون ملابس محتشمة، ويذهبون إلى الجبال مثلنا بزلاجات قديمة. كانوا يملكون العديد من السيارات وعلى استعداد دائم لاصطحابنا إلى أيّ مكان. عندما يعبرون المدينة بالسيارة يتوقفون إن رأوا عجوزاً يسير بخطوات متعبة ويدعونه للصعود. لم تكفّ أمّي عن القول كم هم طيبون ودمثون.

انتهى المطاف أن تعرفنا إلى والدهم؛ رجل صغير وسمين بلحية بيضاء طويلة. ومع لحيته امتلك ملامح جميلة، لطيفة ونبيلة، وعينين سماويتين برّاقتين. اعتاد أثناء التحدث أن يلعب بلحيته وأزرار صدريته. كان صوته خافتاً، حادّاً، لاذعاً، وطفولياً. وربّما بسبب لحيته البيضاء أطلق عليه أبي "العجوز أوليفيتيه" رغم أنهما كانا في العمر نفسه تقريباً. لقد تشاركا أيضاً بالاشتراكية، وبصداقة توراتي، وحملا لبضعهما بعضاً الاحترام والتقدير. رغم ذلك فإنهما حين يلتقيان يرغبان في التحدث في اللحظة نفسها، فيصرخان، واحد بصوت مرتفع والآخر بصوت خافت، واحد بصوت حادّ والآخر بصوت رنّان. في أحاديث العجوز

أوليفيتيه يختلط الكتاب المقدس بعلم النفس وخطابات الأنبياء، أشياء لم تدخل عالم والدي على الإطلاق، ولم يشكّل أي رأي خاص بشأنها في العمق. رأى أبي أن العجوز أوليفيتيه متعدد المواهب غير أنه يعاني ارتباكاً كبيراً في الأفكار.

آل أوليفيتيه عاشوا في إيفريا، في بيت يسمّى الدير، لأنه كان ديراً للرهبان في الماضي، وقد امتلكوا مزارع وكرومَ عنب وأبقاراً، وإسطبلاً. من تلك الأبقار كانوا يصنعون كل يوم الحلويات مع القشطة. رغبتنا بالقشطة توقفت منذ نهانا والدي عن التوقف لتناولها في الشاليهات في الجبال. لقد منعنا عنها وعن أشياء أخرى خوفاً من الحمّى المالطية. عند آل أوليفيتيه الذين يملكون الأبقار لم يكن ثمّة خوف من الحمّى المالطية، ورغم ذلك أحجمنا عن تناول القشطة. غير أن والدي لم يكف عن القول: "ليس عليكم دوماً أن تقبلوا دعوة آل أوليفيتيه، لا تكونوا نهمين". لقد بتنا مهجوسين بالنّهم حتى إن باولا وجينو دُعيا في إحدى المرات لتمضية النهار عندهم، ورغم إصرار آل أوليفيتيه على استبقائهما على العشاء عارضين توصيلهما بالسيارة، إلا أنهما استعجلا المغادرة بمعدتين خاويتين منتظرين قطار الليل. وفي مرة أخرى اضررتُ أنا لرحلة مع آل أوليفيتيه بالسيارة. توقفوا في حانة لتناول الغداء، وبينما طلبوا جميعاً المعكرونة وشرائح اللحم اكتفيت أنا بطلب بيضةٍ لي. وأخبرت شقيقتي فيما بعد أنني طلبتُ بيضةً واحدة فقط: "لأنني لم أرغب في أن ينفق المهندس أوليفيتيه الكثير من المال". بلغ هذا الأمر المهندس العجوز الذي كان مرحاً جداً وغالباً ما يضحك، فامتلأت ضحكاته بالبهجة لكونه فائق الثراء، وهو أمر معروف، وقد اكتشف أن ثمّة شخصاً لا يزال يجهل ذلك.

***

حين انتهى جينو من دراسة الفنون التطبيقية فُتح أمامه احتمالان: إمّا الذهاب للعمل مع ماورو صاحب الشركة في الأرجنتين، والذي كنّا نسمّيه عائلياً "العم ماورو" مقلدين أبناء لوبيز، وقد ثابر والدي على مراسلته لعدة أشهر بشأن

جينو، وإمّا الذهاب للعمل في إيفريا في مصنع المهندس أوليفيتيه، وهو ما اختاره جينو أخيراً.

هكذا ترك جينو منزلنا وذهب للعيش في إيفريا. وبعد أشهر قليلة أخبر أبي أنه تعرّف إلى فتاة ينوي خطبتها. استولى على أبي غضب مرعب. في كلّ مرةٍ يعلن فيها أحدنا أنه على وشك الزواج كان يستولي الغضب المرعب على أبي، أيّاً كان الشخص المختار. ثمّة ذريعة دوماً. إما يقول إنّ الشخص الذي اخترناه ذو صحةٍ عليلة، أو لا يملك المال، أو أنه يملك القليل منه. في كل مرّة يقف أبي عائقاً في وجه زواجنا دون أن ينجح، لأننا جميعاً تزوجنا في نهاية الأمر.

أرسلوا جينو إلى ألمانيا لدراسة اللغة الألمانية ونسيان الأمر. أوصته أمي بالذهاب إلى فريبورج والعثور على غراسّي. غراسّي هي صديقة الطفولة لأمي وهي صاحبة مقولة "كلها مصنوعة من الصوف ليديا"، و"البنفسجات ليديا!". غراسّي تعرّفت في فلورنسا على كتبيّ من فريبورج وتزوجته. هو كان قد قرأ هاينرش هاينه، وعلّمها حب البنفسج كما علّمها حب الأقمشة المصنوعة "كلها من الصوف". أخذها إلى ألمانيا بعد حرب الـ15–18، حيث المصنوعات من الصوف النقيّ بات لا يمكن العثور عليها في كل مكان في ألمانيا بعد الحرب.

الكتبيّ عند عودته إلى فريبورج بعد الحرب كان يصرخ: "ما عدت أعرف ألمانيتي أبداً". العبارة التي صارت شهيرة في بيتنا، ترددها أمي صارخة في كل مرة تعجز فيها عن التعرف إلى شيء أو شخص ما.

في ذلك الصيف أجرى أبي مراسلات طويلة مع جينو في ألمانيا، ومع آل تيرني وآل لوبيز، ومع المهندس أوليفيتيه، والموضوع دوماً هو ذلك الزفاف. إلى تيرني ولوبيز والمهندس أوليفيتيه كتب والدي أن عليهم ثني جينو عن الزواج، إنه في الخامسة والعشرين وما يزال دون عمل ثابت.

"من يدري إن كان قد رأى غراسّي!" كانت تكرر أمي في ذلك الصيف وهي تفكر بجينو، فيحتدّ أبي: "غراسّي! يشغلني كثيراً إن رأى غراسّي! بالنسبة لك يبدو أنه لا يوجد في ألمانيا إلا غراسّي! المؤكد هو أنني لا أريد لجينو أن يتزوج".

رغم ذلك تزوّج جينو عند عودته من ألمانيا، كما أوضح أنه سيفعل، وذهب والداي إلى زفافه. وبقي أبي يستيقظ ليلاً ويقول: "لو أنني أرسلته إلى

الأرجنتين عند ماورو بدلاً من إيفريا! من يدري، ربّما ما كان تزوج".

غيّرنا البيت. وأمّي التي اشتكت دوماً من حي باسترينغو باتت الآن تشكو من البيت الجديد. البيت الجديد كان في حي باللامالیو. "يا له من اسم سيئ" قالت أمي دوماً: "يا له من شارع قميء. لا أستطيع احتمال هذه الشوارع، كامبانيا، سالوتزو. في باسترينغو على الأقل كان لدينا حديقة".

البيت الجديد كان في الطابق الأخير ويطل على ساحة توجد فيها كنيسة ضخمة بشعة، ومصنع دهان، ومنشأة للحمّامات العمومية. وبالنسبة لأمي لم يكن ثمّة ما هو كريه أكثر من رؤية الرجال عبر النافذة يدخلون الحمّامات العمومية بمناشف تحت أذرعهم. والدي قال إنه اشترى ذلك المنزل لأنه رخيص بالطبع، وإن لم يكن جميلاً إلا أنه يتمتع بعدد من الميزات؛ قريب جداً من المحطّة، واسع، ويحتوي الكثير من الغرف.

"ماذا يهم إن كان قريباً من المحطة ما دمنا لا نغادر أبداً؟" تقول أمّي.

لا بدّ أنّ تحسناً ما طرأ على وضعنا الاقتصادي. باتت أحاديثنا عن شح المال قليلة. العقارات كانت في انخفاض دائماً، وبحسب أبي، اعتقدتُ أنها لا بدّ قد صارت في الحضيض في ذلك الوقت، إلا أنّ أمي وشقيقتي كانتا رغم ذلك تصنعان المزيد من الملابس. صار لدينا الآن هاتف أيضاً، مثل آل لوبيز. كلمات مثل "غلاء معيشة"، و"غلاء خبز"، ما عادت تذكر. ماريو بات له وظيفة في جنوه ويجيء إلى البيت أيام السبت فقط.

ألبيرتو، بعد الكثير من التردد والمناقشات، وُضعَ في مدرسة داخلية. أمِلَ والدي أن يشعر بالسوء ويتوب ويستقيم أمام هذا العقاب الشديد. وقالت له أمّي: "سترى كم ستكون بخير. سترى كم ستستمتع. كم كان الأمر جميلاً في مدرستي الداخلية، كم استمتعتُ فيها".

ذهب ألبيرتو إلى المدرسة الداخلية بغاية الابتهاج كعادته دوماً. وحين يجيء إلى البيت في العطلة كان يروي أنهم عندما يجتمعون إلى مائدة الطعام لتناول العجة في المدرسة الداخلية يُسمع فجأة صوت جرس ويدخل بعده المدير ليقول: "أحذّركم أن تقطعوا العجّة بالسكين" يلي ذلك رنين الجرس من جديد ويختفي المدير.

ما عاد أبي يذهب للتزلّج. قال إنه صار عجوزاً جداً. وأمّي باتت تقول دوماً: ”الجبل الشرير!“ هي التي لم تعرف التزلج وكانت تبقى في المنزل، باتت الآن آسفةً لأنّ أبي لم يعد يستطيع التزلج.

توفيت آنّا كوليشوف. لم ترها أمي لسنوات طويلة إلا أنها كانت سعيدة لمعرفتها بأنها موجودة. ذهبت إلى ميلانو لحضور جنازتها مع صديقتها باولا كارّارا التي كانت، منذ صباها، حاضرةً دوماً في منزل كوليشوف. حملت من هناك كتاباً بشريط أسود يحتوي كتابات في ذكرى كوليشوف مع صور لها.

هكذا رأت أمي ميلانو مجدداً بعد سنوات كثيرة، لكن لم يعد لديها أحد فيها. جميع معارفها ماتوا، وحين وجدت أنّ المدينة تغيرت وصارت قبيحة قالت: ”ما عدت أعرف ألمانيتي أبداً“.

توجّب على آل تيرني مغادرة تورينو والذهاب للعيش في فلورنسا. غادرت ماري مع الأولاد أولاً، وبقي تيرني لبضعة أشهر. ”كم أنا آسفة لذهابكم للعيش بعيداً عن تورينو“ قالت أمّي لتيرني: ”كم أنا آسفة لذهاب ماري ولأنني لن أستطيع رؤية الأطفال بعد الآن. هل تذكر الحديقة في حي باسترينغو حين كانت تلعب الكرة مع كوكّو ويجيء أصدقاء جينو ويلعبون بالخطوات؟ كم كان ذلك جميلاً“. الخطوات هي لعبة تقوم على أن يقف أحدهم أمام شجرة بمواجهة الجذع ويستدير فجأة فيتخذ الآخرون خطوات في غفلة منه.

”لا أحب ذلك المنزل“ تقول أمي: ”لا أحب حي باسترينغو. أحببت وجود الحديقة“. لكن الكآبة تمضي بسرعة. في الصباح تنهض وهي تغني، ثمّ تذهب لطلب البقالة، وبعد ذلك تستقل القطار رقم سبعة. تذهب مع القطار حتى المحطة الأخيرة وتعود معه دون أن تنزل.

”كم هو جميل الذهاب بالقطار“ تقول: ”إنه أجمل من الذهاب بالسيارة“.

في الصباح تقول لي: ”تعالي أنت أيضاً، لنذهب إلى شارع بوتزو“.

شارع بوتزو هو المحطة الأخيرة للقطار رقم سبعة، وفيه توجد ساحة صغيرة فيها كشك لبيع البوظة، بيوت الضواحي الأخيرة، وعلى مسافة منها ثمّة حقول من القمح والخشخاش.

عند الظهيرة تقرأ الجريدة مستلقيةً على الأريكة. تقول لي: "إن كنتِ عاقلة سآخذك إلى السينما. لنرَ إن كان هناك فيلم 'ملائم' لك". الذهاب إلى السينما هو رغبتها أيضاً. في الحقيقة تعودت الذهاب إليها بمفردها أو مع صديقاتها حتى لو توجّبت عليّ الدراسة.

تعود إلى المنزل راكضة لأنّ أبي يجيء من المختبر في السابعة والنصف ويجب أن يجدها في البيت. إن لم يجدها فإنه ينتظرها على الشرفة، وتصل هي لاهثة وقبعتها بيدها.

"أين كنتِ بحقّ الجحيم؟" يصرخ والدي: "لقد أقلقتني! أراهن أنك اليوم أيضاً ذهبتِ إلى السينما، تمضين حياتك في السينما!".

"هل كتبتِ لماري؟" يسألها. الآن وبعدما ذهبت ماري إلى فلورنسا بدأت الرسائل تصل منها بين الحين والآخر وتنسى والدتي أن تجيب عنها. لقد أحبتها كثيراً غير أنها لم تحب كتابة الرسائل قطّ. لم تكتبها حتى لأولادها.

"هل كتبتِ لجينو؟" يصيح أبي: "اكتبي لجينو. الويل لك إن لم تكتبي لجينو".

صحتي لم تكن جيدة. الشتاء كلّه أمضيه مريضة. عانيت من التهاب الأذن، وبعد ذلك أصبتُ بالتهاب الخُشّاء. في الأيام الأولى من مرضي كان أبي يعتني بي، ففي مكتبه توجد خزانة صغيرة يسميها "الصيدلية" يحتفظ فيها ببعض الأدوية والأدوات التي يستخدمها للعناية بأولاده أو أصدقائه أو أولاد أصدقائه. محتوياتها هي على النحو التالي: صبغة اليود لعلاج الرضوض، الميثيلين الأزرق لالتهاب الحلق، المشدّ لعلاج داء ربنو. المشد كان عبارة عن رباط مطاطي يربط بإحكام على الإصبع المصابة إلى أن تتحول تلك الإصبع إلى اللون التركوازي. ومع ذلك، عندما يحتاجه لم يكن يعثر عليه في "الصيدلية" فيصرخ في أرجاء المنزل: "أين المشد؟ أين وضعتم المشدّ؟ يا لكم من فوضويين. لم أرَ أشخاصاً بمثل فوضاكم قطّ". وعموماً، يكون المشدّ في درج مكتبه.

إن طلب أحدهم نصيحته بشأن صحته كان يغضب ويقول باستياء:

"أنا لست طبيباً!".

لقد رغب في أن يعالج الناس لكن شريطة ألا يطلبوا ذلك.

في أحد الأيام قال وهو إلى المائدة: "ذلك الوغد تيرني مصاب بالإنفلونزا. إنه طريح الفراش. أففف. عليّ الذهاب لرؤيته". وفي المساء قال: "كم يبالغ تيرني. ما به من شيء. مستلقٍ في السرير بكنزة صوفية. أنا لم أرتدِ قطّ كنزةً من الصوف!".

"أنا قلق بشأن تيرني" قال بعد بضعة أيام: "الحمّى لا تفارقه. أخشى أن يكون مصاباً بانصباب جنبيّ. أودّ أن يراه ستروبيني".

"لديه انصباب جنبيّ" صاح عند عودته مساءً: "ليديا! هل تعلمين أنّ تيرني لديه انصباب جنبيّ!".

أحضر ستروبيني وجميع الأطباء الذين يعرفهم إلى سرير تيرني.

"كفّ عن التدخين" صاح بوجه تيرني الذي شفي وجلس في الشمس على شرفة منزله: "احذر! عليك ألا تدخن. أنت تدخن كثيراً. طوال الوقت تدخن. لقد دمّرتَ صحتك بهذه الشراهة للتدخين".

كان أبي يدخن كالأتراك لكنه لم يرغب في أن يدخن الآخرون.

مع أصدقائه وأولاده أثناء مرضهم يصير عطوفاً ولطيفاً جداً، وحالما يتماثلون للشفاء يبدأ بشيّهم مجدداً.

مرضي كان خطِراً، كفّ أبي عن علاجي في الحال وأحضر أطباء يثق بهم. وأخيراً نقلوني إلى المستشفى.

حتى لا يثير المستشفى حساسيتي أفهمتني أمّي أنّ المستشفى هو بيت الأطبّاء، وأنّ المرضى الآخرين في الغرف هم جميعاً أولاد وأبناء إخوة وأحفاد الأطباء. لقد صدقتها من باب الطاعة رغم أنني في ذات الوقت كنت أدرك أنه مستشفى. تلك المرة، كما لاحقاً أيضاً، اختلطت الحقيقة مع الوهم في داخلي.

"الآن لديك ساقان أنحف من ساقي لوتشيو" قالت أمي: "الآن ستسعد فرانشيس".

في الحقيقة، اعتادت فرانشيس مقارنة ساقيّ بساقَي لوتشيو. وقد قلقت لأنّ ساقي لوتشيو كانتا هزيلتين وشاحبتين مع الجوارب البيضاء المحكمة بشريط مطاطي من المخمل الأسود.

***

في إحدى الأمسيات سمعتُ أمي تتحدث إلى أحدهم في الردهة، وسمعتها تفتح خزانة الملاءات. عبر زجاج الباب عبرت الظلال.

في الليل سمعتُ سعالاً في الغرفة المجاورة لغرفتي. هي غرفة ماريو حين يجيء يوم السبت. لكن لا يمكن أن يكون ماريو، فاليوم ليس السبت والسعال بدا سعال رجل عجوز وسمين.

حين جاءت أمي إليّ في الصباح أخبرتني أن السيد باولو فيرّاري نام هناك، وأنه كان متعباً، عجوزاً، مريضاً، ويعاني من السعال، وعلينا ألا نطرح عليه الكثير من الأسئلة.

السيد باولو فيرّاري كان في غرفة الطعام يشرب الشاي. حين رأيته تعرّفت فيه إلى توراتي الذي جاء مرّة واحدة إلى حي باسترينغو. لكن بما أنهم أخبروني أن اسمه باولو فيرّاري فقد صدقت بحكم الطاعة أنه يمكن أن يكون توراتي وفيرّاري معاً. من جديد اختلطت الحقيقة بالوهم في داخلي.

فيرّاري كان عجوزاً ضخماً كالدب بلحيةٍ شائبة مشذبة بشكل بدائي، قبة قميصه واسعة جداً، وربطة عنقه مربوطة كالحبل، لديه كفّان صغيرتان بيضاوان، ويتصفّح مجموعةً شعرية لجوزيه كاردوتشي بغلاف أحمر. بعد ذلك قام بفعل غريب. أخذ كتاب ذكرى كوليشوف وكتب إهداءً طويلاً لأمي وقّعه هكذا: "آنّا وفيليبّو". الأمر الذي زاد أفكاري تشوشاً. لم أفهم كيف يمكن أن يكون هو آنّا، وكيف يمكن أن يكون أيضاً فيليبّو، إن كان بدلاً من ذلك، كما قالوا لي، هو باولو فيرّاري.

بدا أن أبي وأمي سعيدان جدّاً بوجوده هناك. ما عاد أبي يغضب، والجميع يتحدثون بصوت خفيض، وما إن يقرع الجرس حتى يهرع باولو فيرّاري عبر الممر لاجئاً إلى الغرفة الداخلية. وعادة ما يكون القادم هو لوتشيو أو بائع الحليب، لأنّ الغرباء ما كانوا يأتون إلينا في تلك الأيام.

عبر الممر يحاول المشي مسرعاً على رؤوس أصابعه. ظلّ الدب العظيم على طول جدران الممر. باولا قالت لي: "اسمه ليس فيرّاري. إنه توراتي.

عليه الهروب من إيطاليا. إنه مختبئ. لا تخبري أحداً بأمره، ولا حتى لوتشيو".

أقسمتُ ألا أخبر أحداً، ولا حتى لوتشيو. لكن كلما جاء لوتشيو ليلعب كانت تعتريني رغبة كبيرة في أن أخبره.

لوتشيو على كل حال لم يكن فضولياً على الإطلاق. ولطالما قال لي إنني "فضولية" حين كنت أستجوبه عن أشياء حول منزله. آل لوبيز جميعهم كانوا كتومين جداً، ولا يحبون إخبار شيء عن حياتهم العائلية، لذا لم نعرف قطّ إن كانوا أثرياء أو فقراء، ولم نعرف حتى عمر فرانشيس، أو ماذا يتناولون على الغداء.

بلا مبالاة قال لي لوتشيو: "في بيتكِ رجل بلحية يهرب من الصالون حالما أصل".

"أجل" قلت له: "باولو فيرّاري".

تمنيت أن يسألني المزيد من الأسئلة غير أنّ لوتشيو لم يسأل شيئاً آخر. راح يضرب الحائط بالمطرقة لتعليق اللوحة التي رسمها وأهداها لي. كانت لوحةً صغيرة تصوّر قطاراً. لقد شغف لوتشيو بالقطارات منذ طفولته. كان دوماً يدور في الغرفة يصفّر ويقلد صوت القطار. وقد امتلك في البيت قطاراً كهربائياً كبيراً أرسله له عمّه ماورو من الأرجنتين.

قلت له: "لا تضرب هكذا بالمطرقة. إنه عجوز، هو مريض، ومختبئ. عليك ألا تزعجه".

"من؟".

"باولو فيرّاري".

"انظري العربة البخارية" قال لوتشيو: "أترين أنني رسمت عربةً بخارية أيضاً؟".

لطالما تحدث لوتشيو عن العربة البخارية. عندئذ كنت أشعر بالملل من رفقته. لقد بدا لي أصغر مني بكثير رغم أننا متماثلان عمراً.

لم أرغب في أن يذهب. حين تجيء ماريا بوونونسييني لتأخذه كنت أنتحب وأتوسل أن تتركه معنا لبعض الوقت أيضاً.

أمي كانت ترغمنا أنا ولوتشيو على النزول إلى الساحة لانتظار ماريا بوونونسييني قائلةً: "هكذا تشمّان الهواء قليلاً". لكنني عرفتُ أنها لا تريد لماريا بوونونسييني أن تلتقي باولو فيرّاري في الممر.

في منتصف الساحة كانت ثمّة مساحة عشبية مع بعض المقاعد. تجلس ناتالينا على مقعد تؤرجح ساقيها القصيرتين نسبةً إلى طول قدميها. ويأخذ لوتشيو بالصفير وهو يدور حول الساحة مقلداً صوت القطار.

عندما تصل ماريا بوونونسييني مع الثعلب حول رقبتها تُظهر ناتالينا منتهى اللطف مع الابتسامات. لقد كنّت لماريا بوونونسييني أعظم التبجيل. ماريا بوونونسييني بالكاد تنظر إليها وتبدأ الحديث مع لوتشيو بلهجتها التوسكانية الفخمة والعزيزة، تلمس كنزته إذ تجدها غارقة بالعرق.

بقي باولو فيرّاري في منزلنا لثمانية أو عشرة أيام كما أظن. كانت أياماً هادئة بشكل استثنائي. سمعت دوماً الحديث عن زورق. تناولنا العشاء في إحدى الأمسيات مبكراً، وفهمتُ أن باولو فيرّاري سيغادر. رغم أنه أمضى تلك الأيام مرحاً ومطمئناً إلا أنه في تلك الليلة بدا قلقاً يلعب بلحيته طوال الوقت.

وصل بعد ذلك رجلان أو ثلاثة يرتدون المعاطف. عرفت من بينهم أدريانو فقط. أدريانو كان قد بدأ يفقد شعره، وهو الآن أصلع تقريباً وبرأس مربع محاط بخصلات شقراء مجعدة. في ذلك المساء بدا وجهه وشعره الخفيف كأنما الريح قد لفحتهما. كانت عيناه مذعورتين، حازمتين ومترقبتين. لقد رأيت تلك النظرة مرّتين أو ثلاثاً في حياتي. تكون لديه تلك النظرة حين يساعد أحداً على الهرب، وعندما يكون ثمّة خطر، أو عندما يتوجب عليه إنقاذ شخص ما.

باولو فيرّاري، في الصالة، فيما يساعدونه على ارتداء معطفه، قال لي: "لا تخبري أحداً أنني كنتُ هنا".

خرج مع أدريانو والآخرين بمعاطفهم. لم أره بعد ذلك قطّ لأنه توفي في باريس بعد بضع سنوات.

في اليوم التالي سألت ناتالينا أمّي: "هل وصل فعلاً إلى كورسيكا بذلك القارب؟".

ثار والدي غضباً عند سماعه تلك الكلمات: "وضعتِ ثقتك بتلك المعتوهة ناتالينا! إنها معتوهة، سترسلنا جميعاً إلى المعتقل".

"لا بيّنو. ناتالينا فهمت جيداً أنه يتوجب عليها أن تلزم الصمت".

وصلت بعد ذلك بطاقة بريدية من كورسيكا تحمل تحيات باولو فيرّاري.

في الأشهر التالية سمعتُ أنهم ألقوا القبض على روسيللي وبارّي بعد أن ساعدا توراتي على الفرار. أدريانو بقي حرّاً لكنه في خطر. قالوا إنه ربّما يجيء للاختباء في بيتنا.

بقي أدريانو مختبئاً عندنا لعدّة أشهر. نام في غرفة ماريو حيث نام أيضاً باولو فيرّاري. باولو فيرّاري بات الآن آمناً في باريس، وقد سئموا في بيتنا من تسميته فيرّاري وصاروا يسمونه باسمه الحقيقي. تقول أمّي: "كم كان لطيفاً. كم أحببت وجوده هنا".

لم يلقَ القبض على أدريانو. غادر إلى الخارج. هو وشقيقتي صارا يتبادلان الرسائل إثر خطوبتهما. جاء العجوز أوليفيتيه إلى والديّ وطلب يد أختي لابنه. جاء من إيفريا على دراجة نارية مرتدياً الخوذة، وجرائد كثيرة على صدره؛ لأنه اعتاد تغطية صدره بالجرائد حين يقود الدراجة اتقاءً للهواء. طلب يد أختي في لحظة، ثم بقي منجعياً على الأريكة في الصالون يلعب بلحيته ويروي لنا كيف أنشأ مصنعه بالقليل من المال، كيف ربّى جميع أبنائه، أنه يقرأ الكتاب المقدس كلّ مساء قبل النوم.

ثار أبي بعد ذلك على أمّي لأنه لم يرغب في هذا الزواج. قال إن أدريانو فائق الثراء وأنه مهووس بالتحليل النفسي. جميع أفراد عائلة أوليفيتيه، على أيّ حال، كانوا مهووسين بالتحليل النفسي. لقد أحبّ أبي آل أوليفيتيه لكنه وجد أنهم مبذّرون بعض الشيء. آل أوليفيتيه كانوا يقولون عنا إننا ماديون جداً، وبخاصة أبي وجينو.

فهمنا بعد بعض الوقت أنّنا لن نعتقل، ولا حتى أدريانو الذي عاد من الخارج وتزوّج أختي باولا. حالما تزوّجت قصّت شقيقتي شعرها، ولم يقل أبي شيئاً، فهو الآن ما عاد يقدر أن يقول لها شيئاً، ولا أن ينهاها أو يفرض أوامره عليها.

رغم ذلك عاود توبيخها بعد وقت قصير، وهذه المرة كان يوبخ أدريانو أيضاً. وجد أنهما يسرفان بإنفاق المال، ويستخدمان السيارة كثيراً في الذهاب بين إيفريا وتورينو.

عندما رزقا بطفلهما الأول انتقد أسلوب عنايتهما به. قال إن عليهما تعريضه للشمس كيلا يصاب بالكساح: "سيجعلانه يصاب بالكساح" يصرخ لأمي: "لا يعرّضونه للشمس. قولي لهم أن يعرّضوه للشمس".

ثمّ خشي إن أصابه المرض أن يأخذوه إلى المشعوذين. أدريانو لم يكن مؤمناً بالأطباء الحقيقيين. وحين أصيب بعرق النسا في إحدى المرات قصد بلغارياً ليعالجه بواسطة كاسات الهواء. بعد ذلك سأل والدي عن رأيه بكاسات الهواء. أبي الذي لم يعرف عن ذلك البلغاري شيئاً أثارت غضبه كاسات الهواء: "لا بدّ أنه دجّال، مشعوذ!". وحين أصيب الطفل بشيء من الحمّى اعتراه القلق: "لن يأخذوه إلى ذاك المشعوذ؟".

لقد أحبّ ذلك الطفل روبيرتو ووجده جميلاً. كان يضحك وهو ينظر إليه لأنه رأى أنه نسخة من العجوز أوليفيتيه. "يبدو للناظر إليه كأنه العجوز أوليفيتيه" تقول أمّي أيضاً: "إنه نسخة طبق الأصل عن المهندس العجوز". وحالما تجيء باولا من إيفريا يقول لها أبي: "أخبريني عن روبيرتو".

"إنّ روبيرتو جميل جداً" يقول دوماً. بعد ذلك أنجبت باولا طفلةً أخرى إلا أنها لم تعجبه. وحين أحضروها ليراها ألقى عليها نظرةً خاطفة وقال:

"روبيرتو أجمل منها".

تجهمت باولا عندئذ وابتعدت. وبعد أن ذهبت قال لأمي: "هل رأيت كم هي حمارة باولا؟".

بعد زواج باولا بقيت أمّي تبكي لبعض الوقت لأنها لم تعد في البيت. كانت أمّي وباولا مرتبطتين ببعضهما بشدّة، ودوماً تتحدثان بالكثير من الأمور. أنا لم تخبرني أمّي بشيء لأنني بالنسبة إليها كنتُ صغيرة، ثمّ لأنها تقول إنني "لا أرخي لها الرسن إلا قليلاً".

عندئذ صرت أذهب إلى المدرسة الابتدائية ولم تعد هي تعلمني الحساب. واصلتُ عدم فهمي للحساب لكنها ما عادت تستطيع مساعدتي لأنها نسيت

حساب المدرسة الابتدائية. ”لن أرخي الرسن! إنها لا تتكلم“ تقول أمّي عني. الشيء الوحيد الذي كانت تفعله معي هو أن تصحبني إلى السينما. رغم ذلك لم أقبل دوماً عروضها بالذهاب إلى السينما.

”لا أعرف ما الذي ستفعله سيدتي، أنا الآن أصغي لما تريده سيدتي“ تقول أمّي وهي تتحدث مع صديقاتها على الهاتف. دوماً كان تسميني ”سيدتي“ لأنني في الحقيقة كنتُ من يقرر كيف ستمضي فترة الظهيرة؛ بحسب إن وافقت على الذهاب معها إلى السينما، أو لا.

”لقد سئمت!“ تقول أمّي: ”ليس لدي ما أفعله. لم يعد هناك المزيد لأقوم به في هذا البيت. لقد سئمت“.

”أنت تسأمين لأنك لا تمتلكين حياةً داخلية“ يقول أبي.

”حبيبي ماريولينو“ تقول أمّي: ”الحمد لله، اليوم السبت وسيجيء حبيبي ماريولينو“.

بالفعل كان ماريو يجيء كلّ سبت تقريباً. على السرير، في الغرفة التي نام فيها فيرّاري، يفتح حقيبته ويخرج منها، بمنتهى الحذر، بيجامته الحرير، قطع الصابون، نعله المغربي المنزلي. دوماً لديه أشياء جميلة وأنيقة، ملابس جميلة من القماش الإنكليزي، ”كلها مصنوعة من الصوف ليديا“ تقول أمّي وهي تلمس قماش تلك الملابس. ثمّ تقول: ”إيه! أنت أيضاً لديك أشياؤك“ مقلدةً خالتي دروسيللا التي كانت تقول هذا.

بقي ماريو يردّد ”دودة تنخر تفاحْ“ أثناء جلوسه للحظات معي ومع أمّي في الصالون وهو يداعب فكيه. لكن بعد ذلك فوراً يذهب إلى الهاتف، يعقد مواعيد غامضة بصوت خفيض. ”وداعاً ماما“ يقول من غرفة الانتظار، ولا نعود نراه حتى موعد العشاء.

نادراً ما أحضر أصدقاءه إلى المنزل، وعندما يجيئون لا يدخلهم إلى الصالون بل يغلق غرفته على نفسه معهم. أصدقاؤه أولئك كانوا رجالاً بهيئات مشاكسة ومنهمكة. ماريو أيضاً كانت هيئته دوماً مشاكسة ومنهمكة. بدا أنه يفكر فقط في امتهان شيء في عالم الأعمال، وأنه لا يكترث لشيء آخر. ما عاد صديقاً لتيرني، وما عاد يقرأ لا بروست ولا فرلان. إنه يقرأ فقط كتباً في الاقتصاد

والتمويل. إجازاته يمضيها في الخارج، في رحلات بحرية وأسفار. وما عاد يجيء معنا في العطلات. إنه يذهب بقرار شخصي، وأحياناً لم نعرف حتى أين يتواجد بالضبط. "أين يكون ماريو؟" يتساءل أبي حين يمضي بعض الوقت دون أن يكتب ماريو: "لا نعرف عنه شيئاً، لا نعرف أية حياة شيطانية يعيشها! يا له من حمار".

رغم ذلك علم من باولا أنّ ماريو غالباً ما يذهب إلى سويسرا. ليس للتزلج بالطبع، فهو لم يضع قدميه في زلاجة منذ اليوم الذي غادر فيه البيت. كانت له في سويسرا عشيقة في غاية النحول، لا يزيد وزنها على خمسة وثلاثين كيلوغراماً؛ فهو لطالما أعجب فقط بالنساء النحيفات جداً والأنيقات. قالت باولا إن تلك المرأة تستحم مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. وبهذا الصدد فإن ماريو أيضاً لم يفعل شيئاً غير الاستحمام، الحلاقة، التعطّر بماء الخزامى، وقد ذُعر دوماً أن يكون متسخاً أو تكون رائحته قذرة. كلّ شيء يثير قرفه؛ مثل جدتي إلى حدّ ما. وحين تحضر ناتالينا القهوة له يأخذ الفنجان ويبدأ بتفحص كافة جوانبه للتأكد أنّه غُسل جيداً.

أمّي كانت تقول عنه بين حين وآخر:

"أودّ أن يتزوج فتاةً شاطرة".

فيثور أبي حالاً:

"لماذا الزواج، أليس لدينا شيء آخر! حتماً لا أود أن يتزوج ماريو".

***

توفيت جدتي، وذهبنا جميعاً إلى جنازتها في فلورنسا. دفنت هناك، في مقبرة العائلة، مع الجد بارينتي و"المرحومة ريجينا" وغيرها الكثيرات ممن حملن اسم مارغريت وريجينا.

الآن بات عندما يذكرها أبي يقول عنها "المرحومة أمّي". يقولها بلكنة خاصّة من العاطفة والشفقة. حين كانت على قيد الحياة عاملها دوماً بشيء من الحمق، كما تعامل معنا جميعاً. الآن، بعد موتها، بدت نقائصها بريئة وطفولية تستحق الرحمة والحِداد.

أورثتنا جدتي أثاثها. قال أبي إنه أثاث "ذو قيمة عالية" لكنه لم يعجب أمّي، إلا أنها بقيت مترددة بشأنه بعض الشيء لأنّ بييرا، زوجة جينو، قالت أيضاً إنه جميل جداً، هي التي تقول عنها أمّي إنها تعرف الكثير عن الأثاث. لقد وجدت أنّه ثقيل وبالغ الضخامة؛ كان هناك بعض الأرائك التي أحضرها الجد بارينتي من الهند وكلها مصنوعة من الخشب الأسود ذي الثقوب مع رؤوس أفيال على الأذرع، وعدد من الكراسي السوداء والذهبية، أعتقد أنها صينية، وعدد من التحف والأواني الخزفية، والأواني الفضية، وتلك التي تحمل شعاراً، والعائدة بالأصل، وقبل وقت طويل، إلى أبناء عمومتنا في دورميتزر الذين تمّت ترقيتهم إلى بارونات بعدما أقرضوا المال لفرانشيسكو جوزيبّي.

لقد خشيت أمي من ألبيرتو، حين يجيء في إجازة من المدرسة الداخلية، أن يأخذ شيئاً ليرهنه لدى Monte di Pietà، لذا وضعت كل قطع الخزف الصغيرة في خزانة زجاجية تقفل بمفتاح. ولم تكفّ عن القول إن أثاث جدتي ليس ملائماً لمنزلنا، وإنه بالغ الضخامة بالنسبة إليه ويترك انطباعاً سيئاً.

"إنه أثاث نشاز على حي بالاماليو" كررت أمي كلّ يوم.

قرر أبي عندئذ أنه علينا تغيير المنزل. ذهبنا للعيش في شارع الملك أومبيرتو. بيت قديم منخفض يطلّ على أزقة الشارع. صارت لدينا شقّة في طابق أرضيّ، وغدت أمّي بغاية السعادة للإقامة في طابق أرضي لأنها بذلك تشعر أنها أقرب إلى الطريق ويمكنها الخروج والدخول دون صعود السلالم. "يمكن الخروج دون قبعة أيضاً" قالت. حلمها كان الخروج "دون قبعة". الأمر الذي منعها عنه والدي. "لكن في باليرمو" قالت أمي: "خرجتُ دوماً دون قبعة". "في باليرمو! في باليرمو! مضى على باليرمو خمس عشرة سنة. انظري إلى فرانشيس، فرانشيس لا تخرج أبداً دون قبّعة!".

ترك ألبيرتو المدرسة الداخلية وجاء إلى تورينو للتقدّم إلى الشهادة الثانوية. أجرى الامتحانات على أكمل وجه وحصّل درجات ممتازة، ما أثار ذهولنا في البيت. "أرأيت أنني محقّة" قالت أمّي: "أرأيت أنه يدرس عندما يرغب".

"والآن ماذا نستطيع أن نجعله يفعل؟" قال أبي.

”ما الذي تستطيعون فعله بشأن ألبيرتو؟“ قالت أمّي مقلّدة صوت خالتي دورسيللا التي اعتادت دوماً أن تقول لها ذلك. خالتي دورسيللا كان لديها أيضاً ابن لا يدرس فاعتادت أمّي القول لها: ”ما الذي تستطيعون فعله بشأن أندريا؟“. دورسيللا هي صاحبة مقولة: ”أنت أيضاً لديك أشياؤك“. في بعض الصيفيّات جاءت معنا في العطلة واستأجرت منزلاً بالقرب من منزلنا. وكانت تعرض ملابس ابنها على أمّي قائلةً: ”انظري، أنديريا أيضاً لديه أشياؤه“. حال وصولها إلى الجبل كانت دورسيللا تذهب إلى الإسطبل لشراء الحليب وتقول: ”سأدفع أكثر قليلاً ولكن أودّ أن تحضر لي الحليب قبل الآخرين ببعض الوقت“ وفي نهاية المطاف يحضرون لها الحليب في التوقيت ذاته الذي فيه يحضرونه إلينا، ويجعلونها تدفع أكثر.

”ما الذي تستطيعون فعله بشأن ألبيرتو؟“ كرّرت أمّي طوال الصيف. في ذلك العام لم تحضر دورسيللا معنا لأنها تخلت منذ بعض الوقت عن عادة المجيء معنا إلى الجبل، غير أن صوتها تردّد صداه في أذني أمي.

عند سؤاله، قال ألبيرتو إنه سيدرس الطب. قالها باستسلام وعدم اكتراث وهو يضيّق كتفيه.

ألبيرتو كان فتى طويلاً، نحيلاً، أشقر، مع أنف طويل، وناجحاً مع الفتيات. حين فتّشت والدتي أدراجه بحثاً عن إيصالات Monte di Pietà عثرت على حزمة من الرسائل وصور الفتيات.

لم يعد يرى بيستيلّي الذي تزوج، ولا بابيتّا الذي اعتقل مجدداً بعد سجن الأحداث وحوكم في محكمة خاصّة وتمّ إرساله إلى سجن تشيفيتافيكا. الآن لديه صديق يدعى فيتّوريو. ”فيتّوريو هذا“ تقول أمّي: ”إنه فتى جيد جداً، مجتهد، ومن عائلة محترمة جداً. ألبيرتو أهبل، لكنه دوماً يختار أصدقاء جيدين“. لم يكف ألبيرتو عن كونه، في لغة أمّي، ”بارباس“، و”أهبل“، كلمات لم نعرف مرادها منها حتى الآن. لقد اجتاز الثانوية بنجاح.

”شرشوح، حثالة“ يصرخ أبي في الليل حين يعود ألبيرتو. لقد اعتاد الصراخ بهذه الطريقة، وحتى لو عاد ألبيرتو، بالصدفة، باكراً فإنه يصرخ بالطريقة ذاتها:

”بحق الجحيم أين كنت حتى هذه الساعة؟“. ”كنتُ رفقة صديق لي للحظات“ يجيب ألبيرتو دوماً بصوته النضر، المرهف، المرح.

لاحق ألبيرتو الخيّاطات، وكذلك الفتيات بنات العائلات المحترمة. لقد لاحق جميع البنات، وجميعهن أعجبن به. وقد أسعفته طبيعته المرحة واللبقة باستمالة حتى أولئك اللواتي لم يعجبن به. دخل كلية الطب. وجده أبي أمامه في قاعة التشريح ولم يعجب قطّ بوجوده هناك. في إحدى المرات، وفيما القاعة مظلمة وأبي يقوم بالإسقاط رأى سيجارة مشتعلة، فصرخ: ”من يدخن؟ من هو ابن الكلب الذي يدخن؟“. ”هذا أنا بابا“ أجاب بنبرة مرحة، فضحك الجميع.

حين يكون ثمّة امتحان لدى ألبيرتو يبقى أبي بمزاج سيئ منذ الصباح. ”سيبهدلني. لم يدرس شيئاً“ يقول لأمّي فتجيبه: ”انتظر بيّينو! ما زلنا لا نعرفه!“.

”لقد حصل على ثلاثين درجة“ تقول أمّي. ”ثلاثون؟“ يثور غاضباً: ”لقد منحوه إياها لأنه ابني. لو لم يكن ابني لرسّبوه واسودّ وجهه أكثر مني“.

لاحقاً صار ألبيرتو طبيباً ماهراً جداً إلا أن أبي لم يقتنع قطّ. وحين تشعر أمّي أو أحد منّا بسوء، ويرغب أن يكشف عليه ألبيرتو فإن أبي ينفجر بواحدة من تلك الضحكات الرنانة: ”ماذا؟ ألبييرتو! ما الذي تريدون أن يعرفه ألبيرتو!“.

***

ألبيرتو وصديقه فيتّوريو تعوّدا التجوّل على طول شارع الملك أومبيرتو.

فيتّوريو أسود الشعر مع كتفين مربعتين وذقن طويل بارز. فيما ألبيرتو شعره أشقر وأنفه طويل وذقنه قصير منحسر. كانا يتحدثان عن الفتيات. وأحياناً في السياسة أيضاً لأن فيتّوريو كان متآمراً سياسياً. ألبيرتو لم يكترث للسياسة إطلاقاً لكنه قرأ الصحف. لم يطلق الأحكام ولم يتدخل في النقاشات التي ظلّت تحتدم أحياناً بين ماريو وأبي. مع ذلك انجذب إلى المتآمرين. منذ أيام باييتّا، حين كانا ولدين بالسراويل القصيرة، شعر ألبيرتو بانجذابه إلى

المؤامرات دون أن يقحم نفسه فيها إطلاقاً. أحبَّ أن يكون صديقاً موثوقاً للمتآمرين.

حين يلتقي أبي بألبيرتو وفيتّوريو في الطريق كان يحييهما بإيماءة باردة من رأسه. لم تخطر له أدنى فكرة أن يكون واحد من أولئك متآمراً والآخرُ صديقه الموثوق. من ناحية أخرى أثار لديه الأشخاص الآخرون الذين يراهم رفقة ألبيرتو شعوراً ملتبساً بالازدراء. لم يظنّ أبي أن المتآمرين ما يزالون موجودين في إيطاليا، واعتقد أنه واحد من القلّة المناهضة للفاشية المتبقية في إيطاليا، فيما الآخرون هم أولئك الذين اعتاد لقاءهم في منزل باولا كارّارا، صديقة أمّي، والتي كانت مثلها صديقةً لكوليشوف أيضاً. "لنذهب الليلة إلى كارّارا. سالفاتوريللي سيكون هناك" يقول أبي لأمي. "يا للروعة، أنا متشوقة لسماع ما يقوله سالفاتوريللي" تجيب أمّي.

بعد تمضية أمسية رفقة سالفاتوريللي في صالون كارّارا الصغير والمليء بالدمى التي تصنعها لصالح عمل خيري، فإن أمّي وأبي يشعران بشيء من الراحة رغم أنّه ربّما لم يقل شيئاً جديداً. الكثيرون من أصدقاء أبي وأمّي صاروا فاشيين، أو على الأقل ما عادوا معادين للفاشية بشكل واضح وصريح كما يرغبان، لذا باتا بمرور السنين يشعران دوماً بالمزيد من الوحدة.

بالنسبة إلى أبي فإنّ سالفاتوريللي، كرّارا، والمهندس أوليفيتيه، هم من مناهضي الفاشية القلّة المتبقين في العالم، والذين يتشاركون معه ذكريات زمن توراتي وطريقةً أخرى في الحياة بدا أنها جرفت بعيداً عن الأرض. البقاء رفقة هؤلاء الأشخاص بالنسبة إلى والدي يعني أن يتنفس نفحةً من الهواء النقي. هناك أيضاً فينشغويرّا وباوير وروسّي الذين اعتقلوا لسنوات في الماضي بتهمة التآمر ضد الفاشية، حمل لهم أبي الكثير من التقدير وشعر تجاههم بالخيبة لاعتقاده أنهم لن يخرجوا أبداً. هناك الشيوعيون أيضاً الذين لم يعرف أبي أحداً منهم باستثناء بايتّا الذي يتذكره طفلاً بسروال قصير والمرتبط لديه بأفعال ألبيرتو السيئة، والذي بدا له آنذاك مغامراً صغيراً متهوراً. لم يتخذ أبي رأياً واضحاً آنذاك بشأن الشيوعيين، كما لم يعتقد بوجود

المتآمرين في جيل الشباب، وإن اشتبه بوجودهم بدوا له أنهم حمقى. لقد وجد أنه ليس ثمّة شيء، أي شيء على الإطلاق، يمكن فعله ضد الفاشية.

أمّا والدتي فقد تميزت بطبيعة متفائلة. انتظرت بعض المفاجآت الجيدة في المشهد. انتظرت أن يقوم أحد في يوم ما، بطريقة ما، "بتطيير" موسوليني. تخرج صباحاً وهي تقول: "ذاهبةٌ لأرى إن كانت الفاشية ما تزال قائمة. ذاهبة لأرى إن قاموا بتطيير موسوليني". تجمع الأصداء والشائعات من المتاجر وتستخلص منها الرؤى المريحة. على الغداء تقول لأبي: "في الجوار ثمّة سخط كبير. الناس ما عادت تحتمل". "من قال لكِ ذلك؟" يصرخ أبي. "لقد أخبرني بذلك بائع الخضار الذي أتعامل معه" تجيبه أمي، فيتأفف أبي بازدراء.

***

تلقّت باولا كارّارا الجريدة الأسبوعية *Zurnàl de Zenève* (هكذا تلفظ في الفرنسية). كان لها أخت في جنيف هي جينا، وصهرها غوليلمو فيرّيرو، المهاجران إلى هناك منذ سنوات كثيرة لأسباب سياسية. من حين إلى آخر تسافر باولا كارّارا إلى جنيف. وفي إحدى المرات احتجزوا جواز سفرها فلم تستطع عندئذ الذهاب إلى جينا. "لقد احتجزوا جواز سفري! لا أستطيع الذهاب إلى جينا". أعادوا إليها جواز سفرها بعد ذلك وغادرت لتعود بعد بضعة أشهر ممتلئةً بالأمل والأخبار المطمئنة. "اسمعوا، اسمعوا ماذا قال لي غوليلمو. اسمعوا ماذا قالت لي جينا". حين ترغب والدتي في تأجيج تفاؤلها فإنها تذهب إلى باولا كارّارا. ومع ذلك تجدها في بعض الأحيان، في صالونها الصغير شبه المظلم المليء بالخرز والبطاقات البريدية والدمى، عابسةً تماماً؛ إما أنهم احتجزوا جواز سفرها، وإما أنّ *Zurnàl de Zenève* لم تصل وهي تفكر أنه ربّما تمّت مصادرتها عند الحدود.

ترك ماريو وظيفته في جنوه. أبرم اتفاقاً مع أدريانو وتمّ توظيفه من قبل أوليفيتيه. سعد أبي بذلك في العمق، لكن قبل أن يسعده الأمر غضب خشية أن يكون توظيفه قد تمّ لكونه صهر أدريانو وليس بسبب جدارته.

***

باولا الآن تملك بيتاً في ميلانو. تعلمت قيادة السيارة وتذهب بها بين تورينو وميلانو وإيفريا. أبي استنكر رؤيتها لا تثبت في مكان. عائلة أوليفيتيه جميعهم، من ناحية أخرى، دائمو الحركة ودوماً في السيارات، وقد استنكر أبي ذلك أيضاً.

ذهب ماريو إذاً للعيش في إيفريا. أخذ غرفة هناك وأمضى أمسياته في النقاش مع جينو حول مشكلات المصنع. علاقته بجينو حكمها البرود دوماً إلا أنهما صارا صديقين في تلك الفترة. رغم ذلك شعر ماريو في إيفريا بملل قاتل.

في الصيف قام ماريو برحلة إلى باريس. ذهب لرؤية روسيللي الذي طلب إليه الاتصال بمجموعات العدالة والحرية في تورينو. فجأة قرّر أن يصير متآمراً.

بقي يجيء السبت إلى تورينو، غامضاً كعادته دوماً، دقيقاً في تعليق ملابسه في الخزانة، ترتيب بيجاماته وقمصانه الحريرية في الدرج. يبقى في البيت لوقت قصير، ثم يرتدى المعطف بانهماك وحزم ويخرج فلا نعرف عنه شيئاً.

التقاه أبي في أحد الأيام في شارع الملك أومبيرتو رفقة شخص يعرفه بالنظر. واحد من عائله غينزبرغ. "ما الذي يفعله ماريو مع غينزبرغ ذاك؟" قال لأمّي. أمّي درست اللغة الروسيّة لبعض الوقت "كيلا تمل"، وقد أخذت دروساً، هي وفرانشيس، عند شقيقة غينزبروغ. "إنّه مثقف جداً، فائق الذكاء، يترجم عن الروسيّة، وقد قدّم ترجمات جميلة جداً" قالت أمّي. فأجابها أبي: "وإن يكن. إنه قميء. أنت تعرفين ذلك. اليهود كلهم قميئون". "وأنت؟" قالت أمّي: "ألستَ يهودياً؟".

"للحقيقة، أنا أيضاً قميء" قال أبي.

العلاقة بين ماريو وألبيرتو بقيت بمنتهى البرود. لم تعد المشاجرات القديمة العنيفة والحادّة تندلع بينهما، ورغم ذلك فإنهما لا يتبادلان كلمة، وإن التقيا في

الممر لا يحييان بعضهما بعضاً أبداً. وعندما يُذكر ألبيرتو يلوي ماريو شفتَه بازدارء.

مع ذلك تعرّف ماريو إلى فيتّوريو، صديق ألبيرتو. وحدث أن التقيا، ماريو وألبيرتو، في الطريق وجهاً لوجه مع غينزبرغ وفيتّوريو اللذين يعرفان بعضهما بعضاً جيداً. وقام ماريو بدعوة الاثنين، غينزبرغ وفيتّوريو، لشرب الشاي في البيت.

في اليوم الذي جاؤوا فيه لتناول الشاي في البيت غمرت أمّي السعادة لرؤيتها ألبيرتو وماريو معاً، وأنّ لهما أصدقاء مشتركين. كما يبدو أنها استعادت زمن حي باسترينغو، حين كان يجيء أصدقاء جينو ويبقى البيت دوماً مليئاً بالناس.

بالإضافة لدروس اللغة الروسية أخذت أمّي دروساً في البيانو أيضاً. دروس البيانو تلقّتها عند أستاذ نصحتها به السيدة دوناتي لأنها درست البيانو عنده بعدما بلغت سن النضج أيضاً. السيدة دوناتي طويلة، ضخمة، جميلة، بشعر أبيض. درست الرسم أيضاً في محترف كازوراتي. وفي الواقع هي أحبت الرسم أكثر من البيانو. لقد قدّست الرسم، كازوراتي، المحترَف، زوجة كازوراتي وابنه، ومنزل كازوراتي حيث دعيت مراراً على الغداء. أرادت إقناع والدتي أن تتعلم هي أيضاً عند كازوراتي. رغم مقاومة أمّي بقيت السيدة دوناتي تهاتفها يومياً وتحكي لها كم استمتعت بالرسم. "لكن أنت" تقول السيدة دوناتي لأمّي: "ألا تشعرين بالألوان؟". "أجل" تقول أمّي: "يبدو لي أنني أشعر بها". "والكتل؟" تواصل السيدة دوناتي: "هل تشعرين بالكتل؟". "لا، لا أشعر بالكتل" تجيب أمّي. "لا تشعرين بالكتل؟". "لا، لكن الألوان! أشعر بالألوان".

أخذت أمّي الآن، ومع وجود المزيد من المال في البيت، بصنع الملابس. هو واحد من انشغالاتها، إضافة إلى البيانو واللغة الروسية التي انهمكت فيها بطريقة ما "كيلا تملّ". فالملابس التي صنعتها لم تعرف متى سترتديها، خاصةً أنها لم ترغب في الذهاب عند أحد باستثناء فرانشيس أو باولا كارّارا اللتين تستطيع الذهاب إليهما بملابس البيت أيضاً. خاطت أمّي ملابسها إمّا عند

”السيد بيلوم“، وهو خياط عجوز عشق جدتي في شبابه، في بيزا، حين كانت هي تبحث عن زوج ولم ترغب في ”فضلات فرجينيا“، وإمّا تخيطها في المنزل بواسطة خياطة تدعى تيرسيللا. رينا آنذاك لم تعد تجيء إلى البيت، فقد تلاشت في ضباب الليل منذ زمن. ظلّ أبي يغضب حين يلتقي تيرسيللا في الممر كما غضب في الماضي كلما رأى رينا. إلا أن تيرسيللا كانت أكثر شجاعة من رينا، تلقي التحية على أبي وهي تعبر جواره مع المقص في حزامها، وابتسامتها المهذبة، ووجهها البييومنتي، الدقيق، الورديّ، فيردّ أبي بإيماءة باردة من رأسه.

”تيرسيللا هنا! اليوم أيضاً تيرسيللا هنا!“ يصيح أبي لأمي بعد ذلك. فتجيبه أمّي: ”لقد جاءت لترتي لي معطفاً قديماً، معطفاً من صنع السيد بيلوم“. اسم بيلوم ذاك يجعل أبي يصمت مطمئناً، فهو يكنّ تقديراً للسيد بيلوم كونه عشق أمّه. رغم ذلك لم يعلم أنّ السيد بيلوم هو من أغلى الخياطين في تورينو.

تأرجحت والدتي بين السيد بيلوم وتيرسيللا، ساعةً نحوه وساعةً نحوها. عندما تصنع ثوباً عند السيد بيلوم وتكتشف لاحقاً أن قصّته لم تكن جيدة ”إنه سيئ عند الأكتاف“، تقوم باستدعاء تيرسيللا لفكّه وإعادة خياطته مجدداً. ”لن أذهب أبداً بعد الآن إلى السيد بيلوم، سأفصّل كل شيء دوماً عند تيرسيللا“ تصرّح أمام المرآة وهي تحاول ارتداء الثوب غير المخيط بعد والمعاد تفصيله. رغم ذلك فثمّة ملابس لم تلائمها على الإطلاق. ”دوماً يتركون فيها عيوباً“. عندئذ تهديهم إلى ناتالينا. ناتالينا آنذاك صارت تملك كمّاً هائلاً من الملابس. في أيام الآحاد تخرج بمعطف طويل من صنع السيد بيلوم، أسود، مليء بالأزرار، يجعلها تبدو كالكاهن.

باولا أيضاً خاطت لنفسها الكثير من الملابس ولم تكف عن السجال مع والدتي بشأن الثياب. قالت إنّ أمّي لطالما صنعت الملابس بطريقة خاطئة وجميعها متشابهة؛ تصنع ثوباً عند السيد بيلوم ومن ثمّ تقوم تيرسيللا، بما يثير الغثيان، بنسخه مئة مرة. غير أنّ والدتي أحبّت ذلك، وكرّرت أنها حين كان أولادها صغاراً لطالما صنعت لهم الكثير من المراويل المتطابقة، وهي الآن

تريد، مثل أطفالها، أن يكون لديها الكثير من المراويل للصيف والشتاء. هذا المفهوم حول الملابس كمراويل لم يقنع باولا إطلاقاً.

إن جاءت باولا من ميلانو بفستان جديد فإنّ أمّي تحتضنها وتقول: "أحب أولادي حين يرتدون ملابس جديدة". غير أنّ الرغبة تعتريها حالاً بالحصول على ثوب جديد هي أيضاً، ليس مماثلاً بالطبع لملابس باولا التي وجدتها دوماً متكلّفة ولو صنعتها هي لجعلتها "أكثر على هيئة مراويل". الشيء ذاته كان يحدث معي. عندما تخيط لي ثوباً تعتريها الرغبة في الحال أن تخيط واحداً هي أيضاً. غير أنها لم تعترف بذلك لي ولا حتى لباولا لأننا، أنا وباولا، اعتدنا القول لها إن لديها الكثير من الثياب. تضع القماش مطوياً بعناية في الكومودينة الخاصة بها، وفي أحد الصباحات نرى ذلك القماش الجديد بين يدي تيرسيللا.

لقد أحبّت وجود تيرسيللا في البيت لأنها أحبّت رفقتها أيضاً. "ليديا، ليديا، أين أنت؟" يصيح أبي عند عودته. أمّي تكون في غرفة الخياطة تتحدث إلى ناتالينا وتيرسيللا.

"دوماً تبقين مع الخدم" يصيح أبي: "اليوم أيضاً تيرسيللا هنا!"

"ما الذي يفعله ماريو دوماً مع ذلك الروسيّ؟ نجم جديد يسطع" يقول والدي من حين لآخر حين يلتقي ماريو مع غينزبرغ في الطريق. على أية حال باتت صورة غينزبرغ عنده أفضل الآن، لم يعد يثير لديه الكثير من الريبة بعد أن التقاه مرّة في صالون باولا كارّارا مع سالفاتوريللي. إلا أنه لم يفهم رغم ذلك ما الذي يجمع ماريو به. "ماذا يفعل مع غينزبرغ ذاك؟" يقول: "ما الذي يتحدثون به بحق الجحيم؟".

"إنّه قميء" يقول لأمّي متحدّثاً عن غينزبرغ: "لأنه من اليهود السفارديم. أنا يهودي أشكنازي، ولذا أنا أقلّ قماءة".

لطالما تحدث أبي عن اليهود الأشكناز بشيء من الإعجاب. أدريانو بخلافه اعتاد الحديث جيداً عن مختلطي الدم الذين هم، بحسب ما يقول، الأشخاص الأفضل. من بين مختلطي الدم الذين أعجب بهم أولئك المولودون لأب يهودي وأم بروتستانتية، كما كان هو نفسه.

في بيتنا آنذاك مورست لعبة ابتكرتها باولا ولعبتها بشكل خاص مع ماريو، إلّا أنّ أمّي اشتركت فيها أحياناً. تقوم اللعبة على تقسيم الأشخاص الذين نعرفهم إلى: معادن، حيوانات، وخضراوات.

أدريانو هو معدن وخضار. باولا: حيوان وخضار. جينو: معدن وخضار. راسيتّي بقي لسنوات كثيرة معدناً نقياً. وكذلك فرانشيس.

أبي كان حيواناً وخضاراً، وكذلك أمّي.

"نميمة" يقول أبي وقد تناهت إلى سمعه بضع كلمات أثناء مروره: "دوماً هي نمائمكم هذه".

أمّا الخضراوات النقيّة فهم محض خيال، يندر وجودهم في العام. ربّما يكون بعض الشعراء العظماء فقط هم من الخضراوات النقيّة. رغم انهماكنا في البحث إلا أننا لم نستطع العثور بين معارفنا على واحدٍ يصنّف كخضار نقيّة.

باولا قالت إنّها قد ابتكرت هذه اللعبة غير أن أحدهم أخبرها لاحقاً أنّ نوعاً من هذا التقسيم سبق أن وضعه دانتي في *Vulgari Eloquentia* [5]. ربما هذا حقيقي، أنا لا أعرف.

5 *Vulgari Eloquentia* [البلاغة في اللغة العاميّة] بحث وضعه الشاعر دانتي ألغييري وتوقف عن إتمامه في منتصف الجزء الثاني بعدما كان قد قرر أن يكتبه في أربعة أجزاء.

ذهب ألبيرتو لأداء الخدمة الإلزامية في كونيو، وصار فيتّوريو يتمشّى وحده في الطريق لأنه أنهى خدمته الإلزامية.

يعود والدي فيجد والدتي منشغلةً بتهجئة اللغة الروسيّة. "أف على هذه اللغة الروسية" يقول. تواصل والدتي، على المائدة أيضاً، تهجئة الروسيّة وإلقاء الأناشيد الروسية التي تعلّمتها. "كفّي عن هذه الروسيّة" يرعد أبي. "لكنّي أحبّها جداً" تقول أمّي: "إنها جميلة جداً. فرانشيس تدرسها أيضاً".

***

في أحد أيّام السبت لم يأتِ ماريو من إيفريا كعادته، ولم يظهر حتى يوم الأحد. لم تقلق أمّي لأنه سبق له أن تغيّب في مرّات أخرى. فكّرت في أنه ذهب للقاء عشيقته النحيلة في سويسرا.

صباح الاثنين أتى جينو وبييرا ليخبرانا أنّ ماريو قد اعتقل عند الحدود السويسرية مع أحد الأصدقاء. لقد ألقي القبض عليهما في بونتي تريزا ولم يُعرف شيء آخر. جينو بلغه الخبر من أحد أبناء أوليفيتيه في لوغانو.

في ذلك اليوم لم يكن والدي في تورينو. وصل صبيحة اليوم التالي ووجدت أمّي في الحال الوقت لتخبره بما حدث، ثمّ امتلأ البيت بعناصر الشرطة الذين حضروا للتفتيش.

لم يعثروا على ما يريدون. في اليوم السابق قمنا، مع جينو، بتفتيش أدراج ماريو ولم نعثر فيها على ما هو خطِر أبداً. لم نجد إلا قمصانه "أشياءه" كما تسميها الخالة دروسيللا.

غادر العناصر بعدما أبلغوا أبي أن يتبعهم إلى مقر الشرطة للتحقيق. في المساء لم يعد أبي وهكذا فهمنا أنهم احتجزوه في السجن.

عاد جينو إلى إيفريا وهناك تم اعتقاله، ونقل هو أيضاً بعد ذلك إلى سجون تورينو.

جاء أدريانو بعد ذلك وأخبرنا أنّ ماريو أثناء عبوره بونتي تريزا في السيارة مع صديقه أوقفه عناصر الجمارك يبحثون عن السجائر. قاموا بتفتيش السيارة فعثروا على منشورات مناهضة للفاشية. أرغم ماريو وصديقه على الترجل، وصحبهما الحرس إلى مركز الشرطة سيراً على طول النهر. ماريو في لحظة مباغتة ألقى بنفسه في النهر بملابسه وسبح باتجاه الحدود السويسرية. أخيراً حضر الحرس السويسري بواسطة قارب لملاقاته. والآن ماريو موجود في سويسرا بأمان.

امتلك أدريانو عندئذ السحنة ذاتها التي امتلكها يوم فرار توراتي، سحنته السعيدة والخائفة التي تتلبّسه أيام الخطر. وضع سيّارةً مع سائق بتصرّف والدتي التي لم تعرف ما تفعله بهما، هي التي لم تعرف أين تذهب.

في كلّ لحظة تشبك أمّي كفيها وهي تقول ما بين السعادة والفخر والخوف: "في الماء! بالمعطف!".

الصديق الذي التقى ماريو في بونتي تريزا، والذي امتلك سيّارة – ماريو لم يمتلك سيّارة ولم يعرف القيادة – كان يدعى سيون سيغري. رأيناه أحياناً في

البيت مع ألبيرتو وفيتّوريو. هو فتى أشقر، دوماً منحنٍ بعض الشيء بهيئة وديعة وكسولة. هو صديق لألبيرتو وفيتّوريو، ولم نعرف أنه على معرفة بماريو أيضاً. حضرت باولا حالاً من ميلانو في السيارة وأخبرتنا أنها تعرف بالأمر؛ لقد أفضى لها ماريو أن الرحلات التي أجراها رفقة سيون سيغري بين إيطاليا وسويسرا، والتي حمل فيها المنشورات، كانت كثيرة، ولطالما سارت الأمور بسلاسة ما جعله يزداد جرأة فيملأ سيارته دوماً بالمنشورات والصحف متخلياً عن كلّ قواعد الحيطة. حين قفز في النهر أشهر أحد الحراس مسدسه، غير أنّ حارساً آخر صرخ به ألا يطلق النار. بات ماريو مديناً بحياته لذلك الحارس الذي صرخ بهذا الشكل. مياه النهر كانت هائجة، غير أنه سبّاح ماهر ومعتاد على المياه فائقة البرودة، فهو، تتذكر والدتي، خلال إحدى رحلاتهم البحرية سبح في بحر الشمال رفقة طبّاخ السفينة فيما المسافرون الآخرون يتفرجون عن سطح السفينة وهم يهتفون. وحين علموا أن ماريو إيطالي راحوا يصرخون: يحيا موسوليني.

رغم ذلك، في اللحظات الأخيرة في نهر تريزا خارت قواه، أعاقته الملابس التي يرتديها، وربما بسبب الانفعال، لكنّ الحرس السويسريين وصلوا لملاقاته في القارب عندئذ. تشبك أمّي كفيها وتقول:

”من يدري إن كانت صديقته النحيلة في سويسرا ستمنحه شيئاً ليأكل!“.

أودع سيون سيغري السجن في تورينو، واعتقلوا شقيقه أيضاً. اعتقلوا غينزبرغ والكثير من الأشخاص الذين على صلة بماريو في تورينو.

أعرب فيتّوريو، الذي لم يعتقل، لوالدتي عن دهشته لأنه تعامل مع كل أولئك الأشخاص بانتظام. وجهه الطويل مع ذقنه البارز كان شاحباً ومرتبكاً. راحا، هو وألبيرتو الذي عاد إلى البيت في إجازة لبضعة أيام، يمشيان جيئة وذهاباً في شارع الملك أومبيرتو.

لم تعرف أمّي كيف تحمل إلى أبي في السجن الملابس الداخلية والطعام. أرادت بقلق الحصول على بعض المعلومات. طلبت إليّ أن أبحث في دليل الهاتف عن رقم أقارب سيغري، إلا أنّ سيغري يتيم ولا أقارب له باستثناء شقيق معتقل هو أيضاً. علمت والدتي أنّ الأخوين سيغري هما أبناء عمومة

بيتيغريللي، فطلبت إليّ الاتصال ببيتيغريللي لمعرفة كيف ينظم الأمر بنفسه، وإن كان يحمل الملابس الداخلية والكتب لابني عمه في السجن. أجاب بيتيغريللي أنه سيأتي إلى منزلنا.

بيتيغريللي روائيّ، وألبيرتو كان قارئاً نهماً لرواياته. أمّا أبي فيشعر حين يجد روايةً لبيتيغريللي في المنزل كأنه رأى ثعباناً. "ليديا، أَخفي هذا الكتاب حالاً" يصيح. لقد تملّكته خشية كبيرة في الحقيقة أن أقرأه أنا، فروايات بيتيغريللي ليست "ملائمةً" لي على الإطلاق. بيتيغريللي أدار أيضاً مجلةً تدعى *Grandi Firme*، وقد حضرت أيضاً على الدوام في غرفة ألبيرتو، محزومةً في مغلّفات ضخمة وموضوعةً مع الكتب الطبية على رفوفه.

وصل بيتيغريللي إلى منزلنا. طويل، بدين، مع سوالف طويلة سوداء يتخللها بعض الشيب، ويرتدي معطفاً واسعاً لم يخلعه. جالساً على الأريكة بثبات راح يتحدث إلى أمّي بنبرة حازمة ولهجة يشوبها الأسى. لقد اعتقل مرّة قبل سنوات. شرح لنا كل شيء؛ الطعام يمكن أخذه للسجناء في أيّام محددة من الأسبوع، وفي البيت علينا تكسير الجوز والبندق، وتقشير التفاح والبرتقال، وتقطيع الخبز إلى شرائح رقيقة، إذ لا سكاكين في السجن. شرح لنا كل شيء، ثمّ صمت بمنتهى التهذيب سامحاً لأمّي بالحديث وهو يلف ساقاً على ساق، ومعطفه الواسع مفتوح، وحاجباه الكثّان يتجعدان عند جبينه. أخبرته أمّي أنني كتبتُ روايات قصيرة، ورغبَ في أن أعرض عليه دفتري حيث نسختُ بخطّ أنيق رواياتي القصيرة الثلاث أو الأربع. بيتيغريللي، ودوماً بهيئته الغامضة الملتبسة والحزينة، راح يتصفحه قليلاً.

وصل ألبيرتو وفيتّوريو بعد ذلك، وقامت أمي بتقديمهما إلى بيتيغريللي. هكذا خرج بيتيغريللي متوسطاً الاثنين في شارع الملك أومبيرتو بهيئته الغامضة الملتبسة والحزينة ومعطفه الطويل الواسع على كتفيه.

بقي والدي في السجن لخمسة عشر أو عشرين يوماً، كما أظن. وجينو بقي شهرين. واظبت أمّي على الذهاب في الصباح إلى السجن، في الأيام المسموح فيها بإحضار الطعام، مع صرّة من الملابس الداخلية وكيس من البندق والبرتقال المقشر.

بعد ذلك صارت تذهب إلى مركز الشرطة، فيستقبلها مرة شخص يدعى فينوتشي ومرةً شخص آخر يدعى لوتري. لقد بدت لها هاتان الشخصيتان صاحبتي نفوذ كبير، وبدا لها أن مصير عائلتنا رهن أيديهما. "اليوم كان هناك فينوتشي" تقول بمنتهى السعادة عند عودتها إلى البيت، لأن فينوتشي طمأنها وأخبرها أنه لا شيء إطلاقاً ضدّ أبي وجينو وأنه سيتم إطلاق سراحهما قريباً. "اليوم كان هناك لوتري" تقول بالمقدار نفسه من السعادة، لأن لوتري بسلوكياته الفظّة بدا لأمي شخصيةً أكثر صدقاً. كما أنها شعرت بالإطراء لأن كلتا الشخصيتين تسميائنا بأسمائنا، وبدا كأنهما يعرفاننا جميعاً بشكل جيد؛ يقولان: "جينو"، "ماريو"، "بييرا"، "باولا". وأبي يسمونه "الأستاذ". وعندما شرحت لهما أنه رجل علم، وأنه لم ينخرط في السياسة قطّ، ولم يشغل باله بغير خلايا الأنسجة، أومآ لها برأسيهما طالبين إليها أن تهدأ. مع ذلك، بدأت والدتي، رويداً رويداً، تشعر بالخوف، لأن أبي لم يرجع إلى البيت، ولا جينو حتى. وفي لحظة معينة نشرت إحدى الصحف مقالاً بعنوان عريض: "الكشف عن مجموعة من المناهضين للفاشية في تورينو متواطئة مع المنفيين في باريس". "متواطئة" تردد أمّي بأسى. لقد بدت لها تلك الكلمة "متواطئة" زاخرة بتهديدات غامضة. صارت تجلس في الصالون تبكي وهي محاطة بصديقاتها، باولا كارّارا، فرانشيس، والسيدة دوناتي، وأخريات أكثر شباباً منها واللواتي اعتادت حمايتهن ومساعدتهن ومواساتهن حين يكنّ بلا نقود أو يتعرضن للتوبيخ من أزواجهن. الآن هنّ من يساعدنها ويواسينها. باولا كارّارا قالت بوجوب إرسال خطاب إلى *Zurnàl de Zenève*.

"لقد كتبتُ إلى جينا في الحال" قالت: "الآن سترين أن احتجاجاً سيخرج عن *Zurnàl de Zenève*".

"إنها مثل قضية دريفوس" راحت أمي تواصل التكرار: "إنها مثل قضية دريفوس".

آنذاك صار هناك دوماً أناس يأتون ويذهبون إلى البيت؛ باولا وأدريانو وتيرني الذين يجيئون من فلورنسا خصوصاً، وفرانشيس وباولا كارّارا، وبييرا الحبلى التي كانت في حداد على أبيها وانتقلت للعيش معنا. ناتالينا تجري ما بين

المطبخ والصالون حاملة فناجين القهوة وتبدو سعيدة ومتحمسة. دوماً يسعدها تواجد الصخب، أناس في البيت، ضوضاء، أيّام مليئة بالدراما، أصوات أجراس، والكثير من الأسرّة لتحضّرها.

غادرت أمّي بعد ذلك مع أدريانو إلى روما، لأن أدريانو اكتشف وجود دكتور يدعى فيراتّي، هو طبيب شخصيّ لموسوليني ومناهض للفاشية في الوقت ذاته، وعلى استعداد لمساعدة مناهضي الفاشية. الوصول إليه لم يكن أمراً يسيراً إلا أن أدريانو عثر على شخصين يعرفانه، وهما: أمبريسيوني وسيلفيستري، وأمل بالوصول إليه بواسطتهما.

بقينا وحدنا، أنا وبييرا، في المنزل مع ناتالينا. وفي إحدى الليالي أيقظنا رنين الجرس فنهضنا حالاً يملؤنا الذعر. إنهم جنود حضروا للبحث عن ألبيرتو الذي يخدم ضابطاً مجنداً في كونيو وقد غادر الثكنة دون أن يعود إليها، ولم يعرفوا مكانه.

قد يحاكم بتهمة الفرار من الجندية، قالت بييرا. تساءلنا طوال الليل أين انتهى المطاف بألبيرتو. بييرا اعتقدت أنه خائف وربّما فرّ إلى فرنسا. غير أن فيتّوريو أبلغنا في اليوم التالي أنّ ألبيرتو قد ذهب ببساطة للقاء فتاة في الجبل، وقد أمضى معها بعض الوقت، تزلّجا معاً بسلام فنسي أن يعود إلى الثكنة. وقد عاد الآن إلى كونيو وتمّ الزجّ به في السجن.

رجعت والدتي من روما بخوف مضاعف. رغم ذلك، وبطريقة ما، فقد استمتعت في روما، لأن السفر منحها المتعة دوماً. لقد نزلت هي وأدريانو ضيفين عند سيدة تدعى بوندي، قريبة أبي، وحاولا التواصل، عدا عن الدكتور فيراتّي، مع مارغريتا أيضاً. مارغريتا هي واحدة من المارغريتات والريجينات الكثيرات اللواتي كنّ جزءاً من قريبات أبي. غير أنّ مارغريتا هذه، التي لم يرها أبي وأمّي منذ سنوات كثيرة، عُرفت واشتهرت بصداقتها مع موسوليني. لم تستطع أمّي مقابلتها لأنها لم تكن في روما عندئذ. كما لم تستطع حتى التحدث إلى الدكتور فيراتّي. غير أن ذينك الاثنين، سيلفيستري وأمبروسيني، منحاها الأمل. إضافةً إلى أنّ أدريانو امتلك مصدراً آخر، "مصدري" يقول دوماً، والذي

أخبره أنّ أبي وجينو سيطلق سراحهما قريباً. سيون سيغري وغينزبرغ كانا من بين المعتقلين الواقعين تحت خطر حقيقي، وقيل إنهما سيتعرضان للمحاكمة.

لكن والدتي لم تكفّ عن القول: "إنها مثل قضية ديرفوس!".

ثمّ عاد أبي إلى البيت في إحدى الليالي دون ربطة العنق وأنشوطات الحذاء التي انتزعوها في السجن، متأبطاً كومة من الملابس الداخلية المتسخة ملفوفةً بورق الجرائد، مع لحية طويلة، وبمنتهى السعادة لأنه كان سجيناً.

بقي جينو محتجزاً لشهرين آخرين. وفي أحد الأيام، وبينما ذهبت والدتي ووالدة بييرا لتأخذا له الملابس الداخلية والطعام، حدث أن اصطدمت التكسي بتكسي آخر. لم تصب أمي ولا أم بييرا بأذى غير أنهما وجدتا نفسيهما جالستين في تكسي محطّمة وأكوام الأشياء التي تحملانها على ركبهما، السائق يشتم، وحشد من الناس تجمع من حولهم إضافة إلى الحرس. كانوا على بعد أمتار قليلة من السجن. وخشيت أمّي أن يدرك هؤلاء الناس أنهما ذاهبتان إلى السجن بكل ما تحملانه من أشياء، وأن يظنونهما قريبتين لبعض القتلة. أدريانو، حين حكوا له ما حدث، قال إن برج أمّي، دون شك، تعاكسه بعض النجوم، وهذا السبب فيما تتعرض له في تلك الفترة من مخاطر ومغامرات.

لاحقاً أطلق سراح جينو أيضاً. وقالت أمّي:

"الآن نعود لنبدأ الحياة المملة من جديد!".

غضب أبي لمعرفته أنّ ألبيرتو سجين وأنه تحت خطر الذهاب إلى المحكمة الحربية. "شرشوح" قال: "بينما عائلته في الاعتقال يذهب هو للتزلج مع الفتيات".

"أنا قلق بشأن البيرتو!" يقول مستيقظاً في الليل: "إنها ليست مزحة إن تمّ تحويله إلى المحكمة الحربية".

"أنا قلق بشأن ماريو!" يقول: "أنا بمنتهى القلق على ماريو، ماذا سيفعل؟".

شعر أبي بالسعادة لأنّ لديه ابناً متآمراً، لم ينتظر ذلك ولم يفكّر أبداً في أنّ ماريو مناهض للفاشية. لقد اعتاد ماريو تخطيئه حين يتناقشان، كما اعتاد الحديث بالسوء عن اشتراكيي الزمن الماضي العزيزين على أبي وأمّي. اعتاد

القول إنّ توراتي ساذج كبير، وإنه راكم الأخطاء فوق بعضها. لقد قال أبي ذلك أيضاً، إلا أنه كان يشعر بإهانة قاتلة حين يسمعه من ماريو.

"إنّه فاشيّ" قال في بعض المرّات لأمّي: "في العمق هو فاشيّ".

الآن ما عاد يستطيع قول ذلك. لقد غدا ماريو الآن منفياً سياسياً شهيراً. ومع ذلك بالنسبة إلى أبي فإنّ المؤسف هو أن توقيف ماريو وهروبه حدث بينما هو موظف في مصنع أوليفيتيه، لقد خشي أن يُلحق ذلك الضرر بالمصنع وأدريانو والمهندس العجوز.

"لقد قلت إنه ما كان عليه دخول مصنع أوليفيتيه" يصيح على أمّي: "ها هو الآن قد ألحق الضرر بالمصنع".

"كم هو طيّب أدريانو" يقول: "لقد بذل الكثير من أجلي. إنه طيب جداً! جميع عائلة أوليفيتيه طيبون".

تلّقت باولا، ودوماً عبر أحد أبناء أوليفيتيه ولا أعرف أيّهم، بطاقةً صغيرة تحتوي ملاحظةً مكتوبة بخط ماريو بحروف صغيرة وغير مقروءة تقريباً. البطاقة تقول التالي: "إلى أصدقائي الخضار والمعادن. أنا بخير، ولست بحاجة شيء على الإطلاق".

سيون سيغري وغينزبرغ حوكما أمام محكمة خاصّة. حكم الأوّل بالسجن لسنتين والآخر لأربع سنوات. وقد خفّفت العقوبة إلى نصف المدّة بسبب عفو. وتمّ إرسال غينزبرغ إلى سجن في تشيفيتافيكيا.

لم يُحل ألبيرتو إلى المحكمة الحربية. عاد من الخدمة الإلزامية إلى البيت، وعاد للمشي في الطريق مع فيتّوريو. وأبي يصرخ: "شرشوح، حثالة" حين يسمعه يدخل. وفي أي ساعة يسمعه فيها يدخل يصرخ بالطريقة ذاتها، بحكم العادة.

استأنفت والدتي دروس البيانو. أستاذها، صاحب الشوارب السوداء، كان يخاف أبي وينسلّ مع النوتات عبر الممر على رؤوس أصابعه.

"لا أطيق أستاذك للبيانو هذا" يصيح أبي: "له هيئة مراوغة!".

"لا بيّنو. إنه رجل رائع، ويحبّ طفلته جداً" تقول أمّي: "يحب طفلته ويعلّمها اللاتينية. إنّه مسكين".

تركت والدتي اللغة الروسية. ما عادت تستطيع أخذ الدروس عند شقيقة غينزبرغ لأنّ هذا صار بمثابة شبهة. دخلت مفردات جديدة إلى بيتنا: "لا نستطيع دعوة سيلفاتوريللي، إنها شبهة"، "لا نستطيع الاحتفاظ بهذا الكتاب في البيت، قد تكون شبهة، وربّما يقومون بالتفتيش". باولا قالت إن مدخل بيتنا "مراقب"، وإنّ شخصاً يرتدي معطفاً يقف هناك دوماً، شعرت به "يتعقبها" حين تذهب لتمشي.

***

رغم ذلك لم تدم "الحياة المملّة" طويلاً، لأنهم بعد سنة جاؤوا إلى البيت لاعتقال ألبيرتو، وعرفنا أنهم اعتقلوا مجدداً فيتّوريو والكثير من الناس.

حضروا في الصباح الباكر، كانت السادسة صباحاً ربّما. بدؤوا التفتيش، وكان ألبيرتو بالبيجاما بين عنصرين يراقبانه بينما آخرون يقلّبون كتب الطب الخاصة به، أعداد *Grandi Firme*، والروايات البوليسية.

استأذنتُ أولئك العناصر السماح لي بالذهاب إلى المدرسة. أمّي، عند الباب، دسّت في حقيبتي مغلفات تحتوي فواتيرها خشية أن تقع تحت ناظري أبي أثناء عملية التفتيش فيوبّخها لأنها أنفقت الكثير.

"ألبيرتو! لقد اعتقلوا ألبيرتو! لكن ألبيرتو لا علاقة له بالسياسة أبداً!" تقول أمي مذهولةً، فيجيبها أبي: "اعتقلوه لأنه شقيق ماريو، ولأنه ابني، وليس لشخصه".

عاودت والدتي الذهاب إلى السجن مع الملابس الداخلية. هناك كانت تلتقي والدي فيتّوريو وعائلات سجناء آخرين. "يا لهم من أناس طيبين" تقول عن والدي فيتّوريو. "عائلة بمنتهى الطيبة. يقولون إن فيتّوريو ذاك فتى شاطر، لقد اجتاز للتوّ، وببراعة، امتحانات النيابة العامّة. دائماً اختار ألبيرتو أصدقاء جيدين جداً".

"كارلو ليفي معتقل أيضاً" تقول بمزيج من الخوف والفرح والفخر؛ لأنها خشيت من حقيقة أن تشير الأعداد الكبيرة للمعتقلين إلى التحضير لقضية كبيرة، غير أنّ فكرة وجود الكثير منهم طمأنتها بعض الشيء، كما منحها

شعوراً بالثناء وجود ألبيرتو رفقة أناس ناضجين، محترمين، ومشاهير. "البروفيسور جيوا معتقل أيضاً!".

"لوحات كارلو ليفي لا تعجبني" يقول في الحال أبي الذي لم يفوّت فرصةً للإعلان أنّ لوحات كارلو ليفي لا تعجبه. "لا بيّنو! بالعكس، إنها جميلة" تقول أمّي: "لوحة أمّه جميلة، أنت لم ترها".

"خربشات!" يقول أبي: "لا أطيق الرسم الحديث".

"أوه! لكن جيوا سيطلقون سراحه فوراً" قال أبي: "إنّه ليس خطراً".

والدي لم يفهم قطّ من هم المتآمرون الحقيقيون لأنه في الحقيقة، بعد بضعة أيام، سمع أقولاً عن العثور في منزل جيوا على رسائل مكتوبة بالحبر السريّ، وأنّ جيوا، من بين الجميع، هو الأخطر.

"بالحبر السريّ!" قال أبي: "فعلاً، إنه كيميائي، يعرف كيف يصنع حبراً سريّاً".

ذُهل، وربّما شعر بالحسد بطريقة مبهمة لأن جيوا ذاك الذي اعتاد لقاءه في منزل باولا كارّارا، بدا له دوماً شخصاً متزناً، هادئاً، طيب القلب. الآن ارتقى جيوا إلى قلب تلك القضية السياسية. قالوا أيضاً إن وضع فيتّوريو في غاية الخطورة.

"شائعات" يقول والدي: "كلها شائعات. لا أحد يعرف شيئاً".

لقد اعتقلوا أيضاً جوليو إيناودي، وبافيزي؛ أشخاص عرف والدي القليل عنهم أو عرفهم بالاسم فقط. لقد شعر هو أيضاً، كما أمّي، بالفخر لوجود ألبيرتو بين هؤلاء. لأنه اكتشف أنّ ألبيرتو كان على علاقة بتلك المجموعة التي عرف عنها أنها أصدرت مجلّة اسمها *La Cultura*، وبدا له فجأة أن ألبيرتو استعدّ ليصير جزءًا من مجتمع أكبر شأناً.

"لقد اعتقلوه مع أولئك أصحاب *Cultura*، هو الذي لطالما قرأ *Le Grandi Firme* فقط" قال أبي.

"عليه التقدم لامتحان علم الأحياء المقارن. لن يتاح له ذلك الآن. لن يتخرّج" يقول لأمّي في الليل.

بعد ذلك أرسل ألبيرتو وفيتّوريو والآخرين إلى روما مكبّلين بالأصفاد. تمّ نقلهم إلى سجن ريجينا كويلي.

عاودت أمّي الذهاب إلى مركز الشرطة، إلى فينوتشي ولوتري. لكن فيونتشي ولوتري أبلغاها أنّ القضية هذه المرّة انتقلت إلى شرطة روما وأنهما لا يعرفان أي شيء.

أدريانو علم، عن طريق مصدره، أنّ جميع المكالمات الهاتفية بين ألبيرتو وفيتّوريو كانت مسجّلة واحدة إثر واحدة. فيتّوريو وألبيرتو في الحقيقة كانا يتهاتفان بشكل متواصل في المرّات النادرة التي لا يكونان فيها معاً يمشيان في الطريق.

"تلك المكالمات الحمقاء" قالت أمّي: "لقد سجلوها واحدةً إثر واحدة".

لم تعرف أمّي ما الذي تحدّثا به في تلك المكالمات، لأن ألبيرتو حين يتحدث على الهاتف كان يفعل ذلك همساً. رغم ذلك اقتنعت والدتي، وكذلك والدي أيضاً، أنه لم يتحدث بغير الهراء.

"ألبيرتو شخصية عديمة النفع" يقول والدي: "لقد اعتقلوه. ذلك الشخص نفسه عديم النفع".

بدآ مجدداً الحديث عن الدكتور فيراتّي ومارغريتا. أبي لم يرغب في سماع اسم مارغريتا. "تخيلي أن أذهب إلى مارغريتا! لن أذهب إليها، لا أتخيل ذلك حتى!". مارغريتا تلك كانت قد كتبت قبل سنوات سيرة موسوليني. بدت لأبي حقيقةُ أن يكتب أحد أقاربه سيرة موسوليني أمراً لا يصدق. "ربما لا ترغب في استقبالي حتى! تخيلي أن أذهب إلى مارغريتا لطلب المعروف!".

ذهب والدي إلى مركز الشرطة في روما لتقصّي الأخبار. بسبب افتقاده لكلّ حسّ دبلوماسي، وصياحه الدائم بصوته الجهوري، لا أعتقد أنه حصل على الكثير، لا من اللقاءات ولا من المعلومات. استقبله شخص أخبره أن اسمه ده ستيفاني. والدي سيخطئ بلفظ اسمه دوماً أثناء الحديث عنه مع أمّي ويقول "دي ستيفانو". وصف لها كيف بدا "ستيفانو" ذاك. قالت أمّي: "لكن ذاك ليس ده ستيفاني بيّنو! إنّه أنكيسي! لقد كنتُ هناك العام الماضي". "أنكيسي! كيف! أخبرني أنّ اسمه دي ستيفانو. لا يمكنه أن يعطيني معلومات خاطئة!". حول ستيفانو وأنكيسي تشاجرا دوماً وواصل أبي تسميته دي ستيفانو رغم أنه، بحسب ما تقول أمّي، كان أنكيسي دون أدنى شك.

من روما كتب ألبيرتو أنه آسف لعدم استطاعته زيارة المدينة. في الواقع هو رأى روما لمدة نصف ساعة فقط حين كان في الثالثة من عمره.

مرّةً كتب أنه غسل شعره بالحليب، وصدرت عن شعره بعد ذلك رائحة قذرة عمّت الزنزانة بأكملها. أوقف آمر السجن تلك الرسالة وأبلغه أن رسالته تحتوي على حماقات منحطّة.

أُرسل ألبيرتو إلى سجن انفرادي في بلدة تدعى فيرّاندينا، في لوكانيا. أمّا جينو وفيتّوريو فقد تمّت محاكمتهما، وحكم على كلّ منهما بخمس عشرة سنة.

قال أبي:

"إن عاد ماريو إلى إيطاليا سيحكم بخمس عشرة أو عشرين سنة".

***

من باريس كتب ماريو آنذاك رسائل قصيرة ومقتضبة بخطّه الصغير غير المقروء الذي وجد والداي صعوبةً بفكّ رموزه.

ذهبا للقائه. عاش ماريو في باريس في استديو صغير. كان لا يزال يرتدي ملابسه التي ألقى نفسه بها في المياه في بونتي تريزا وقد اهترأت وباتت كاحتة. أرادت والدتي أن يشتري طقماً لكنه رفض التخلي عن تلك الملابس الكاحتة. سأل حالاً عن أخبار سيون سيغري وغينزبرغ اللذين ما يزالان معتقلين. تحدّث بتقدير عن غينزبرغ وأنه رغم البعد لم يتخلّ عن أفكاره ومشاعره حتى وإن ركنها جانباً لبعض الوقت. أمّا بشأن مغامرته وهروبه فبدا أنّه نسيها كلياً.

إنه يغسل ملابسه بنفسه. لا يملك غير قميصين مهترئين يغسلهما بعناية فائقة، وبالحذر ذاته الذي تعوّده في معاملة وترتيب ملابسه الداخلية الحريرية في أدراجه.

يمسح بيته بعناية ودقة فائقتين. يغتسل جيداً، ويبقى حليقاً، أنيقاً حتى بملابسه المهترئة. قالت أمّي إنه بدا صينياً أكثر من أيّ وقت مضى.

كان لديه قطة. وفي أحد أركان الاستديو وضع لها صندوقاً صغيراً يحتوي نشارة الخشب. هي قطّة نظيفة جداً، قال ماريو، ولا تتبرز أبداً على الأرض.

قال أبي إنّه مهووس بتلك القطة. يستيقظ مبكراً ليشتري لها الحليب. أبي، مثل جدتي، لم يطق القطط. أمّي أيضاً لم تحب القطط كثيراً بل فضّلت الكلاب.

قالت أمّي:

"لماذا لم تقتنِ كلباً بدلاً منها؟"

"كلب!" صاح أبي: "ينقصه فقط أن يقتني كلباً!".

في باريس قطع ماريو علاقته بمجموعة العدالة والحرية. تردد عليهم لفترة وتعاون معهم في صحيفتهم، لكنه رأى لاحقاً أنهم لا يعجبونه كثيراً.

ماريو هو الذي كتب في طفولته قصيدةً عن أولاد توسي الذين لم يحب اللعب معهم:

عندما يصل السادة توسي
كل شيء يغدو مغمّاً
كل شيء يغدو مملاً

بالنسبة إليه الآن، الفتيان توسي هم مجموعة العدالة والحرية. كلّ ما يقوله أولئك ويفكرون فيه ويكتبونه يثير إزعاجه. لم يكف عن انتقادهم. وكان يقول:

ليس ملائماً أن يعسّل التين حلواً
وسط حموضة الزعرور [6]

6 Ché tra i lazzi sorbi
Non si convien maturi il dolce fico
كما وردت في الأصل. من الكوميديا الإلهية لدانتي.

التين الحلو كان هو، أمّا الزعرور الحامض فهو ما يصدر عن العدالة والحرية.

"هذا صحيح" يقول: "هكذا هو الأمر".

ليس ملائماً أن يعسّل التين حلواً
وسط حموضة الزعرور

يقولها ضاحكاً وهو يداعب فكّيه، مثلما فعل في الماضي حين كان يقول: "دودة تنخر تفاحْ".

بدأ قراءة دانتي. اكتشف أنه فائق الجمال. بدأ تعلّم اليونانية أيضاً وقراءة هيرودوت وهوميروس.

بالمقابل، لم يطق باسكولي ولا كاردوتشي. كاردوتشي لاحقاً سبب له حالاً من السخط: "كان مَلكياً" يقول: "في البدء كان جمهورياً، ثم أصبح ملكياً لأنه وقع في غرام تلك الملكة الحمقاء مارغريتا!".

"الفكرة أنه من زمن بودلير ذاته، من القرن ذاته! ليوباردي شاعر عظيم. شعراء الحداثة الوحيدون هما ليوباردي وبودلير. من المثير للسخرية أنهم في المدراس الإيطالية ما زالوا يدرّسون كاردوتشي!".

ذهب والدي ووالدتي لزيارة اللوفر. سأل ماريو إن شاهدا بووسين.

هما لم يشاهدا بووسين. لقد رأيا أشياء أخرى كثيرة.

"ماذا؟" قال ماريو: "لم تريا بووسين! ما جدوى الذهاب إلى اللوفر إذاً! الشيء الوحيد الذي يستحق المشاهدة في اللوفر هو بووسين".

"إنها المرّة الأولى التي أسمع فيها ببووسين هذا" قالت أمّي.

في باريس أقام ماريو صداقةً مع شخص يدعى كافي. لم يتحدث إلا عنه.

"نجم جديد يسطع" قال أبي.

كافي هو نصف روسي ونصف إيطالي، هاجر إلى باريس منذ سنوات كثيرة، فقير جداً وبصحة عليلة.

ملأ كافي نهراً من الصفحات دفع بها إلى أصدقائه لقراءتها دون أن يكلف نفسه عناء طباعتها. كان يقول إنه عندما يكتب أحدهم شيئاً لا يتطلب الأمر طباعته. يكفي أن يكتبه ويقرأه للأصدقاء. ليس ثمّة حاجة لبقائه للأجيال القادمة. الأجيال القادمة لا تعني شيئاً.

لم يشرح ماريو جيداً ما الذي كان مكتوباً في تلك الصفحات. لقد كتب كلّ شيء، كل شيء.

كافي لم يكن يأكل. عاش دون أي شيء. لقد عاش على اليوسف أفندي. ملابسه ممزقة وحذاؤه مهترئ. إن امتلك بعض المال فإنه يشتري أطعمة

فاخرة وشامبانيا.

”كم هو متعصّب ماريو“ قال أبي لأمّي بعد ذلك: ”ينتقد الجميع. لا يحب أحداً باستثناء كافي هذا“.

”يبدو أنه اكتشف أن كاردوتشي مملّ. لقد أدركت ذلك منذ بعض الوقت“ قالت أمّي.

بعد ذلك شعر والداي بالإهانة من حقيقة أنّ ماريو لا يخالجه أيّ حنين إلى إيطاليا. إنه عاشق لفرنسا، لباريس. صار يخلط دوماً كلمات فرنسية في حديثه. ويتحدث عن إيطاليا بشفاه ملتوية وبشيء من الازدراء في العمق.

لم يكن أبي وأمّي قوميين. بالعكس من ذلك، لقد كرها القومية بأشكالها كافّة. لكن ذلك الازدراء بدا لهما أنه يشملهما ويشملنا جميعاً، كما يشمل عاداتنا وحياتنا كلها.

أسف أبي أيضاً لأن ماريو قطع علاقته بمجموعات العدالة والحرية. رئيس مجموعات العدالة والحرية كان كارلو روسيللي. حين وصل ماريو إلى باريس استضافه روسيللي ومنحه المال. لقد عرف والداي روسيللي منذ سنوات كثيرة، وهما صديقان لوالدته السيدة آميليا التي عاشت في فلورنسا. ”الويل لك إن أنت أسأت لروسيللي!“ قال أبي لماريو.

إضافةً إلى كافي اتخذ ماريو صديقين آخرين؛ الأول هو رينزو جيوا، ابن المعتقل جيوا. فتى شاحب بعينين متقدتين وخصلة شعر متدلية على جبينه، وقد هرب من إيطاليا عابراً الجبال بمفرده. والآخر هو كياروموننتي، الذي تعرفت إليه والدتي قبل سنوات في الصيف في منزل باولا في فورتي دي مارمي. كياروموننتي كان سميناً، بديناً، بشعر أسود مجعّد. صديقا ماريو الاثنان كانا على خلاف مع العدالة والحرية، وكلاهما صديقان لكافي يمضيان أيامهما بالإصغاء إليه حين يقرأ أوراقه المكتوبة بقلم الرصاص التي لن تصبح كتباً؛ لأنه يحتقر الكتب المطبوعة.

كياروموننتي لديه زوجة مريضة جداً، وهو فقير، لذا فقد أعانه كافي، حين يكون بمقدوره، وكذلك ماريو.

لقد عاشوا على هذا النحو في صداقة حميمة، يتقاسمون القليل الذي يملكونه دون الاعتماد على أي مجموعة، ودون أي خطط للمستقبل، لأنه لم يكن ثمّة مستقبل محتمل؛ ستندلع الحرب على الأرجح، وسينتصر الأغبياء، لأن الأغبياء، بحسب ما يقوله ماريو دوماً، هم من ينتصرون.

"لا بدّ أن كافي ذلك أناركي" قال أبي لأمّي: "ماريو أيضاً أناركي في العمق، دوماً كان أناركياً".

بعد باريس ذهب والدي ووالدتي إلى بروكسل حيث أقيم مؤتمر لعلم الأحياء. التقيا هناك بتيرني وأصدقاء آخرين لأبي، وتلامذته ومساعديه، فتنفّس أبي الصعداء لأن رفقة ماريو قد أرهقته.

"هو دوماً على خطأ" قال عن ماريو: "إنه يخطئ بمجرد أن يفتح فمه".

لقد أحبّ أبي تلك الأسفار بوجود المؤتمرات، أحبّ أن يلتقي علماء الأحياء، المناقشات وهو يحك رأسه وظهره ساحباً أمّي خلفه بغضب شديد دون أن يسمح لها بالتوقف في صالات العرض أو المتاحف. كما أحبّ الإقامة في الفنادق، إلا أنه كان يستيقظ مبكراً جداً، وحين يستيقظ يكون دوماً في حالة جوع شديد، وإن لم يتناول الفطور يصير في مزاج سيئ، يجول في الغرفة مهتاجاً، ينظر إلى الخارج يرقب أضواء الفجر الأولى. وأخيراً، حين تبلغ الساعة الخامسة، يلتقط سماعة الهاتف ويطلب الفطور صارخاً. "Deux thés! Deux thés complets! avec de l'eau chaude!" [وجبتان اثنتان، وجبتان كاملتان مع الماء الساخن]. كانوا ينسون، عموماً، أن يحضروا له "الماء الساخن" أو المربّى، ففي تلك الساعة يكون النذّل ما يزالون في حالة نعاس. أخيراً، وبعدما يحصل على كل شيء، يلتهم فطوره، المربّى مع البريوش، ثمّ يوقظ أمّي: "ليديا، لقد تأخر الوقت. لنذهب لزيارة المدينة".

"يا له من حمار ماريو" يقول في كل حين: "دوماً كان حماراً ومتعصباً. سأكون آسفاً إن أساء إلى روسيللي!".

"دائماً مع كافي ذاك! كافي، كافي" قالت أمّي لي ولباولا حين حدثتنا عن ماريو بعد عودتهما إلى البيت. تقول "مع كافي" مثلما قالت في الماضي "مع

بابيتّا" شاكيةً من ألبيرتو. كما سألت باولا عن بووسين: "هل حقّاً بووسين ذاك جميل جداً؟".

***

باولا أيضاً ذهبت لرؤية ماريو. تشاجرا، وما عادا يحبان بعضهما. الآن ما عادا يلعبان معاً لعبة المعادن والخضار. ما عادا يتفقان في أيّ شيء، وصار لكل منهما رأي مختلف حول كل شيء. في باريس اشترت باولا فستاناً. لطالما وجدها ماريو أنيقةً، ودوماً كان يثني على ملابسها وذوقها. فيما بينهما كانت باولا هي في العموم من تصدر الأحكام وماريو يوافقها. الفستان الذي اشترته في باريس لم يعجب ماريو. قال لها إنها تبدو بذلك الفستان مثل "زوجة المحافظ" ما أثار استياءها جداً. كيارومونتي أيضاً، الذي اعتادت لقاءه في الماضي في العطلات البحرية في فورتي دي مارمي، لم ترغب في لقائه الآن. لم تتعرف في تلك الشخصية الجديدة لمهاجر سياسي مفلس، مع زوجة مريضة، وصديق مقرب لكافي، على كيارومونتي الذي كان في الماضي يجيء لزيارتها على البحر، يجدّف ويسبح، يغازل صديقاتها، يمزح حول كل شيء، يذهب مساءً للرقص في كاباتّينا. قال لها ماريو إنها برجوازية. "نعم، أنا برجوازية، ولا أكترث أبداً" قالت باولا.

ذهبت لرؤية قبر بروست. ماريو لم يذهب إليه. "ما عاد مهتماً ببروست" حكت باولا لأمّي عند عودتها: "إنه لا يذكره حتى. ما عاد معجباً به. يعجبه هيرودوت فقط".

اشترت معطفاً لماريو لأنها وجدت أنّه لا يملك واحداً. ماريو أهداه حالاً إلى كافي، لأنّ كافي، كما قال، عليه ألا يبتلّ حين تمطر لأنه مريض قلب.

"كافي، كافي، كافي" صارت باولا أيضاً تقول باشمئزاز، واتفقت مع والدي أنّ ماريو أخطأ جداً بابتعاده عن مجموعة روسيللي. كما قالت إنّ ماريو وكيارومونتي في باريس يعيشان في عزلة ومنفصلان تماماً عن الواقع.

***

عاد ألبيرتو من السجن، تخرّج، وتزوّج. وبعكس كل توقعات والدي، صار طبيباً وشرع بعلاج الناس.

صار لديه الآن عيادة، وصار يغضب على ميراندا، زوجته، إن وجد مكتبه غير مرتب، أو الصحف ملقاة بشكل عشوائي. يغضب إن لم يجد منفضة سجائر، فهو يدخن السيجارة تلو الأخرى، وما عاد الآن يلقي الأعقاب على الأرض.

يجيء المرضى فيعاينهم وهو يصغي إلى حكاياتهم عن أعمالهم. لقد أحبّ أعمال الناس.

ثمّ يذهب بمريوله الأبيض والسماعة متدلية من عنقه إلى الغرفة المجاورة، حيث ميراندا تتمدد على الأريكة ملفوفة بالبطانية مع عبوة من الماء الساخن. ولأنها كسولة جداً وبرّيدة فإنه هو من يصنع القهوة.

بقي دوماً، كحاله في يفاعته، في حال من القلق، يشرب القهوة بشكل متواصل، يدخن بشكل متواصل، يمج دون أن يأخذ نفساً كما لو أنه يشرب السجائر شرباً.

حين يجيء أصدقاؤه لزيارته يقيس ضغطهم ويمنحهم عيّنات من الأدوية.

لقد وجد أن الجميع مرضى باستثناء زوجته. تقول له: "أعطني مقوّياً. لا بدّ أنني مريضة، أنا أعاني من الصداع دوماً. أشعر بالإرهاق" فيجيبها: "لستِ مريضةً، أنت فقط مصنوعة من مادة منخفضة الجودة".

ميراندا كانت صغيرة، نحيلة وشقراء بعينين سماويتين. اعتادت البقاء في البيت لساعات طويلة مرتدية روب ألبيرتو وملتحفة الشال. وكانت تقول:

"قريباً قريباً سأذهب إلى أوسبيداليتي. عند إيلينا".

***

حلمت دوماً بالذهاب إلى أوسبيداليتي حيث شقيقتها إيلينا لتمضية أشهر الشتاء. شقيقتها شقراء وتشبهها، إلا أنها أكثر نشاطاً منها بعض الشيء، وفي تلك الأثناء تكون في أوسبيداليتي مستلقية على أريكة طويلة تحت الشمس، أو ربمّا تلعب البريدج.

كانت ميراندا وشقيقتها ماهرتين بلعبة البريدج. لقد فازتا ببطولات. وقد امتلأ منزل ميراندا بالمنافض التي ربحتها في تلك البطولات.

حين تلعب ميراندا البريدج فإنها تنسحب من سباتها. تتخذ هيئة خبيثة فكاهية، تنحني فوق البطاقات بأنفها الصغير المعقوف وقد التمعت عيناها.

مع ذلك فإنها نادراً ما انفصلت عن أريكتها أو البطانية. قرابة المساء تنهض، تذهب إلى المطبخ وتنظر في الطنجرة التي تطبخ فيها الدجاج. ألبيرتو يقول:

"لماذا نأكل دوماً في هذا البيت الدجاج المسلوق؟".

لقد لعب ألبيرتو البريدج أيضاً. لكنه كان يخسر دائماً.

عرفت ميراندا كل شيء عن البورصة لأنّ والدها كان صرّافاً. تقول لأمي:

"هل تعلمين أنني ربّما أبيع أسهمي في Incet؟"، وتقول لها: "عليكِ أنت أن تبيعي أسهمك العقارية. ماذا تنتظرين لتبيعيها؟".

تمضي والدتي إلى والدي قائلةً: "يجب أن نبيع أسهمنا. ميراندا قالت ذلك".

فيجيب أبي:

"ميراندا! وما الذي تعرفه ميراندا!".

لكنه حين يرى ميراندا يقول:

"أنت لمّاحة بشأن البورصة، هل حقاً تعتقدين أنني أفعل الصواب إن بعت أسهم العقارات؟".

ثمّ يقول لأمّي: "يا لها من لبخة ميراندا هذه! دوماً تعاني من الصّداع ومع ذلك هي لمّاحة فيما يخص البورصة. لديها حاسّة شمّ تجاه الأعمال التجارية".

حين أعلن ألبيرتو أنه سيتزوج أثار أبي عاصفةً من الغضب ثمّ استسلم. غير أنه بقي يستيقظ ليلاً ويقول:

"كيف سيفعلانها وهما لا يمتلكان قرشاً؟ ثمّ إنّ ميراندا لبخة".

صحيح أنهما لم يملكا الكثير من المال غير أنّ ألبيرتو بدأ بالكسب لاحقاً. صارت تجيء إليه نساء صغيرات يحكين له مشكلاتهنّ وهو يصغي إليهنّ ببالغ الاهتمام. لقد امتلك الفضول والصبر. أحبّ مشكلات الناس وأمراضهم.

ما عاد يقرأ الآن إلا المجلات الطبية. كفّ عن قراءة روايات بيتيغريللي. لقد قرأ رواياته كلها بالفعل، وبيتيغريللي لم يكتب شيئاً جديداً لكونه اختفى ولم

يعرف أحد أين يكون.

ما عاد ألبيرتو يذهب للمشي في شارع الملك أومبيرتو. صديقه فيتّوريو معتقل وهو لم يعرف من أخباره إلا القليل حين أصيب والده بالتهاب الشعب الهوائية وأرسلوا يستدعونه.

كان ألبيرتو يخيط ملابسه عند خياط يدعى فيتّوريو فوا. قال بينما الخياط يأخذ مقاسات الثوب:

"أفضّل عندكم بسبب الاسم".

شكره الخيّاط راضياً.

في الحقيقة عائلة فيتّوريو كانت هي أيضاً فوا، مثل الخياط.

"دوماً التهاب شعب هوائية! أمراض غبية دوماً. مكتوب عليّ ألا أعالج أمراضاً معقدة بعض الشيء، غريبة نوعاً ما، إنني أشعر بالملل. أشعر بالملل في أعماقي، لا أستمتع بما يكفي".

إلا أنه في الحقيقة استمتع بكونه طبيباً دون أن يرغب في الاعتراف بذلك. وكانت أمّي تقول:

"ألبيرتو شغوف بالطب"، وتقول: "أرغب في الذهاب إلى ألبيرتو ليفحصني، أشعر اليوم بألم خفيف في معدتي".

فيقول أبي:

"ماذا! وما الذي يعرفه ذلك الأحمق ألبيرتو!".

ويكمل: "لديك ألم في معدتك لأنك أكلتِ كثيراً البارحة. خذي حبّة. سأعطيك حبّة".

أمّي اعتادت المرور كلّ يوم بألبيرتو الذي سكن قريباً من منزلهم، فتجد ميراندا على الأريكة. وألبيرتو يخرج للحظات من مكتبه بمريوله الأبيض والسماعة على صدره ليتدفأ على الشوفاج. كان هو وأمّي متعلّقين بالشوفاجات بالطريقة ذاتها.

ميراندا تبقى ملفوفة بالبطانية. فتقول لها أمّي: "تحركي، اغسلي وجهك بالماء المنعش، ولنذهب لنمشي. سآخذك إلى السينما".

فتجيب ميراندا: ”لا أستطيع. عليّ البقاء في البيت بانتظار قريبتي، كما أنني أعاني صداعاً شديداً“.

فيقول ألبيرتو عندئذ: ”ميراندا تفتقر للحياة. إنها كسولة ومصنوعة من مادة ذات جودة منخفضة“.

لطالما انتظرت ميراندا أبناء عمومتها. وكان لديها الكثير منهم. وألبيرتو يقول:

”سئمتُ من معالجة أقاربك“.

ويقول أيضاً: ”أيّ مدينة مملة هي تورينو! كم تصيبنا بالملل، لا شيء يحدث. على الأقل اعتقلونا مرّةً، الآن ما عادوا يعتقلوننا. لقد نسونا. أنا أشعر بالنسيان، أشعر أنني متروك في الظل“.

***

آنذاك جاءت باولا أيضاً لتقيم في تورينو. أقامت في بيت كبير أبيض مع شرفة دائرية فوق تلّة مطلة على نهر Po.

لقد أحبت باولا نهر Po، وشوارع وتلال تورينو، وأحياء فالنتينو حيث اعتادت في الماضي التنزه مع شاب صغير. لقد امتلكت حنيناً كبيراً لكل ذلك غير أن تورينو بدت لها أيضاً أكثر رماديةً ومللاً وحزناً. كثير من الناس والأصدقاء باتوا بعيدين، في السجون. لم تتعرّف باولا على شوارع شبابها، حين قرأت بروست وامتلكت القليل من الملابس.

هي الآن لديها الكثير من الملابس التي صنعتها عند خياطين. إلا أنها تستدعي تيرسيللا إلى البيت وتتنازعانها هي وأمّي. باولا تقول إنّ تيرسيللا تمنحها شعوراً بالأمان وباستمرارية الحياة.

أحياناً تدعو ألبيرتو وميراندا وسيون سيغري الذي عاد من السجن، إلى الغداء. كان لدى سيون سيغري شقيقة تدعى إيلدا تقيم مع زوجها وأولادها في فلسطين، إلا أنها تأتي إلى تورينو بين حين وآخر.

باولا وإيلدا تلك صارتا صديقتين. إيلدا جميلة، طويلة وشقراء. صارت تذهب هي وباولا في نزهات طويلة مشياً حول المدينة.

ولدا إيلدا يدعيان بين وآرييل، وهما يرتادان المدرسة في القدس. إيلدا عاشت حياةً قاسية في القدس، ولم تتحدث إلا عن مشكلات اليهود. لكنها عندما تجيء إلى تورينو للإقامة بعض الوقت عند شقيقها، كانت تحب الحديث عن الملابس والذهاب للتنزه.

شعرت أمّي دوماً بشيء من الغيرة تجاه صديقات باولا، وحين تتخذ باولا صديقة جديدة تتحوّل أمّي إلى مزاج سيئ وتشعر بأنها باتت مهمَلة.

تستيقظ عندئذ صباحاً بوجه ممتقع وجفنين محتقنين تماماً، وتقول: "أشعر بالغمّ". ذلك المزيج من الكآبة والشعور بالوحدة الذي عادةً ما يخالطه عسر الهضم كانت أمّي تسميه "الغمّ". مع ذلك "الغمّ" تتحصّن في الصالون مصابةً بالبرد، تلتحف الشالات الصوفية، وتفكر في أنّ باولا ما عادت تحبها، لا تجيء لرؤيتها، وتذهب للتنزه مع صديقاتها.

"لقد سئمت" تقول أمّي: "أنا لا أستمتع، لقد سئمت. ليس هناك أسوأ من السأم. لو أنني أمرض قليلاً على الأقل".

تصاب بالرشح أحياناً فتغدو سعيدة لأنّ الرشح يبدو لها مرضاً أكثر رقياً من عسر الهضم المعتاد. تقيس حرارتها، إنها 37.4.

"أتعلم أنني مريضة؟" تقول لأبي سعيدةً: "حرارتي 37.4".

"37.4؟ ليست مرتفعة" يقول أبي: "أنا أذهب إلى المختبر حتى لو كانت حرارتي 39".

تقول أمّي: "لننتظر المساء". في المساء تقيس الحرارة كل دقيقة: "دوماً 37.4، ومع ذلك أشعر بالتوعك".

باولا بدورها شعرت بالغيرة من صديقات أمّي. ليس من فرانشيس أو باولا كارّارا. لقد شعرت بالغيرة من صديقاتها الشابات، أولئك اللواتي تحميهنّ أمّي وتساعدهنّ، واللواتي تسحبهنّ خلفها إلى النزهات وإلى السينما. تأتي باولا لرؤية أمّي فيخبرونها أنها خرجت مع واحدة من أولئك الصديقات الشابات، فتغضب: "دوماً في النزهات! لا تبقى في البيت أبداً!".

وحين تدفع والدتي بتيرسيللا إلى إحدى صديقاتها الشابات تغضب باولا وتقول لها: "ليس عليك أن تدفعي إليها بتيرسيللا. كنتُ أحتاجها لإصلاح معاطف

الأطفال“.

”والدتنا شابّة جداً!“ شكت إليّ باولا أحياناً: ”أتمنى لو أنه العكس، لو أنّ لديّ أمّاً عجوزاً، بدينة، مع شعر أبيض، وتبقى دوماً في المنزل تطرز مفارش المائدة، مثل والدة أدريانو. سيمنحني شعوراً بالأمان لو أنّ لي أمّاً عجوزاً هادئة، لا تغار من صديقاتي. حين أجيء لرؤيتها تكون حاضرة، رائقة دوماً، وتطرّز. جميع ملابسها سوداء وتسدي إليّ بعض النصائح“.

قالت لها: ”أنت تملّين كثيراً، لم لا تتعلمي التطريز؟ حماتي تطرّز. تمضي نهاراتها وهي تطرز“.

فأجابتها أمّي:

”لكن حماتك صمّاء. ليس الأمر بيدي أنني لست صمّاء مثل حماتك. أنا أملّ البقاء حبيسة البيت. أحتاج إلى الذهاب للمشي“.

وكانت تقول: ”تخيلي أن أتعلّم التطريز! أنا لست ماهرة. لا أجيد حتى الترقيع. عندما أصلح جوارب البابا تجيء الرقع قبيحة جداً ويتعيّن على ناتالينا تعديلها من بعدي“.

استأنفت وحدها دراسة الروسية والتهجئة على الأريكة. وحين تجئ باولا لرؤيتها تقرأ عليها مهجّئةً عبارات القواعد.

تتأفّف باولا: ”أف! كم هي مملة الماما مع اللغة الروسية هذه“.

باولا شعرت بالغيرة أيضاً من ميراندا. تقول لها: ”دوماً تذهبين عند ميراندا! لا تأتين إليّ أبداً“.

ميراندا أنجبت طفلاً أسموه فيتّوريو. وفي الوقت ذاته أنجبت باولا طفلةً.

قالت باولا إنّ ابن ميراندا قبيح. ”ملامحه قبيحة وخشنة“ قالت: ”يبدو مثل سكّة الحديد“.

عندئذ صارت أمّي حين تذهب إلى ميراندا لرؤية الطفل تقول: ”أنا ذاهبة لأرى كيف هي حال سكة الحديد“.

أحبّت أمّي جميع الأطفال الصغار. وأحبّت المربيّات كذلك.

المربيات ذكّرنها بالوقت الذي كانت تمضيه مع أطفالها صغاراً. كانت لديها تشكيلة من المربيات والمرضعات اللواتي علّمنها الأغنيات. تغني في البيت

وتقول: ”هذه من مربية ماريو. هذه من مربية جينو“.

آرتور، ابن جينو، ولد في السنة التي كان فيها أبي معتقلاً. جاء معنا إلى العطلة وجاءت كذلك مربيته. أمّي أثناء تواجد مربية جينو تلك كانت دائمة الثرثرة معها.

وكان أبي يقول:

”أنت دوماً مع الخدم! تتخذين مراقبة الأطفال عذراً، وفي هذه الأثناء تثرثرين مع الخدم!“.

”لكنها امرأة لطيفة جداً بيّنو، وهي مناهضة للفاشية وتفكّر مثلنا“.

”أنا أحظر عليك التحدّث بالسياسة مع الخدم!“.

من بين أحفاده أحبّ أبي روبيرتو فقط. عندما يرونه حفيداً جديداً يقول:

”لكن روبيرتو أجمل“.

ربّما أبدى نحو روبيرتو فقط بعض الاهتمام لأنه حفيده الأوّل.

حين يحين وقت العطلة يستـأجر والدي منزلاً، دوماً هو نفسه. منذ سنوات ما عاد يرغب في تغيير المكان. كان منزلاً كبيراً من الحجر الرمادي يطلّ على مرج. وهو في غريسوني، في قرية بيرلوتوا.

كان أطفال باولا وابن جينو يأتون معنا. أمّا ابن ألبيرتو، السكة الحديد، فيأخذونه إلى باردونيكيا، لأنّ إيلينا، شقيقة ميراندا، تملك منزلاً هناك.

كره والداي باردونيكيا، لا أعرف لماذا. قالا إنه لا شمس هناك وإنّ المكان مقرف. بسماعهما يبدو المكان كأنه مرحاض.

يقول أبي: ”وغدة كبيرة ميراندا تلك، بإمكانها المجيء إلى هنا. هنا سيكون الطفل بحال أفضل من باردونيكيا بالتأكيد“.

وأمّي تقول: ”مسكينٌ سكّة الحديد“.

عاد الطفل من باردونيكيا بحال جيدة جداً. طفل جميل جداً، مشرق وأشقر. لم يبدُ قطّ كسكّة حديد.

قال أبي:

”ليس سيئاً رغم ذلك. غريب، لم تؤذه باردونيكيا“.

في بعض الأعوام ذهبنا إلى فورتي دي مارمي لأن روبيرتو كان بحاجة إلى هواء البحر. أبي بقي هناك على مضض. يجلس تحت المظلة يقرأ وهو يرتدي ملابسه كأنه في المدينة، غاضباً لأنه لا يحب الناس بلباس البحر. أمّي تنزل في البحر وتبقى على الشاطئ لأنها لا تعرف السباحة، غير أنها تستمتع بالماء وبتلقّي الأمواج. إلا أنها سرعان ما تتجهم حين تعود للجلوس قرب أبي. كانت تغار من باولا التي تمضي بعيداً في البحر فوق لوح التزلج ولا ترجع.

مساءً تذهب باولا للرقص في كاباتّينا، وأبي يقول:

"كل ليلة تذهب للرقص؟ يا لها من حمارة".

على العكس من ذلك في الجبل، في المنزل في بيرلوتوا، بقي أبي سعيداً دوماً، وكذلك أمّي. باولا وبييرا لم تذهبا إلى هناك إلا في زيارات قصيرة. فقط الأطفال حضروا. أمّي تصير في أحسن أحوالها مع الأطفال وناتاليا والمربيات.

في تلك الإجازات حضرْتُ أنا أيضاً. وفي منزل مجاور كانت فرانشيس ولوتشيو. وكان الجميع يذهبون إلى البلدة بملابس بيضاء للعب التنس.

وفي فندق في البلدة حضرت آديلي راسيتّي، دوماً كما هي، صغيرة، نحيلة، بصورة طبق الأصل عن ابنها بالوجه الأخضر المرسوم والعينين الحادتين كرأس الدبوس. تقوم بجمع الحشرات في منديلها وتضعها مع بعض الطحالب على حافة النافذة.

تقول أمّي:

"كم أنا معجبة بآديلي".

ابنها آنذاك كان قد صار فيزيائياً مشهوراً، ويعمل في روما مع فيرمي.

أبي يردد: "لطالما قلت إن راسيتّي فائق الذكاء، رغم أنه جلف، جلف كثيراً".

تأتي فرانشيس وتجلس في المرج على مقعد جوار أمّي وهي ما تزال تحمل مضربها في حقيبته، ورأسها ملفوف بشريط مطاطي أبيض. تتحدث عن كنّتها المقيمة في الأرجنتين، زوجة العم ماورو، وتقول مقلّدةً إياها:

"كيف لا!".

ويقول أبي:

”تتذكرون عندما ذهبنا في شبابنا في رحلة مع باولا كارّارا، وصارت باولا تسمّي الصدوع: ’تلك الحفر التي نسقط فيها‘؟“.

فتقول أمّي:

”وأنت، هل تتذكر حين كان لوتشيو صغيراً وشرحنا له أن عليه ألا يقول أبداً أنه عطشان فصار يقول: ’أنا عطشان لكن لن أقول ذلك‘؟“.

وفرانشيس تقول:

”كيف لا!“.

”ليديا، لا تقشري أصابعك“ يصيح أبي بين حين وآخر: ”كفّي عن هذا السوء“.

”بعض الوقت مع فرانشيس وبعضه مع آديلي راسيتّي، وكانت النهارات تمضي“ تقول أمّي.

غير أنّ أمّي سرعان ما تغدو قلقة وممتعضة حين تجيء باولا لرؤية طفلها. تمضي خلف باولا خطوة خطوة، تراقبها وهي تخرج عبوات كريم البشرة الخاصة بها.

والدتي أيضاً امتلكت الكثير من كريمات البشرة، هي ذاتها، لكنها لم تتذكر مطلقاً أن تستعملها.

”بشرتك كلها متقشّبة“ تقول لها باولا: ”اعتني ببشرتك قليلاً. عليكِ أن تضعي الكريم الليلي المغذي كل مساء“.

في الجبل ترتدي أمّي تنورات ثقيلة موبّرة. وباولا تقول لها:

”أنت ترتدين الكثير من الملابس السويسرية!“.

”كم هي كئيبة هذه الجبال. لا أستطيع تحملها“ تقول باولا.

”الكل معادن!“ قالت لي بعد ذلك متذكرةً اللعبة التي كنا نلعبها مع ماريو: ”وآديلي راسيتّي هي معدن نقيّ. أنا ما عدت أطيق الوجود مع هؤلاء الناس المعادن“.

غادرت بعد بضعة أيام، وقال لها أبي: ”لمَ لا تمكثين بعض الوقت أيضاً؟ يا لك من حمارة!“.

***

في الخريف ذهبنا أنا وأمّي لرؤية ماريو الذي كان آنذاك يقيم في قرية صغيرة بالقرب من كليرمونت–فيرّاندا ويعمل مدّرساً في مدرسة داخلية.

جمعته صداقة متينة مع مدير المدرسة وزوجته. قال إنهما شخصان استثنائيان، مثقفان للغاية ونزيهان، ولا يمكن العثور على من يشبههما إلا في فرنسا.

في المدرسة الداخلية سكن في غرفة صغيرة تحتوي موقد فحم. عبر النوافذ تُرى الحقول المغطاة بالثلج. كان ماريو يكتب رسائل طويلة إلى باريس، إلى كياروموننتي وكافي. ويترجم هيرودوت وهو يحرّك الموقد. تحت سترته يرتدي كنزة داكنة برقبة طويلة مقلوبة صنعتها له زوجة مدير المدرسة، وقد أهداها هو سلةً للعمل عربون شكر لها.

الجميع في البلدة يعرفونه. يقف مع الجميع للتحدث إليهم، ويدعونه إلى بيوتهم لشرب "le vin blanc" [النبيذ الأبيض].

أمّي صارت تقول: "كم أصبح فرنسياً!"

في المساء يلعب الورق مع مدير المدرسة وزوجته. يستمع لأحاديثهما ويناقش معهما أنظمة التدريس. كما يسهبون بالحديث عن الحساء الذي تم تقديمه على العشاء، إن احتوى كمية كافية من البصل أم لا.

"كم أصبح صبوراً!" تقول أمّي: "كم هو صبور مع هؤلاء هنا! معنا نحن لم يمتلك الصبر قطّ. لقد وجدنا مملين حين كان في البيت. بالنسبة إليّ هؤلاء أيضاً يبدون مملين أكثر منّا".

وتقول: "هو صبور فقط لأنهم فرنسيون!".

***

في نهاية الشتاء عاد ليون غينزبرغ إلى تورينو من سجن تشيفيتافيكيا حيث أمضى عقوبته. كان يرتدي معطفاً قصيراً جداً، قبعة بالية، قبعة مائلة بعض الشيء فوق شعره الأسود. يمشي ببطء وكفّاه في جيبيه، وهو يجول حوله بعينيه السوداوين الثاقبتين، شفتاه مشدودتان، جبينه مجعّد، نظارته ذات الإطار السلحفاتي مضغوطة ومنخفضة بعض الشيء على أنفه الكبير.

ذهب ليقيم مع شقيقته ووالدته في مسكن بالقرب من شارع فرنسا. كان تحت المراقبة الخاصة ولذا توجّب عليه العودة مع حلول الظلام حيث يحضر عناصر للتحقق من وجوده في المنزل.

أمضى المساءات مع بافيزي. فهما صديقان منذ سنوات كثيرة. بافيزي عاد من السجن قبل بعض الوقت ويعاني اكتئاباً حاداً جرّاء خيبة أمل عاطفية. يأتي إلى ليون كل مساء، يعلّق على المشجب شاله الليلكي، المعطف مع الحزام، ويجلس إلى الطاولة. ليون يبقى على الأريكة متكئاً بمرفقه إلى الحائط.

يوضح بافيزي أنّه لا يأتي بدافع الشجاعة، لأنه يفتقد إلى الشجاعة وروح التضحية. إنه يجيء فقط لأنه لا يعرف كيف يمضي الأمسيات ولا يحتمل أن يمضيها بمفرده.

كما أوضح أنه لا يجيء للاستماع إلى الأحاديث السياسية، فهو "لا يتدخل بالسياسة".

أحياناً يدخن الغليون طيلة المساء، وأحياناً يقوم بلف شعره على إصبعه وهو يحكي عن عمله.

كانت قدرة ليون على الإصغاء كبيرة وغير محدودة. يعرف كيف يصغي إلى الحديث عن أعمال الآخرين بمنتهى الانتباه، حتى وهو مستغرق في التفكير بنفسه بعمق.

بعد ذلك تحضر شقيقة ليون حاملةً الشاي. هي وأمّه علّمتا بافيزي أن يقول بالروسية: "أحبّ الشاي مع السكر والليمون".

عند منتصف الليل يأخذ بافيزي شاله عن المشجب، يلفه حول رقبته، ثمّ يأخذ المعطف ويمضي للسير في شارع فرنسا، طويلاً، شاحباً، صلب الكتف، مع ياقةٍ مرفوعة، والغليون مطفأ بين أسنانه البيضاء والمتينة.

ليون يبقى واقفاً جوار الرفوف. يسحب كتاباً ويتصفحه، يقرأ، كأنما بعشوائية، لوقت طويل، وهو مقطّب الحاجبين. يبقى على هذه الحال، يقرأ عشوائياً، حتى الثالثة.

بدأ ليون بالعمل مع ناشرٍ هو صديق له. كانوا فقط هو والناشر وأمين المستودع وضاربة الآلة الكاتبة التي تدعى السنيورة كوبّا. الناشر كان شاباً،

ورديّاً، خجولاً، وغالباً ما يحمّر وجهه. ومع ذلك، حين ينادي ضاربة الآلة الكاتبة، تخرج منه صرخة مدويّة:

"كوبّاااااا".

حاولوا إقناع بافيزي بالعمل معهم، فرفض قائلاً:

"لا يعنيني ذلك".

تعوّد القول: "لا أحتاج راتباً. ليس عليّ مساعدة أحد. بالنسبة إليّ يكفيني صحن من الحساء والتبغ".

لقد عمل مدرساً احتياطياً في ثانوية وكسب القليل إلا أنه اكتفى به.

بعد ذلك قام بالترجمة عن الإنكليزية. ترجم رواية *Moby Dick*. قال إنه ترجمها لمتعته الخاصّة. لقد دفعوا له لقاء ترجمتها، إلا أنّه كان ليفعل ذلك دون مقابل، حتى إنه امتلك الاستعداد أن يدفع هو مقابل أن يترجمها.

كتب الشعر. قصائده جاءت بإيقاع طويل، بطيء، وكسول. نوع من الترانيم المريرة. فضاء قصائده كانت تورينو، نهر Po، التلال، الضباب، وحانات الضواحي العتيقة.

أخيراً أقنعوه أن يدخل هو أيضاً للعمل مع ليون في دار النشر الصغيرة تلك.

أصبح موظفاً ملتزماً، دقيقاً، يتذمّر في وجه الاثنين الآخرين إن تأخّرا صباحاً، أو ذهبا للغداء عند الساعة الثالثة. لقد التزم هو بتوقيت مختلف؛ يحضر باكراً ويغادر عند الواحدة تماماً. في الواحدة تكون شقيقته التي يعيش معها قد وضعت الحساء على المائدة.

ليون والناشر، كانا يتشاجران أحياناً. يكفّان عن التحدث إلى بعضهما بعضاً لبضعة أيام. ثمّ يكتبان رسائل طويلة يتصالحان إثرها. بافيزي "لم يعنه ذلك".

السياسة كانت شغف ليون الحقيقي. رغم ذلك امتلك، إضافةً إلى ذلك الاهتمام الجوهري، اهتمامات أخرى؛ الشعر، علوم اللغة والتاريخ.

يتحدث الإيطالية كالروسية لأنه جاء إلى إيطاليا طفلاً. في المنزل يتحدث الروسية دائماً مع شقيقته وأمه اللتين قلّما تخرجان وتريان أحداً، فيتكفل هو بأن يروي لهما تفاصيل كل ما يقوم به وكل من يلتقيهم.

قبل ذهابه إلى السجن أحبّ التردد على الصالونات. كان متحدثاً لامعاً رغم التأتأة الطفيفة. ورغم استغراقه الدائم في التفكير والقيام بأمور جادة إلا أنه كان متأهباً لمتابعة ثرثرات الناس العقيمة بسبب فضوله تجاه الناس، وقد تمتع بذاكرة قوية تستوعب حتى أكثر الأشياء عديمة الجدوى.

لكن بعد عودته من السجن ما عادوا يدعونه إلى الصالونات، بل إنّ الناس باتوا يتجنبونه لأنه صار معروفاً في تورينو كمتآمر خطِر. لم يكترث لذلك قطّ، وبدا أنه نسي أمر تلك الصالونات تماماً.

تزوجنا، ليون وأنا، وذهبنا للعيش في بيت في شارع باللاماليو.

عندما أبلغت أمّي والدي بأنّ ليون يرغب في الزواج مني ثار غضبه المعتاد، والذي يظهر في كلّ مناسبة يتزوج فيها أحدنا. لم يقل هذه المرة إنّه سيئ. قال:

"لا يملك وظيفةً آمنة".

في الحقيقة لم يمتلك ليون وظيفةً آمنة، بل كان في وضعية غير مستقرة أبداً. يستطيعون اعتقاله وإعادته إلى السجن. يستطيعون، تحت أي ذريعة، إرساله إلى المنفى. إن انتهت الفاشية سيغدو ليون سياسياً عظيماً، قالت أمّي. من ناحية أخرى كانت دار النشر الصغيرة التي يعمل بها ما تزال صغيرة وفقيرة رغم ثرائها بالطاقات الواعدة.

قالت أمّي:

"يطبعون أيضاً كتب سالفاتوريللي".

لاسم سالفاتوريللي وقعٌ سحريّ عند والديّ. ذلك الاسم يجعل والدي رحيماً ومستكيناً.

تزوجتُ، وبعد زواجي مباشرة صار أبي يقول حين يتحدث عني إلى غرباء: "ابنتي غينزبرغ". فهو دوماً على أهبة الاستعداد لتحديد تغيرات الأوضاع، ويمنح في الحال كنية الزوج للمرأة التي تتزوج. كان لديه مساعدان، رجل وامرأة، أوليفو وبورتا. تزوّج أوليفو من بورتا لاحقاً وواصلنا تسميتهما أوليفو وبورتا، ما أثار غضبه: "لم تعد بورتا. عليكم القول أوليفو".

***

في معركة في إسبانيا توفي ابن جيوا. ذلك الفتى الشاحب صاحب العينين السماويتين، الذي بقي دوماً مع ماريو في باريس. والده في سجن شيفيتافيكيا صار تحت خطر التعرّض للعمى جراء إصابته بالتراخوما.

لطالما جاءت السيدة جووا لرؤية والدتي. لقد تعرفتا إلى بعضهما في منزل باولا كارّارا وصارتا صديقتين. ألغيتا الصيغة الرسمية في المخاطبة فيما بينهما، ومع ذلك واصلت والدتي مناداتها "السيدة جيوا" لأنها بدأت معها بهذه الطريقة وقد صعب عليها التغيير.

السيدة جيوا كانت تأتي رفقة ابنتها ليزيتّا، وهي أصغر مني بنحو ست سنوات.

ليزيتّا هي نسخة طبق الأصل عن شقيقها رينزو؛ طويلة، نحيلة، شاحبة، منتصبة القامة، بعينين برّاقتين، بشعر قصير وخصلة متدلية على جبينها. ذهبنا معاً على الدرّاجة، وأخبرتني أنها أحياناً تلتقي صديقاً قديماً لأخيها رينزو، من أيام ثانوية آزيليو، وأنه يجيء لرؤيتها ويعيرها كتب كروتشه، وأنه فائق الذكاء.

هكذا سمعتُ الحديث عن بالبو لأول مرة. أخبرتني ليزيتّا إنه كان كونتاً. وفي إحدى المرات، في الطريق في شارع أومبيرتو، أشارت لي إليه؛ صغير الحجم بأنف أحمر. بعد سنوات كثيرة سيغدو بالبو صديقي المفضل، إلا أنّ ذلك لم يخطر ببالي حينها. نظرت دون أدنى اكتراث إلى ذلك الكونت الصغير الذي يعير كتب كروتشه إلى ليزيتّا.

في شارع الملك أومبيرتو رأيت في بعض الأحيان فتاة تبدو بغيضة وفائقة الجمال، بوجه برونزي منحوت، أنف روماني صغير وحاد، وعينين نصف مغمضتين، وخطوات بطيئة متغطرسة. سألت ليزيتّا إن كانت تعرفها. "تلك" قالت لي ليزيتّا: "إنها واحدة من آزيليو، بارعة جداً في الجبال وتوليها أهمية كبرى". "إنها بغيضة" قلت: "بغيضة وجميلة جداً". الفتاة البغيضة عاشت في شارع متفرع من الشارع الرئيس في طابق أرضي، وكنت أراها أحياناً في الصيف تطل من النافذة، وتنظر إليّ بعينيها نصف المغمضتين وشفتين

مكشرتين بقرف، وشعرها البني مقصوص ويغطي مثل ورقتين خديها البرونزيين، وتعابيرها مملة وغامضة.

ليزيتّا قالت: "إنها حقاً ذات وجه متعجرف".

لسنوات كثيرة، وأنا بعيدة عن تورينو، حملت في داخلي صورة ذلك الوجه المتعجرف. وحين أخبروني لاحقاً أن ذات "الوجه المتعجرف" صارت موظفة في دار النشر، وأنها عملت مع بافيزي والناشر، بقيت مذهولةً من أنّ فتاة بكل تلك الغطرسة والتكبّر دفعت بنفسها واندسّت بين أناس بمنتهى التواضع وقريبين منّي. لاحقاً علمت أيضاً أنها اعتقلت ضمن مجموعة من المتآمرين ما زاد ذهولي. لكن توجّب أن تمضي سنوات قبل أن نلتقي كثيراً، وقبل أن تصبح "ذات الوجه المتعجرف" أغلى صديقةٍ بالنسبة إليّ.

بالإضافة إلى كتب كروتشه قرأت ليزيتّا روايات سالغاري. كانت حينئذ في الرابعة عشرة من العمر، السنّ الذي يتأرجح فيه المرء بلا هوادة بين النضج والطفولة. كنتُ قد قرأت روايات سالغاري ونسيتها. ليزيتّا صارت تحكيها لي عندما نركب الدراجات فوق العشب، وعندما نجلس لنستريح في الحقل. في أحلامها وأحاديثها خلطت المهراجا الهندية، السهام المسمومة، الفاشيين، وذلك الكونت الصغير المسمّى بالبو الذي يجيء يوم الأحد حاملاً إليها كتب كروتشه، وأصغيتُ إليها بأذنين مستمتعتين ومشتتتين في الآن ذاته. بالنسبة إليّ لم أكن قد قرأت لكروتشه شيئاً باستثناء *La letteratura della Nuova Italia* [أدب إيطاليا الجديدة]، أو بالأحرى فإنني في *La letteratura della Nuova Italia* قرأت ملخصات الروايات والاقتباسات. ومع ذلك، في الثالثة عشرة، كتبتُ إلى كروتشه رسالةً، وأرسلت إليه بعض قصائدي. وقد أجابني بمنتهى الدماثة، موضحاً لي بأدب فائق أنّ قصائدي ليست بالغة الجمال. لقد حرصتُ ألا تعرف ليزيتّا بجهلي لكتب كروتشه لأنني لم أرغب أن يخيب أملها نظراً إلى التقدير الذي منحتني إياه. إلا أن الفكرة التي منحتني الراحة هي أنني إن لم أكن قد قرأت كروتشه فإن ليون قد قرأ نتاجه كلّه، من الدفّة إلى الدفّة.

***

لم يبدُ أن الفاشية ستنتهي قريباً. بل بدا أنها لن تنتهي أبداً.

لقد قُتل الأشقاء روسيللي في بانيولي ديل أورني.

لسنوات امتلأت تورينو باليهود الألمان الهاربين من ألمانيا. بعضهم عملوا لدى أبي في مختبره كمساعدين.

كانوا بلا مأوى. ربّما نصير نحن أيضاً بلا مأوى بعد بعض الوقت، ونرغم على التنقّل من بلد إلى آخر ومن مركز شرطة إلى آخر، دون عمل ولا جذور ولا عائلات ولا بيوت.

***

سألني ألبيرتو بعد زواجي ببعض الوقت:

"هل تشعرين الآن بعدما تزوجت بأنك أكثر ثراءً أو أكثر فقراً؟".

"أكثر ثراءً" قلت.

"أنا أيضاً. الفكرة هي أننا بالعكس من ذلك، نحن أكثر فقراً بكثير!".

اشتريت أشياء للأكل، ووجدت أن كل شيء رخيص الثمن. ذهلت لأنني أسمع دوماً أن الأسعار مرتفعة. فقط، أحياناً، مع نهاية الشهر كنت أجد نفسي مفلسةً وقد أنفقت مرغمةً آخر ثلاثين سنتاً أملكها.

الآن صرت أسعد حين يدعونا أحدهم إلى الغداء. حتى لو لم يكن من الأشخاص الذين يعجبونني. أسعد أن أتناول لمرّة طعاماً مجانياً وغير متوقّع دون أن أفكر فيه أو أشتريه، ودون أن أشاهده يطهى.

صار عندي امرأة تدعى مارتينا. إنها لطيفة جداً، ورغم ذلك فكرتُ:

"من يدري إن كانت تجيد التنظيف؟ من يدري إن كانت تمسح الغبار جيداً؟".

بمحصلة عدم خبرتي لم أستطع أن أحدد إن كان بيتي يعتبر نظيفاً أو لا.

حين أذهب لرؤية باولا وأمّي أرى في منزليهما ملابس معلقة في غرفة الكيّ بعدما نظّفت بالفرشاة وأزيلت عنها البقع بواسطة البنزين، فأتساءل حالاً قلقةً: "هل تنظف مارتينا ملابسنا بالفرشاة وتزيل عنها البقع؟!" في مطبخنا

يوجد فرشاة وزجاجة بنزين مغلفة بقطعة قماش. لكن تلك الزجاجة بقيت دوماً مليئة، لم أرَ مارتينا تستعملها مطلقاً.

رغبت أحياناً القول لمارتينا أن تقوم بتعزيل البيت، كما رأيتهم يفعلون في بيت أمّي حين تعصب ناتالينا رأسها كالقرصان، وتقوم بقلب الأثاث رأساً على عقب وتنفضه بمضرب السجاد. لكنني لم أجد اللحظة المناسبة لإعطاء الأوامر لمارتينا. كنت أخجل من مارتينا، وبالمقابل كانت هي خجولة للغاية ووديعة.

حين ألاقيها في الممر أتبادل معها ابتسامات عطوفة طويلة. لكنني أؤجل من يوم إلى آخر اقتراح القيام بتعزيل كبير. لم أتجرأ على إعطائها أيّة أوامر. أنا التي كنت صبيةً في بيت أمّي أطلق أوامري دون اكتراث معبّرة عن رغباتي في كل لحظة. تذكرت أنني في العطلات في الجبل، وبسبب عدم وجود الحمّام، كنت أحمل إلى غرفتي كل صباح دلاء وأباريق من الماء الساخن، فأغتسل في غرفتي في حوض صغير. نصحنا أبي أن نغتسل بالماء البارد، لكن أحداً منّا، باستثناء أمّي، لم يتعوّد الاغتسال بالماء البارد، بل إننا، نحن الأبناء، منذ طفولتنا كرهنا الماء البارد بدافع الاعتراض. الآن أنا منذهلة لامتلاكي القدرة على إرغام ناتالينا على إعادة تسخين الماء فوق موقد الحطب، وصعود السلالم مع تلك الدلاء الكبيرة. مع مارتينا لم أمتلك جرأة الطلب إليها أن تحضر لي حتى كأس الماء. بعد زواجي عرفت فجأة العمل والإرهاق ولم أعد أملك الطاقة حتى الفكرية على التشدد حيال الأشخاص المحيطين بي. لذا ما عدت أحلم من حولي سوى بالخمول التام. مع مارتينا بتّ حريصة ألا أطلب منها على الغداء غير الأطباق سريعة التحضير التي لا تتسبب إلا باتساخ القليل من الأواني. اكتشفتُ المال أيضاً. ليس لأنني صرت بخيلة – لقد كنت دوماً، مثل أمّي، صاحبة كفّ مثقوبة – لكنني بتّ أفهم المال أكثر وأجد في حضوره وراء الأشياء مشقّةً وتعقيداً مرهقاً، وأنّ ثلاثين سنتاً تملك الأثر أن تنقل أحد ما إلى وجهة مجهولة. بسبب ذلك أيضاً خامرني الشعور بالتعب والكسل والخمول. رغم أنني لم أكفّ، حين يتوافر المال بمتناول يدي، أن أنفقه على الفور نادمةً في الحال لإنفاقه.

في مراهقتي حظيتُ بثلاث صديقات. في العائلة أطلقوا على صديقاتي اسم "اللعوبات". "اللعوبات" في لغة أمّي تعني الفتيات الغنّوجات اللواتي يرتدين الملابس المزركشة. لم أجد أن صديقاتي كثيرات الغنج، كما لا يرتدين الملابس المزركشة. لكن أمّي أسمتهنّ كذلك مشيرة إلى طفولتي وإلى بعض الطفلات الغنوجات بالملابس المزركشة اللواتي اعتدن اللعب معي. "أين ناتاليا؟"، "إنها مع رفيقاتها اللعوبات" قيل دوماً في العائلة. هنّ صديقاتي من أيام المدرسة، ومعهن أمضيت نهاراتي قبل أن أتزوج. كنّ فقيرات. وربّما من الأشياء التي جذبتني إليهن هو تحديداً الفقر الذي لم أعرفه ورغبت في التعرف إليه. بعدما تزوجت واصلت رؤية أولئك الفتيات الثلاث ولكن بنسبةٍ أقل، تاركةً الأيام والأيام تمضي دون أن أبحث عنهن، وهو ما اعتدن تأنيبي عليه، مع الاستيعاب أن الأمر محتوم أن يكون بهذا الشكل.

اثنتان من أولئك اللعوبات هما شقيقتان. عاشتا وحيدتين مع أب عجوز كان ثريّاً جداً فيما مضى ثم بات مفلساً. يتعامل مع محامين بشأن قضيته، ويبقى منغمساً دوماً بكتابة مذكرات طويلة، ويتنقل جيئة وذهاباً بين تورينو وساسّي، ساسّي وتورينو، ولا يزال لديه في ساسّي ملكية صغيرة. يطبخ أطباقاً يهودية معقدة لا تعجب بناته. ذلك الأب العجوز عاش جهلاً مطلقاً حيال ما تقوم به ابنتاه اللتان، رغم ذلك، لم تفعلن ما هو غير معتاد. لقد أوجدتا نظاماً للحياة في ظل سلطة مثيرة للشفقة لا تعدو كونها بعض الجئير العرضيّ وصياح ليس له أدنى وزن. كانتا فتاتين طويلتين، جميلتين، سمراوتين، متألقتين. إحداهما كسولة ودائمة الاستلقاء في السرير، والأخرى مفعمة بالطاقة ومشاكسة. الكسولة عاملت والدها بنفاد صبر مع الود، بينما الأخرى عاملته بنفاد صبر وازدراء.

تلك الكسولة كانت لها عينان عربيتان طويلتان، شعر أسود مجعد وناعم، وينحو جسدها نحو البدانة، تعشق الحليّ والأقراط، ورغم ادعائها الاستياء من بدانتها إلا أنها لم تفعل شيئاً على الإطلاق لمحاربتها، بقيت رائقة وسعيدة في جسدها الممتلئ. اعتادت القول عن نفسها، مع ابتسامة تكشف عن أسنانها الناصعة الكبيرة البارزة فوق شفتها: "غجرية وجميلة رغم ذلك". الأخرى كانت

نحيلة وترغب في المزيد من النحول، في المرآة تتفحص بقلق ساقيها الصلبتين كعمودين، لأن نحولها الذي حققته بقوّة الإرادة منحها وركين متينين وقامة صلبة متغطرسة. إن واعدت فتىً قريباً لقلبها فإنها تمتنع عن تناول الغداء، أو تكتفي بأكل تفاحة فقط، لأنها تصنع ملابسها بنفسها وتجعلها ضيقةً جداً، فتخشى أن تتمزق إن هي تناولت وجبة كاملة. لقد أولت تلك الملابس اهتماماً بالغاً، وصنعتها بدقة وعصبية مع جبين مقطّب وفم مليء بالدبابيس. رغبت أن تكون بسيطة ورصينة قدر المستطاع. وكرهت في شقيقتها، إضافة إلى السمنة، جنوحها لارتداء الحرير المبهرج.

تعوّد الأب، في كل مرّة يخرج فيها، أن يترك على طاولة المطبخ رسائل طويلة هي عبارة عن فرمانات مكتوبة بخط يده المدبب والمائل مماثلاً لخطوط الوثائق، ضد الخادمة "التي استقبلت خطيبها بنصف بطيخة ضائعة عثرتُ عليها هذه الليلة"، أو ضدّ فلاحة من ساسّي تركت بعض الأرانب "الصغيرة واللطيفة" تموت بسبب الإهمال، أو ضدّ إحدى الجارات التي قلّلت التهذيب بسبب بطانية لهم طلبت استعارتها وأعادتها محروقة "لقد وبّختها ولم تملك كلمةً واحدة للدفاع".

الفتاتان كانتا تتردّدان على اللاجئين اليهود الألمان، وتشاركانهم الأطباق القاتمة التي اعتاد الأب طهيها وتركها في المطبخ في قدور سوداء كبيرة. التقيتُ في بعض الأحيان في منزلهم بأولئك الطلاب الذين يعيشون أيامهم دون معرفة ما الذي سيفعلونه في الشهر المقبل، هل سينتقلون إلى فلسطين أو سينضمون إلى أقارب لا يعرفونهم في أميركا. بقي سحره راسخاً عميقاً عندي ذلك البيت المفتوح دوماً للجميع، مع الممر الضيق المعتم حيث يتعثّر المرء بدرّاجة الأب، والصالون الصغير المليء بالأثاث الفخم البالي، المصابيح اليهودية الصغيرة، التفاح الأحمر القادم من ساسّي، والسجاد المهترئ المفروش على الأرض. كنا نلتقي أحياناً الأب العجوز على الدرج أو في الممر، دوماً مستغرق في العمل مع المحامين وبأوراق الضرائب، ومنهمك على الدوام بنقل السلال المليئة بالتفاح والفليفلة على الدرج صعوداً ونزولاً. وقد اعتاد تسليتنا بقضيته في بيدمونت وهو يمسح لحيته الشائبة الشعثاء، ويجفف

تحت القبعة جبيناً نبيلاً لنبيّ عجوز، بينما ابنتاه، بنفاد صبر، تطلبان إليه الذهاب إلى غرفته.

تناوبت على ذلك البيت عادةً نسوة من الخدم، أشباح وحمقاوات، واللواتي رغم ذلك لم يسمح لهنّ بالطهي لأنّ الأب أراد أن يهيمن وحده على الطعام، وبما أنه لم يسمح لهن بتنظيف الصالون الصغير خشية أن يكسرن المصابيح اليهودية أو يسرقن التفاح، فلم يكن واضحاً لنا ما الذي يجئن لفعله. ومن ناحية أخرى فقد تمّ طرد كلّ منهنّ بعد أسابيع واستبدالها بأخرى لا تقل حماقة وشبحية.

البيت كان يقع في شارع غوفيرنولو. دُمّر خلال الحرب. ذهبت لرؤيته عند عودتي إلى تورينو بعد الحرب، ولم أرَ غير كومة من الأنقاض في الفناء. والأدراج التي تعوّد الأب أن يصعدها وينزلها مع الدرّاجة أو السلال، وجدتها مدمّرة لم يبقَ منها سوى الدرابزين. توفي الأب قبل زمن طويل، خلال الحرب، ولكن قبل الاحتلال الألماني. مرض قبل ذلك ودخل مستشفى يهودياً حاملاً معه دجاجةً، آملاً أن يسمحوا له بالطهي. لقد توفي وحيداً لأن ابنتيه كانتا؛ الأولى في أفريقيا حيث تزوجت، والأخرى، المشاكسة، في روما حيث تدرس القانون.

صديقتي الأخرى، واسمها ماريسا، عاشت في شارع الملك أومبيرتو، ولكن في آخره، عند النقطة التي ينتهي إليها الشارع بمستديرة معشّبة حيث تنتهي الطرق وتوجد محطة الترام. كانت جميلة ولطيفة، ولم تفعل شيئاً سوى التدخين وحياكة القبعات الصغيرة الجميلة لنفسها، والتي بعد ذلك تعتمرها بامتنان كبير على رأسها الأحمر والمجعد الشعر. لقد صنعت البلوفر أيضاً. ”صنعتُ لنفسي بلوفر جميلة“ تقول وهي تلثغ أثناء النطق. لقد امتلكت مجموعة كبيرة من تلك ”البلوفرات الجميلة“ ذات القبّة المرتفعة، والتي ارتدتها تحت معطف من جلد الجمل. عاشت طفولتها في ثراء. أقامت في منتجعات صحية وفنادق فخمة. كانت ترقص، وهي لا تزال طفلة تقريباً، في المنتجعات الشاطئية. تعرّضت عائلتها بعد ذلك لكارثة اقتصادية، واحتفظت

هي، عن تلك الحياة القريبة ولكن البعيدة في آن، بذكرى عاطفية وساخرة خالية من أي أثر للمرارة أو الندم. كانت كسولة، واثقة، وجديّة.

أثناء الاحتلال الألماني صارت ماريسا رفيقةً وأظهرت شجاعةً استثنائية لم يتخيل أحد وجودها عند الفتاة التي عرفت دوماً بكسلها وهشاشتها. بعد ذلك أصبحت مسؤولةً في الحزب الشيوعي، كرّست حياتها للحزب لكنها بقيت في الظلّ لأنها كانت زاهدة بأي طموح، بسيطة، متواضعة، وسخية. انهمكت فقط بمسائل الـpartito [الحزب]، وكانت تقول "il pavtito" مع تلك اللثغة بحرف الراء، وتقول ذلك باللكنة الجدية الواثقة ذاتها التي قالت فيها: "صنعت لنفسي بلوفغ [بلوفر] جميلة". لم تتزوج مطلقاً لأنّ أيّ رجل لم يتطابق مع فكرتها عن الرجل المثالي التي تمسكت بها طوال الوقت. رجل لم تعرف كيف تصفه إلا أنّ أوصافه في مخيلتها كانت جليّة دون لبس.

صديقاتي الثلاث أولئك كنّ يهوديات. بدأت الحملة العنصرية ضد اليهود في إيطاليا، لكنهن، وبحكم ارتباطهن بيهود أجانب فقد أعددن أنفسهن لمستقبل مجهول. وقد كنّ من ناحية أخرى مرتاحات بما يكفي لأن يتقبلن موقفاً مماثلاً دون أدنى أثر للذعر.

لقد ذهبنا، أنا وإياهن، إلى الجامعة. وباستثناء تلك المفعمة بالطاقة والمشاكسة، درسنا جميعاً بعشوائية ودون التزام.

بالنسبة إلى العجوز، والد صديقتيّ بنات شارع غوفيرنولو، فقد تلقى مع بداية الحملة العنصرية وثيقةً كتب فيها:

"الإشارة إلى الأوسمة والتقديرات الفخرية والإنجازات الخاصة"

فأجاب:

"انتسبت في العام 1911 إلى نادي rari nantes وغصتُ في نهر Po في الشتاء...

لقاء أعمال منجزة في منزلي تمّ تعييني من قبل المهندس كاسيللا رئيساً للعمال".

بخلاف غيرتها الدائمة من صديقات باولا لم تشعر أمّي بالغيرة من صديقاتي. لم تعانِ حين تزوّجْتُ بينما عانت وبكت عند زواج باولا. علاقة أمّي معي لم

تكن نديّةً بل علاقة أمومة واحتضان. لم تفتقدني في البيت، ربّما يعود الأمر بعض الشيء لأنها كما قالت دائماً: "لم تقيدني قطّ"، وربّما أيضاً لأنها غدت متقدمة في السن، وصارت قابلةً بالفراغ الذي يتركه الأبناء حين يغادرون. لقد كتمت ودافعت عن حياتها بطريقة لا تشعر معها بصدمة كبيرة جراء ذلك الانفصال.

***

بدا أنّ المتفائلَين الوحيدَين في العالم هما أدريانو ووالدتي. متجهمة في صالونها الصغير بقيت باولا كارّارا تدعو سالفاتوريللي كلّ مساء منتظرةً، عبثاً، كلمات الأمل منه. لكن سالفاتوريللي بدا مكفهراً. الجميع آنذاك ازدادوا اكفهراراً وكآبة، كلمات الأمل بقيت مكتومة، ومن حولهم عمّ خوف مدلهم.

رغم ذلك علم أدريانو "عبر أحد مخبريه" أن حياة الفاشية قصيرة. فرحت أمّي وهي تستمع إليه وصفّقت، لكنها اشتبهت في بعض الأحيان أن يكون ذلك المخبر الشهير، في الحقيقة، عرّافاً. لقد تعود أدريانو استشارة العرّافين، وفي كلّ مدينة يذهب إليها يجد واحداً. يقول إنّ بعضهم في غاية المهارة، وقد أصابت تخميناتهم له حول أشياء من الماضي، وأنّ بعضهم "يقرؤون الأفكار". لقد وجد أدريانو أنه من الطبيعي أن يقوم الناس "بقراءة الأفكار". إن قال أمراً يعرفه أبوه وسأله كيف عرف ذلك، يجيب بهدوء "إنه يقرأ الأفكار". لطالما استقبلت أمي أدريانو بفرح كبير، لأنها أحبته ولأنها دوماً انتظرت منه أخباراً تغذّي تفاؤلها. وقد تعوّد أدريانو، للحقيقة، أن يتنبأ لنا جميعاً بمصائر وحظّ طيّب. لقد قال إن ليون سيصبح رجل حكومة عظيمَ الشأن. "ما أجمل ذلك!" قالت أمي وهي تشبك كفيها، وكأن الأمر قد وقع فعلاً. "سيصبح رئيس حكومة!". "وماريو؟" قالت: "ماذا سيصبح ماريو؟". مخططات أدريانو حول ماريو بقيت متواضعة. لم يشعر بتعاطف كبير مع ماريو، وقال عنه إنّ روحه انتقادية بشكل كبير. وهو أيضاً رأى أنّ ماريو ارتكب خطأ بانفصاله عن مجموعة روسيللي. وربما حمل له أيضاً شيئاً من الضغينة في أعماقه لأنه، قبل سنوات كثيرة،

عمل في المصنع ليتآمر حالاً ويعتقل ويهرب. ”وجينو؟ وألبيرتو؟“ تواصل أمّي السؤال، وأدريانو يواصل التنبؤ بصبر.

والدتي لم تؤمن بالعرّافين، ومع ذلك كانت كلّ صباح، وهي تشرب القهوة برداء النوم في غرفة الطعام، تقوم بقراءة الحظ بواسطة ورق اللعب قائلةً: ”لنرَ إن كان ليون سيغدو رجلاً ذا شأن في الحكومة“، ”لنرَ إن كان ألبيرتو سيصير طبيباً عظيماً“، ”لنرَ إن كان أحد ما سيهديني كوخاً“؛ لم يُفهم من الذي عليه أن يهديها كوخاً، ليس أبي بالطبع، الذي تزايد قلقه بشأن المال دوماً وبدا له الآن بعد أن حلّت الحملة العنصرية أنه لا يملك إلا القليل جداً. ”لنرَ إن كانت الفاشية ستستمرّ لبعض الوقت“ تقول أمّي وهي تخلط أوراق اللعب وتهز شعرها الشائب الذي بقي دوماً في الصباح مبللاً بالماء، وتسكب المزيد من القهوة.

مع بداية الحملة العنصرية غادر آل لوبيز إلى الأرجنتين. كل اليهود الذين عرفناهم غادروا، أو أنهم يستعدون للمغادرة. نيكولا، ابن ليون، هاجر مع زوجته إلى أميركا حيث لهما هناك عمّ هو العمّ خان. عمّ عجوز لم يسبق لهما أن رأياه وجهاً لوجه لأنه غادر روسيا مذ كان صغيراً. تحدثنا أنا وليون أيضاً في بعض الأحيان عن الذهاب إلى أميركا ”عند العمّ خان“. لقد أسقطوا عنّا، أنا وهو، جوازات السفر. جرّد هو من جنسيته الإيطالية وصار بلا جنسية. ”يمكننا الحصول على جواز نانسين“ كنتُ أقول دوماً: ”يمكننا الحصول على جواز نانسين“؛ وهو جواز سفر خاص مُنِحَ لبعض الأشخاص المهمين الذين لا يحملون جنسية. لم يذكر ذلك هو إلا مرة واحدة. بدا لي الحصول على جواز نانسين أجمل شيء في العالم. لكن في العمق، لم نرغب، لا أنا ولا هو، في مغادرة إيطاليا. لقد تلقّى هو، حين كان ما يزال بإمكانه المغادرة، عرضاً للعمل في باريس ضمن المجموعة التي انتمت إلى روسيللي. رفض ذلك. لم يرغب في أن يصبح مهاجراً أو منفياً.

مع ذلك فكّرنا كم هم أناس رائعون ومذهلون المنفيون في باريس، وبدا لنا مدهشاً وجود بعضهم هناك بحيث نستطيع أن نلتقيهم في الشارع، نلمسهم، نصافحهم. أنا لم أرَ ماريو منذ سنوات ولا أعلم متى أتمكّن من رؤيته، إنه أيضاً

جزء من هذا الحشد الرائع. وكان هناك غاروستشي، لوسّو، كياروموننتي، وكافي. باستثناء كياروموننتي الذي التقيته مع باولا على البحر، لم أعرف الآخرين مطلقاً. "كيف يبدو غاروستشي؟" كنت أسأل ليون. باريس هناك، ليست بعيدة جداً، أفكر وأنا أسير على طول شارع فرنسا؛ إنها هناك خلف الجبال، خلف ذلك الحجاب من الضباب السماوي. مع ذلك فرّقتنا الهاوية عن باريس.

بالتوازي مع ذلك بدا لنا أولئك المذهلون بعيدي المنال كأنهم في سجن؛ باور وروسّي، فينشيغويرّا، فيتّوريو، بدوا دوماً أبعد، بدا أنهم يغرقون دوماً في مسافةٍ تزداد قتامة، تشبه المسافة التي تفصلنا عن الموتى. هل من المعقول أن فيتّوريو في الماضي القريب كان يسير في شارع الملك أومبيرتو مع ذقنه البارز؟ هل صحيح أننا لعبنا معه ومع ماريو لعبة الخضار والمعادن؟

***

والدي أيضاً فقد منصبه هو الآخر. دُعيَ إلى ليبج للعمل في أحد المعاهد. غادر ورافقته أمّي.

بقيت أمّي في بلجيكا لبضعة أشهر، شعرت بحزنٍ كبير وكتبت رسائل يائسة. ليبج دائمة المطر. "اللعينة ليبج" قالت أمّي: "اللعينة بلجيكا". من باريس كتب لها ماريو أنّ بودلير أيضاً لم يستطع احتمال بلجيكا. لم تحب والدتي بودلير كثيراً، شاعرها المفضل هو بول فرلان، غير أنها سرعان ما انساقت نحو بودلير بعاطفة كبيرة. عمل والدي في ليبج بشكلٍ جيد، وكان لديه أيضاً متدرب شاب يدعى كيفريمون.

"باستثناء كيفريمون وصاحبة البيت، لم أحب البلجيكيين" قالت أمّي عند عودتها إلى إيطاليا.

استأنفت حياتها المعتادة. تجيء لزيارتي. تذهب لزيارة ميراندا وباولا كارّارا، وتذهب إلى السينما. شقيقتي باولا أخذت شقّة في باريس، وصارت تمضي الشتاء هناك.

”الآن، بما أنني وحدي، وبيّنو ليس هنا، عليّ أن أقتصد“ توضح والدتي في كل لحظة وهي تشعر بالفقر: ”سآكل القليل، صحنَ حساء صغيراً، قطعة صغيرة من اللحم، حبّة فاكهة“.

كلّ يوم تتلو هذه القائمة. أظنّ أنها أحبّت القول ”حبّة فاكهة“ لأنها منحتها الشعور بالاعتدال. أما فيما يخص الفواكه فقد اعتادت دوماً شراء نوع محدد من التفاح يسمى في تورينو ”carpandue“ [كاربانداوي]. قالت ”إنه كاربانداوي“ كما كانت تقول عن الكنزة ”إنها من نويبرغ“، وعن المعطف ”إنه من عند السيد بيلوم“. وعندما يصدف أن يشتكي أبي من التفاح الذي حضر على المائدة لأنه وجده سيئاً تقول أمّي حالاً: ”سيئ؟ إنه كاربانداوي!“.

”من يدري لماذا أحب الإنفاق كثيراً!“ تتمتم والدتي أحياناً. في الحقيقة لم تكن قادرة على الالتزام بالنظام الاقتصادي الذي تضعه. صباحاً، في غرفة الطعام، تجري الحسابات مع ناتالينا بعد لعبة الحظ بالورق، وتتشاجران لأن ناتالينا أيضاً تحب الإنفاق ولديها كفّ مثقوبة. حين تطهو ناتالينا الطعام تصنع البعض منه، تقول أمي، لفقراء الرعية.

”بالأمس أعددتِ طبقاً من اللحم وكان بعضه أيضاً لفقراء الرعية“ تقول: ”إن صنعتُ القليل هو توبخينني، وإن صنعت الكثير هو توبخينني أيضاً. بالأمس هو أخبرتِني أنّ تيرسيلا سيأتي أيضاً“. تقول ناتالينا وهي تحرك شفتيها الغليظتين وتومئ كثيراً بذارعيها. ”كفّي عن التلويح بيديك. إن مريولك قذر، لمَ لا تغيرينه، كم من المراويل اشتريت لك، وبعضها عندك أيضاً لفقراء الرعية“.

”يا لليديا المسكينة!“ تتنهد أمّي بحسرة وهي تخلط أوراق اللعب وتسكب المزيد من القهوة. ”لقد صنعتِ لي القهوة مائعة، أما كان بإمكانك جعلها أثقل؟“. ”المكنة ليست جيدة. لو أنه اشتريتِ واحدةً أخرى. أنا قال لكم ذلك مئة ألف مرة. هذا المكنة ثقوبه واسعة جداً. القهوة ينزل منه بسرعة بينما عليه أن ينزل ببطء. وأنتم حساسون للقهوة“.

”كم أتمنى لو أنني ملك صغير“ تقول أمي متنهدة بحسرة ومبتسمة، لأن السلطة والطفولة هما من أكثر الأشياء التي أغوتها في العالم، لكنها أحبتهما مجتمعتين معاً؛ بهذا تخفف الثانية برحمتها تسلط الأولى، والأولى تثري الثانية

بالاستقلالية والمكانة. ”انظروا كم أصبحتُ ’كركمّة‘ قبيحة!“ تقول وهي تعتمر القبّعة أمام المرآة. قبّعة تضعها ببساطة فقط لأنها اشترتها وهي باهظة الثمن، وسوف تخلعها عند أول زاوية من الشارع.

”أحبّ كثيراً التفكير أنني شابّة. اليوم أبدو في الأربعين من العمر!“ تقول لناتالينا عند الباب. ”هو أكبر من أربعين، هو تقريباً في الستين لأنه أكبر من أنا بستة سنين!“ تقول ناتالينا ملوّحة بالمكنسة في تهديد، لأنها اعتادت دوماً التحدث بنبرة حماسية وبتعبير أقرب إلى التهديد. ”مع هذا المنديل“ تقول لها أمّي: ”أنت لا تبدين مثل لويس الحادي عشر، بل تبدين مثل جان بول مارا“ وتغادر المنزل.

تمرّ بميراندا. ميراندا كانت تتجوّل في البيت متعبةً، شمعيّةً، بشعرها الأشقر يغطي خديها، وتبدو كأنها ناجية من سفينة محطّمة.

”اغسلي وجهك بالماء المنعش وتعالي لنمشي“.

الماء العذب، بالنسبة إلى والدتي، هو علاج آمن ضد الكسل، الكآبة، وسوء المزاج. ”بالماء المنعش“ تردد عدّة مرّات في اليوم.

”أنفق القليل. أنا وناتالينا وحدنا ننفق القليل. صحناً من الحساء، قطعةَ لحم، حبّةَ فاكهة“ تتلو أمّي: ”لا أصدق أن تنفق القليل مبذرة مثلكِ!“ تقول ميراندا. وتقول: ”من أجل اليوم اشتريت دجاجة. أنا أرى أن الدجاج رخيص“. ميراندا تقول: ”الدجاج“ بنغمة خاصة وترنيمة متشدقة وأنف مرفوع، والتي تستخدمها حين تقارن عادات منزلها بعادات منزلنا، وعندما تمنحها المقارنة معنا شعوراً بالتفوق. ”طبعاً، عند واحدةٍ مثلك، طبعاً، ألبيرتو لن يشبع مطلقاً!“ تواصل ميراندا التي تقول دوماً كلمة ”طبعاً“ حين ترغب في مقارنة حالة بحالة مختلفة.

***

بقي والدي في بلجيكا لعامين. في تلك السنتين حدثت أشياءُ كثيرة.

في البدء ذهبت والدتي لرؤيته بين حين وآخر، لكن، علاوة على أنّ بلجيكا بعثت فيها الأسى، فقد خشيت دوماً أن تتسبب الأحداث الدولية ”بعزلها“ عن

إيطاليا وعني. شعرت أمّي حيالي بحالة احتضان لم تشعرها تجاه أبنائها الآخرين. ربّما لأنني الأصغر بين أبنائها. عندما ولد أطفالي احتضنتهم بالطريقة ذاتها أيضاً. ومن ناحية أخرى بدا لها دوماً أنني في خطر لأنهم يعتقلون ليون بين وقت وآخر. في كلّ مرة تصل فيها إلى تورينو شخصية سياسية أو ملك يعتقلونه تحسّباً. يبقونه في السجن لثلاثة أو أربعة أيام، ثمّ يطلقون سراحه حال مغادرة تلك الجهة. يعود ليون إلى البيت بخدين سوداوين ولحية، متأبطاً قطعة ملابس داخلية. "ملك لعين! ليبقَ في منزله قليلاً!" تقول أمّي. الملك عادة كان يبعثها على الابتسام، ولم تكرهه. أعجبها أن لديه ساقين قصيرتين معوجتين، وأنه كثير التجهم. لكنها استاءت أن يعتقل ليون في كل مرّة "بسبب هذا الوغد". أمّا الملكة هيلانة فلم تطقها. "غانية" كانت تقول بقصد ازدرائها: "فلاحة، غبية".

ولد طفلاي الأولان بفارق سنة واحدة بينهما، في الفترة التي أمضاها أبي في بلجيكا. أمّي تركت البيت مع ناتالينا وأتت لتقيم معي.

"ها أنا مجدداً في حي باللاماليو" قالت أمّي: "لكن باللاماليو يبدو لي الآن أقلّ قبحاً. ربّما لأنني أقارنه ببلجيكا. لييج أسوأ من حي باللاماليو". لقد أحبّت طفليّ كثيراً. "أحبّهما الاثنين ولا أعرف أيهما أختار!" تقول وكأن عليها اختيار واحد منهما. "اليوم، ذاك رائع الجمال" تقول، فأسألها: "أيّ منهما؟". "أيهما؟ من هو لي" تقول أمّي، وأواصل عدم الفهم أيّهما تقصد، فهي في كل لحظة تفضّل أحدهما على الآخر. أمّا بالنسبة لناتالينا فهي تقول "هي" عند حديثها عن أيّ من الطفلين، لأن الاثنين ذكران. تقول: "هي ليس عليها إيقاظه، سيستغرب أن توقظه. هي يجب أن تمضي معها ساعتين ليتعود".

بما أنني كنت أتعب مع هذين الطفلين، وناتالينا شديدة الإهمال وهوجاء لتعتني بهما، نصحتني أمي بالحصول على مربية. كتبت بنفسها لبعض المربيات القدامي في توسكانا واللواتي على علاقة بهن. وصلت المربية ولكن في الأيام التي غزا فيها الألمان بلجيكا، والتي شعرنا بها جميعاً بالغمّ وعدم الميل للإصغاء إلى احتياجات مربية من المآزر والتنانير ذات الأجراس. رغم قلقها بشأن أبي الذي لم تعرف أخباراً عنه وجدت أمي طريقة لشراء المآزر، وكذلك

لتفرح برؤيتها المربية التوسكانية العظيمة بتنورتها الواسعة تصدر خشخشة وهي تتجول في المنزل. بالعكس من ذلك، شعرت أنا في العمق بعدم الارتياح مع تلك المربية وأسفت لمارتينا القديمة التي عادت إلى قريتها في ليغوريا لأنها لم تتفق مع ناتالينا. شعرت بعدم الارتياح مع تلك المربية لأنني خشيت بشكل متواصل أن أفقدها، وأن تحكم علينا بسبب عاداتنا المتواضعة التي لا تلائمها. علاوة على أن المربية العظيمة، مع تلك المآزر المطرزة كلها والأكمام المنفوخة، ذكرتني باضطراب وضعي، وبأنني فقيرة، وأنني لولا مساعدة أمي ما كنت لأحصل على مربية. بدا لي أنني تماهيت مع شخصية نانسي في رواية *Divoratori* [الملتهمون] وهي تراقب من النافذة طفلتها تمشي بيد مربيتها الفارهة في الشارع، وتعلم في هذه الأثناء أنهم خسروا جميع أموالهم في الكازينو.

كنّا خائفين عند غزو بلجيكا، غير أننا على ثقة أنّ الزحف الألماني سيتوقف. في المساء نستمع إلى الراديو الفرنسي آملين أن نسمع بعض الأخبار المطمئنة. كربنا يتفاقم كلما تقدم الألمان. في المساء يأتي بافيزي لزيارتنا مع رونيتّا، وهو صديق لنا غالباً ما التقيناه في ذلك الوقت. رونيتّا كان فتى طويلاً، بوجه حيوي، يتحدث مع لثغة بحرف الراء، يعمل في صناعةٍ لا أعرف ماهيتها بالضبط، يسافر كثيراً ما بين تورينو ورومانيا. نحن الذين كنّا نعيش حياة مغلقة ومستقرة أحببنا فيه هيئته التي يبدو معها دوماً كأنه على وشك الصعود إلى القطار أو النزول منه. وربّما أدرك إعجابنا فراح يعزّز تلك الهيئة معنا. لعب قليلاً على كونه رجل الأعمال العظيم والرحّالة العظيم. خلال أسفاره جمع رونيتّا الأخبار. حتى غزو بلجيكا كانت أخباره ذات طبيعة متفائلة إلا أنها مع الغزو اصطبغت بتشاؤم بلون الحبر.

رونيتّا كان يقول إنّ ألمانيا قريباً ستجتاح ليس فرنسا وإيطاليا فقط بل العالم بأسره. حتى لا يبقى في العالم شبر واحد من الأرض قابل للحياة. قبل أن يغادر يسألني عن حال طفليّ، وأقول إنهما بخير. وهكذا قالت أمّي في إحدى المرات: "ما يهم أن يكونا بخير إن كان هتلر سيجيء عمّا قريب ويقتلنا جميعاً!". رونيتّا كان دوماً شديد اللباقة، وقد اعتاد تقبيل يد أمي قبل أن يغادر.

في ذلك المساء، قبل أن يقبل يدها أخبرها أن المرء بإمكانه دوماً الذهاب إلى مدغشقر ربّما. "لماذا مدغشقر تحديداً؟" سألت أمي. أجاب رونيّا أنه سيشرح لها ذلك في المرة القادمة لأنه الآن لا وقت لديه وعليه أن يلحق بالقطار. كانت أمي تثق جداً به، ومن ناحية أخرى، في تلك الفترة، وتجاه قلقها، فقد تلقفت كل كلمة يتلفظ بها الآخرون. في ذلك المساء وطيلة اليوم التالي بقيت تردد: "لكن لماذا مدغشقر تحديداً!".

***

رونيّا لن يملك الوقت ليشرح لنا. لن أراه بعد ذلك لعدة سنوات لاحقة. وليون، أعتقد أنه لم يره قطّ. أعلن موسوليني الحرب كما انتظرناه لعدة أيام. في الليلة ذاتها غادرت المربية، وراقبتُ بارتياح وأنا أتنفس الصعداء ظهرها العريض وهو يختفي أسفل الدرج دون لباس العمل، مرتديةً عباءة قطنية سوداء. جاء بافيزي لزيارتنا. ودّعناه مع فكرة أننا لن نراه لبعض الوقت. بافيزي كان يكره الوداع، وعندما غادر اكتفى كعادته بتحيتنا بإصبعين من كفه الصلبة.

في ذلك الربيع تعوّد بافيزي أن يأتي إلينا وهو يأكل الكرز. لقد أحبّ الكرز في بدايته، تلك الحبّات التي لا تزال صغيرة وماويّة، والتي لها، كما كان يقول "طعم الجنّة". نراه من النافذة وهو يظهر عند نهاية الشارع، طويلاً، بخطواته السريعة، يأكل الكرز ويقذف النوى على الجدران بحركة مفاجئة وسريعة. هزيمة فرنسا، بالنسبة إليّ، ستبقى مرتبطة دوماً بكرزاته تلك، التي يجعلنا نتذوّقها عند وصوله وهو يخرجها من جيبه واحدة تلو أخرى بكفّ مقتصدة صلبة.

***

ظننا أنّ الحرب ستقلب حالاً حياة الجميع رأساً على عقب. غير أنّه، ولسنوات كثيرة، واصل الناس القيام بما اعتادوا القيام به في بيوتهم دوماً. حتى ظنّ كلّ واحد في أعماقه أنه قد نجا مع القليل، وأنه لن تكون ثمّة اضطرابات من أي نوع، ولا منازل مدمرة، ولا هروب أو اضطهاد. فجأة انفجرت القنابل والألغام

في كل مكان وتهدّمت البيوت، وامتلأت الشوارع بالحطام والجنود واللاجئين. لم يعد هناك من يمكنه التغاضي عمّا يحدث، وأن يغمض عينيه ويسد أذنيه ويدفن رأسه تحت الوسادة. هكذا كانت هي الحرب في إيطاليا.

عاد ماريو إلى إيطاليا في 1945. ربّما كان متأثراً وكئيباً، لكنّه لم يُظهر ذلك، وقدّم لأمّي وهي تعانقه حنكه الساخر وجبينه البرونزي مجعداً بتجعيداتٍ ساخرة. لقد صار الآن أصلع تماماً، بقرعةٍ عارية ولامعة مثل البرونز، يرتدي سترة أنيقة مهترئة بعض الشيء، من الحرير الرمادي وتبدو كالبطانة، مماثلة لتلك التي تظهر في الأفلام يرتديها بعضُ أصحاب المتاجر الصينيين.

بات الآن يغضّن وجهه ويتخذ هيئة جدّية حين يؤيد أشخاصاً أو أشياء تبدو له جادّة، أو عندما يظهر تقديره لروائيين وشعراء جدد. يقول عن رواية: "جيدة، لا بأس بها، جيدة إلى حد ما" (يتحدث دوماً كما لو أنه يترجم عن الفرنسية). لقد هجر هيرودوت وكلاسيكيي اليونان، أو على الأقل ما عاد يتحدث عنهم. الروايات الجديدة التي صارت تحظى بتقديره، عموماً، هي روايات فرنسية عن المقاومة. لكنه بدا حذراً في تقديره، أو على الأقل أكثر حذراً في تعاطفه، لا يفتنه الموضوع بغتةً مرّة واحدة. مع ذلك لم يبلغ حذره الاستنكار والإدانة والحقد القديم والعنف غير المنضبط. لم تعجبه إيطاليا. بدا له كلّ ما فيها تقريباً سخيفاً، سطحياً، سيئ التصميم، سيئ البناء. "المدرسة في إيطاليا سيئة. في فرنسا أفضل. ليست مثالية في فرنسا، لكنها أفضل. تعلم أنه يوجد هنا الكثير من الكهنة، وكل شيء بيد الكهنة!".

"كم من الكهنة!" يقول في كل مرة يخرج فيها: "كم من الكهنة لديكم في إيطاليا! نحن في فرنسا نقطع أميالاً دون أن نلتقي كاهناً".

حكت له والدتي حقيقة ما حدث لابن إحدى صديقاتها قبل عدة سنوات، قبل الحرب، وقبل الحملة العنصرية حتى. هو طفل يهوديّ أدخله والداه مدرسةً عامّة، وطلبا إلى المعلم إعفاءه من الدروس الدينية. في أحد الأيام تغيّب المعلم، وحضر بديلاً عنه معلم لم يتم إخطاره بالأمر، ففوجئ مع بدء درس الدين بالطفل يأخذ حقيبته مستعداً للمغادرة. "لماذا تتحرك؟" سأل. "سأذهب" أجاب الطفل: "لأنني دوماً أذهب إلى البيت وقت درس الدين". "لماذا؟" سأل

المعلم البديل. ”لأنني لا أحبّ العذراء“. ”لا تحبّ العذراء!“ صرخ المعلم بذهول: ”أسمعتم يا أطفال؟ لا يحبّ العذراء!“. ”أنت لا تحبّ العذراء! أنت لا تحبّ العذراء!“ راح الصف كله يصرخ. اضطر الأبوان عندئذ إلى إخراج الطفل من تلك المدرسة.

أعجب ماريو بتلك الحكاية بشكل هائل. لم يكف عن الإعجاب بها دون حدود والتساؤل إن حدثت بالفعل؛ ”لا يصدّق“ يقول وهو يضرب ركبتيه بيديه: ”إنه شيء لا يصدق“.

سعدت والدتي أنّ قصتها أعجبته كثيراً، لكنها سئمت من سماعه يكرّر أن لا وجود في فرنسا لمثل هؤلاء المعلمين، ولا يمكن حتى التفكير في الأمر. كما استاءت من قوله دوماً: ”عندنا في فرنسا“، واستاءت أيضاً من حديثه ضدّ الكهنة. ”حكم الكهنة أفضل من الفاشية!“ تقول أمّي. ”إنه هو نفسه، ألا تفهمين أنه هو ذاته! إنه الشيء عينه“.

تزوج ماريو خلال سنوات الحرب التي لم نره فيها. خبر زواجه بلغ والديّ قبل انتهاء الحرب ببرهة قصيرة. حكى أحدهم أنه تزوج من ابنة الرسام أميديو موديلياني. لأوّل مرة يحافظ والدي على هدوئه عند سماعه نبأ زواج أحدنا، الأمر الذي بدا لنا ولأمّي شديد الغرابة، وبقي إلى الأبد دون تفسير. ربّما خوف أبي الكبير بشأن ماريو في تلك السنوات من فكرة أن يكون معتقلاً لدى الألمان، أو ميتاً، جعلت حقيقة أنه تزوّج فقط تبدو له حدثاً تافهاً لا أهمية له.

أمّي شعرت بسعادة عارمة، وراحت تمعن بتخيّل ذلك الزواج، وتخيّل جان، التي لم ترها قطّ، ولكن أخبروها أنها تبدو كلوحة من لوحات موديلياني، مرسومة كما رُسمت النساء في تلك اللوحات. لاحظ والدي أن لوحات موديلياني مرعبة فقط. ”خربشات! خربشات!“ ولم يقل شيئاً آخر. لكنه نظر إلى ذلك الزواج برضى مبهم.

انتهت الحرب، ووصلت رسالة مقتضبة من ماريو لا تتعدّى بضعة سطور. قال إنّه تزوّج لأسباب تتعلق بإقامته في فرنسا، وأنّه الآن قد طلّق بالفعل. ”للأسف!“ قالت أمّي: ”كم يؤسفني ذلك!“. أبي لم يقل شيئاً على الإطلاق. عندما رأياه مجدداً بدا أنّ ماريو غير مستعدّ أبداً للحديث عن ذلك الزواج ولا

عن الطلاق. وأشار إلى أنّ كلّ شيء، الزواج والطلاق، كانا أمراً مفروغاً منه منذ البدء. امتلك الرغبة في القول إنهما، الزواج والطلاق، من أبسط الأشياء وأكثرها طبيعية في العالم. من ناحية أخرى بدا غير راغب بالحديث عن أي شيء حدث له في تلك السنوات. لم يقل شيئاً عمّا إذا عانى من الحرمان، المخاوف، الإحباطات، الإهانات، إلا أن تغضنات قاسية حزينة صارت تظهر على محياه وهو مسترخٍ يشبك كفيه بين ركبتيه، في وضعية تعوّدها دوماً، ورأسه البرونزي متكئ إلى مسند الأريكة، وشفتاه ملتويتان في ثنية خائبة تخفيان ابتسامة مرارة.

”ألن تذهب لرؤية سيون سيغري؟“ سأله أبي. لقد توهّم أنه سيهرع حالاً بحثاً عن سيون سيغري، رفيق مغامراته القديمة. ”لن أذهب. ما عدنا نعرف ماذا نقول لبعضنا بعضاً!“ قال ماريو.

لم يرغب حتى في الذهاب لرؤية أشقائه في المدن المختلفة، رغم أنه لم يرهم منذ سنوات كثيرة. وقال عنهم ما قاله عن سيون سيغري: ”ما عدنا نعرف ماذا نقول لبعضنا بعضاً!“.

رغم ذلك بدا سعيداً برؤيته لألبيرتو الذي عاد بعد الحرب. الآن ما عاد يقلل من احترامه. ”لا بدّ أنك طبيب جيد“ قال: ”لا بأس. كطبيب لا بد أن تكون جيداً“.

سأله معلومات حول مرض كافي واصفاً الأعراض ومشيراً إلى تشخيص الأطباء الذين عالجوه. كافي كان يعيش في بوردو، والآن ما عاد بإمكانه مغادرة السرير. لقد خسر قواه كلها تقريباً، وبالكاد يتكلم.

رويداً رويداً عرفنا كيف أمضى ماريو تلك السنوات، مستخلصين ذلك من العبارات المقتضبة والمتذمرة التي يلقيها بين حين وآخر وهو يزفر ويرفع كتفيه مستاءً تقريباً لأننا لم نعرف شيئاً. أثناء الاجتياح الألماني كان في باريس بعدما ترك الكليّة التي درّس فيها في الريف، وعاد ليعيش في الاستديو الصغير مع القطة. تقدّم الألمان يوماً بعد يوم، وأخبر ماريو كافي بضرورة مغادرة باريس، غير أن كافي كان يعاني مرضاً في قدمه ولم يرغب في التحرك. توفيت زوجة كياروموننتي في المستشفى في تلك الأيام، وقرر هو الذهاب إلى أميركا. أبحر من مرسيليا على متن آخر سفينة ركاب مبحرة.

ماريو أقنع كافي أخيراً بالمغادرة. غادرا باريس سيراً على الأقدام حين صار الألمان على مسافة كيلومتر واحد، وما عاد بالإمكان العثور على وسيلة نقل. كان كافي يعرج متكئاً إلى ماريو. سارا ببطء شديد، وبين فينة وأخرى يجلس كافي على حافة الطريق ليلتقط أنفاسه ويعيد ماريو تضميده. ثم يستأنفان السير وكافي يجرجر في التراب ساقه المتوجعة في نعل ذي رقبة وجورب ممزق تم ترقيعه بخيط أحمر.

انتهى بهما المطاف في قرية على مشارف بوردو. احتجز ماريو في معسكر للاجئين الأجانب. وبعد الإفراج عنه انضمّ إلى maquis [حركة المقاومة الفرنسية]. مع نهاية الحرب استقرّ في مرسيليا، وقد صار جزءاً من Consiglio d’epurazione [مجلس التطهير]. غادر كيارومونتي أميركا عائداً إلى باريس، وقد بقي دوماً صديقاً لماريو وكافي. لم يفكر ماريو مطلقاً في العودة للاستقرار في إيطاليا. بل إنه في الحقيقة تقدّم بطلب للحصول على الجنسية الفرنسية.

صار مستشاراً اقتصادياً لصناعيّ فرنسي، وقد جاء إلى إيطاليا مع ذلك الفرنسي في السيارة وصحبه في جولة على المتاحف والمصانع، لكن الفرنسي هو من قاد السيارة لأن ماريو لم يتعلّم القيادة. تساءل والداي بقلق إن كانت تلك الوظيفة ذات طبيعة ثابتة أم أنها مؤقتة محفوفة بالمخاطر.

”أخشى أن أمره انتهى إلى عمل بسيط!“ قالت أمّي: ”للأسف، إنه شخص ذكي!“. ”لكن من هو ذاك الفرنسي؟“ تساءل أبي: ”يبدو لي شخصاً مريباً!“.

لم يمكث ماريو في إيطاليا أكثر من أسبوع، ثم غادر مجدداً مع ذلك الفرنسي ولم نره لوقت طويل.

***

دار النشر التي بدأت صغيرة ذات يوم صارت كبيرة ومهمّة. يعمل بها الآن الكثير من الناس. صار لها مقرّ جديد في شارع الملك أومبيرتو. المقرّ القديم تهدّم جرّاء القصف. بافيزي الآن لديه غرفة خاصّة، على بابها بطاقة كتب عليها ”إدارة التحرير“. يبقى بافيزي إلى الطاولة مع الغليون يراجع المخطوطات

بسرعة البرق، وفي أوقات فراغه يقرأ الإلياذة باليونانية، ويردد المقاطع بصوت مرتفع مع ترنيمة حزينة، أو يكتب روايته ويمحو بسرعة وعنف. لقد أصبح كاتباً مشهوراً.

في الغرفة المجاورة له كان الناشر، وسيماً، بوجهه الوردي، ورقبته الطويلة، وشعره الأشيب عند صدغيه كجناحي حمامة. لديه الآن على الطاولة الكثير من الأجراس، الهواتف، وما عاد يصرخ "كوبّاااااا!". علاوة على أن السيدة كوبّا لم تعد موجودة الآن. ولم يعد أمين المستودع القديم موجوداً أيضاً. الآن حين يريد الناشر المناداة على أحدهم يضغط زراً ويتحدث عبر الإنترفون مع الطابق السفلي حيث الكثيرُ من ضاربي الآلة الكاتبة وعمّال المستودعات. ومن وقت لآخر يمشي الناشر جيئة وذهاباً في الممر، وكفّاه خلف ظهره، ورأسه يميل قليلاً على كتفه، يلقي نظرة إعجاب على غرف الموظفين ويقول شيئاً بصوته الخارج من أنفه. الناشر لم يعد خجولاً، أو بالأحرى، خجله ما عاد يستيقظ إلا أثناء مقابلته غرباء. لم يبد خجولاً، بل بارداً وصامتاً بغموض. وهذا ما جعل الغرباء يرهبون خجله إذ أشعرهم بعينين سماويتين برّاقتين وجليديتين تتفحصانهم وتزنانهم من خلف الطاولة الزجاجية الكبيرة وعلى مسافةٍ برّاقة وجليدية. أصبح ذلك الخجل وسيلة عمل عظيمة، تحوّل ذلك الخجل إلى قوّة بمواجهة أولئك الغرباء الذين باتوا كالفراشات تصفق بأجنحتها منبهرة بالنور. وإن أتوا واثقين بأنفسهم محمّلين بالمشاريع والاقتراحات وجدوا أنفسهم في نهاية المقابلة مستنزفين ومحبطين، مع شكّ يخامرهم في أنهم ربّما يكونون حمقى وسذّجاً بعض الشيء، وأنهم حملوا ملفات مشاريع دون أيّ أساس، إلى من تفحّصها ببرود ولاحظها وفرزها بصمت.

بافيزي نادراً ما وافق على استقبال غرباء. كان يقول: "أنا مشغول، لا أريد أحداً. ليشنقوا أنفسهم، لا يعنيني ذلك".

الموظفون الجدد، الشبّان، بخلافه، كانوا يؤيدون مقابلة الغرباء إذ بإمكانهم أن يحملوا أفكاراً.

واعتاد بافيزي القول: "لسنا بحاجة إلى أفكار، لدينا الكثير من الأفكار".

يرنّ الإنتروفون على الطاولة، ومن الجهاز يأتي صوت الأنف المألوف:

”أحدهم في الطابق السفلي. استقبله. ربّما يحمل بعض المقترحات“.

”ما الحاجة إلى المقترحات؟ نحن تغمرنا المقترحات حتى رقبتنا، لا تعنيني المقترحات، لا أريد أفكاراً“.

”حوّلها إذاً إلى بالبو“. يقول الصوت.

بالبو تعوّد أن يصغي إلى الجميع. لم يرفض أي لقاء جديد. لم يتخذ بالبو موقفاً ضد المقترحات والأفكار. جميع المقترحات والأفكار تعجبه، تستحثه وتؤجج ناره، فيجيء ليطرحها على بافيزي. يجيء إلى هناك، صغيراً، بأنفه الأحمر، وبالجديّة التي يغدو عليها حين يمتلك مقترحاً لعرضه، وحين يظنّ أنه قد وضع نصب عينيه قضيّة إنسانية جديدة، مذهولاً كما كان يذهل دوماً أمام كل نموذج إنساني جديد يتبلور في أفقه، مستعداً دوماً أن يستشفّ الذكاء في كلّ مكان، وأن يراه يتفشّى في كل زاوية تستقر عليها عيناه الصغيرتان السماويتان، الحادتان والساذجتان، الجاهلتان والغائرتان. يتحدث بالبو ويتحدث فيما بافيزي يدخن الغليون ويلف شعره على إصبعه.

يقول بافيزي: ”يبدو لي اقتراحاً أحمق. أنت تدافع عن حماقات“.

فيجيب بالبو أن، نعم، هو اقتراح أحمق في الواقع من ناحية، غير أنه في الوقت ذاته، ومن ناحية أخرى، ليس بكل ذلك الحمق. إنه يحتوي بذرة جيدة، حيوية، خصبة. يتحدث بالبو ويتحدث، لأنه دائماً يتحدث ولم يعرف أن يصمت أبداً. عندما ينتهي من الحديث إلى بافيزي يمضي إلى غرفة الناشر ويروح يتحدث معه أيضاً، صغيراً، جدياً، بأنفه الأحمر الصغير، والناشر يهز نفسه فوق الكرسي ملقياً عليه نظرته الباهتة الباردة، يخربش على ورقةٍ راسماً أشكالاً هندسية، والسيجارة مطفأة بين شفتيه، وساقاه متقاطعتان.

لم يدقق بالبو المشاريع قطّ. كان يقول: ”لا أملك القدرة على تدقيق المشاريع. أفعل ذلك ببطء شديد. إنه ليس ذنبي“.

لم يقرأ كتاباً كاملاً قطّ. يقرأ بضع عبارات من هنا وهناك وينهض حالاً للذهاب والتحدث عنه إلى أحد ما. يكفيه أي شيء ليستحثه ويثير حماسته ويحرك عجلة أفكاره التي تتسارع وتتسارع. يبقى حتى الساعة التاسعة مساء يتحدث بين الطاولات، فلا جدول للعمل لديه، وينسى حتى الذهاب لتناول الغداء. فقط

عندما تفرغ الطاولات ويغدو المكتب مهجوراً ينظر عندئذ إلى الساعة، يرتدي معطفه، يعتمر قبعته الخضراء مضغوطة جيداً على جبهته، ويمضي نزولاً إلى شارع الملك أومبيرتو، ضئيلاً، منتصباً، متأبطاً سجلّه. في طريقه يتوقف للفرجة على الدرّاجات النارية والبخارية المركونة في الكاراجات المخصصة لها، لأنه امتلك فضولاً كبيراً وعاطفة خاصة حيال كل أنواع المكنات والدرّاجات.

بافيزي كان يقول عنه: "لماذا يتحدّث دوماً بينما الآخرون يعملون؟".

فيجيبه الناشر: "اتركه وشأنه".

علّق الناشر على حائط في غرفته رسماً لليون، برأسه المحني قليلاً، ونظارته المنخفضة فوق أنفه، وشعره الأسود الكثيف، الغمازة العميقة في خده، والكف الأنثوية. توفي ليون في السجن، في الجناح الألماني من سجن Regina Coeli في روما خلال الاحتلال الألماني، في شهر شباط صقيعي.

بعد ذلك الربيع الذي استولى فيه الألمان على فرنسا لم أرهم ثلاثتهم، ليون والناشر وبافيزي، مجتمعين معاً إلا مرّة واحدة حين رجعنا أنا وليون من المنفى الذي أرسلوه إليه مباشرة بعد دخول إيطاليا الحرب. جئنا من المنفى بتصريح لبضعة أيام، وآنذاك غالباً ما تناولنا العشاء معاً؛ نحن وبافيزي والناشر والآخرون الذين بدؤوا يصيرون مهمين في دار النشر، وأناس آخرون يجيئون من ميلانو ومن روما مع مشاريع وأفكار، لكن دون بالبو الذي كان آنذاك في الحرب على الجبهة الألبانية.

بافيزي لم يتحدث عن ليون قطّ. لم يحبّ الحديث عن الغائبين والموتى. كان يقول عن ذلك: "حين يرحل أحد ما، أو يموت، أحاول ألا أفكر فيه لأنني لا أحبّ المعاناة".

رغم ذلك، ربّما عانى في بعض الأحيان لفقدانه. كان صديقه المقرب، ولعله حسب تلك الخسارة من الأشياء التي تؤلمه. وبالطبع لم يمتلك القدرة على تجنيب نفسه الألم عند تعرضه للمعاناة الأكثر قسوة ومرارة في كل مرة يقع فيها بالعشق.

لقد ضربه الحبّ مثل حمّى شديدة القسوة. استمر لعام أو عامين، ثمّ شفي منه، لكنه بقي هائماً مترنّحا كمن ينهض بعد مرض عضال.

في ذلك الربيع، حين كان الألمان يستحوذون على فرنسا، وفي إيطاليا ينتظرون الحرب، الربيع الأخير الذي عمل فيه ليون في دار النشر بشكل مستقر، والذي دوماً يبدو أبعد، كما الحرب أيضاً، رويداً رويداً، صارت بعيدة، كانوا يبقون وقتاً طويلاً في الدار مع مواقد القرميد لأنّ سخانات التدفئة توقفت عن العمل بسبب الحرب. ثم قاموا بإصلاح الشوفاجات إلّا أنّ تلك المواقد بقيت لفترة طويلة قبل أن يقوم الناشر بترحيلها. في الغرف كدّست جميع المخطوطات، التي كانت تبلغ السقف، بعشوائيةٍ في الممر، وفي العمق، لعدم وجود رفوف كافية. تمّ طلاء أحد الجدران بالأسود وعلّقت عليه المطبوعات ونسخ اللوحات بواسطة الدبابيس. ثم تمّ الاستغناء عن دبابيس الورق، وعلّقت، في إطارات لامعة، لوحات حقيقية.

كان أبي في بلجيكا أثناء الغزو الألماني. بقي في ليبج حتى النهاية يواصل عمله في المعهد، غير مصدق أن يصل الألمان مبكراً بهذا الشكل لأنه كان يتذكر الحرب الأخرى؛ حين بقي الألمان متوقفين عند بوابة ليبج لخمسة عشر يوماً. لكن هذه المرة أوشك الألمان على دخول المدينة فقرّر أخيراً إغلاق المعهد الذي بات مهجوراً والمغادرة. توجه إلى أوستند سيراً على الأقدام لبعض الوقت، وأحياناً بوسائط نقل يصادفها عابرة بين حشد يجتاح الشوارع. في أوستند حملته سيارة تابعة للصليب الأحمر حيث تعرف إليه أحدهم. ألبسوه قميصاً ومضى في سيارة الإسعاف حتى بولون. هناك احتجز الألمان سيارة الإسعاف. ذهب والدي لتقديم نفسه للألمان. قال اسمه. لم يلحظ الألمان أنّ اسمه يهودي صرف. سألوه ما الذي ينوي فعله، فأجاب أنه ينوي العودة إلى ليبج، فأعادوه إلى هناك.

مكث في ليبج لسنة أخرى. كان وحيداً، لم يبقَ أحد في المعهد ذلك العام، ولا حتى تلميذه المتدرب وصديقه، كيفريمون. ثمّ نصحوه بالرجوع إلى إيطاليا، وهكذا عاد إلى إيطاليا، إلى والدتي، إلى تورينو.

بقي هو وأمي في تورينو إلى أن ألحقت القذائف الضرر بالبيت. أثناء القصف في تورينو لم يرغب قطّ في النزول إلى القبو. في كلّ مرّة تضطر والدتي أن تتوسّل إليه للنزول، وتقول إنها لن تنزل هي أيضاً ما لم ينزل هو. "مجانين!"

يقول وهو ينزل الأدراج: "إذا انهار البيت سينهار القبو أيضاً، لا أمان في القبو مطلقاً! إنه جنون!".

ثمّ نزحا إلى إيفريا. حلّت الهدنة، وكانت أمّي آنذاك في فلورنسا، فأرسل يوصيها ألا تتحرك. بقي هو في إيفريا، في بيت خالةٍ لبييرا نزحت بدورها إلى بيت آخر. طلبوا إليه الاختباء لأن الألمان يبحثون عن اليهود ويأخذونهم. اختبأ في الريف، في منزل فارغ منحه إياه أصدقاؤه، ووافق أخيراً على صنع بطاقة هوية مزورة باسم جوزيبّي لوفيساتّو. وحين يذهب لزيارة معارفه وتسأله المرأة التي تفتح الباب من عليها أن تقول فإنه يجيب باسمه الحقيقي قائلاً: "ليفي. لا، اللعنة، هذا هو، لوفيساتّو". ثمّ أبلغوه أنه تمّ التعرف إليه فمضى إلى فلورنسا.

مكث والداي في فلورنسا حتى تحرّر الشمال. في فلورنسا كان هناك شحّ في الطعام. عند انتهاء الغداء تقول والدتي وهي تمنح لكلّ واحد من أطفالي تفاحة:

"تفاحة للصغار، الكبار يتكفل بهم الله".

وتحكي عن غراسّي التي في الحرب الأخرى كانت تأخذ كلّ مساء جوزةً تقسمها إلى أربعة. "جوزة واحدة ليديا!"، وتمنح فصّاً لكلّ من أطفالها الأربعة: إيريكا، دينا، كارلا، وفرانز.

***

حين عشنا أنا وليون في أبروتزو، تحت الإقامة الجبرية، أحبت والدتي كثيراً القدوم لزيارتنا كما تذهب لزيارة ألبيرتو الذي يقطن على مسافة قريبة، في روكّا دي ميتزو، وتقوم بمقارنة بلدة بأخرى، وتتلو مسرحية *La figlia di Jorio* التي تخطر على ذهنها في تلك الأمكنة.

عندنا، وبما أنه لم يكن لدينا متّسع في البيت، كانت تنام في الفندق، الفندق الوحيد في البلدة، وهو عبارة عن بضع غرف محيطة بمطبخ، مع دالية، حديقة صغيرة، وتراس، ومن خلفها الحقول والتلال منخفضة، جرداء تعصف فيها الريح. صاحبتا الفندق، الأم وابنتها، صارتا صديقتين لنا. تعودنا أن نمضي معهما

النهارات، سواء حضرت أمي أو لم تحضر، في ذلك المطبخ وذلك التراس. في ذلك المطبخ في الأمسيات الشتائية، وعلى التراس صيفاً، كنّا نعلّق على البلدة بأكملها، وعلى المحتجزين الذين جاؤوا مع الحرب مثلنا ليختلطوا بحياة البلدة متقاسمين معها خيراتها ومشكلاتها. تعلمت أمّي مثلنا الألقاب التي يطلقونها على المحتجزين والقرويين في البلدة. المحتجزون كانوا كثراً، ومن بينهم الأثرياء وشديدو الفقر؛ الأثرياء يأكلون بشكل أفضل، يشترون الدقيق والخبز من السوق السوداء، ولكن، بغض النظر عن الطعام، فإنهم يعيشون حياة الفقراء ذاتها. يجلسون أحياناً في المطبخ أو على تراس الفندق، أو في دكان شيانكاليني، وهو عبارة عن متجر بقالة صغير.

كانت هناك عائلة أموداي، تجّار جوارب أثرياء من بلغراد، وصانع أحذية من فيومي، كاهن من زارا، طبيب أسنان، وشقيقان يهوديان ألمان؛ الأول معلم رقص والآخر جامع طوابع، يُدعَيان: بيرناردو وفيللي. كما وُجدت أيضاً عجوز هولندية مجنونة، أطلقوا عليها في البلدة لقب: خفيفة الكواحل، لأن كاحليها كانا نحيلين جداً. وغيرهم الكثير.

خفيفة الكواحل نشرت، في السنوات التي سبقت الحرب، مجلدات من القصائد في مديح موسوليني.

”لقد كتبتُ أشعاراً لموسوليني! يا له من خطأ!“ تقول لأمّي حين تلتقيها في الشارع، وترفع إلى السماء يديها الطويلتين بقفّازات الفرسان البيضاء التي تلقّتها هديةً لا أعرف من أيّ جمعية للاجئين اليهود. طوال اليوم تقطع خفيفة الكواحل الشارع جيئة وذهاباً ماشيةً وهي تهلوس، تتوقف للتحدث إلى الناس لتخبرهم، وهي ترفع يديها إلى السماء، عن عارها. المحتجزون كلهم كانوا يمشون بهذه الطريقة، جيئة وذهاباً، سالكين الطريق ذاتها مئة مرة في اليوم، لأنهم ممنوعون من دخول القرية.

”هل تذكرين خفيفة الكواحل؟ ماذا حلّ بها؟“ سألتني والدتي بعد أعوام كثيرة.

حين تجيء لزيارتنا في أبروتزو كانت أمّي دوماً تحمل معها طشتاً لعدم وجود حمّام هناك، هوسها الدائم هو أن تجد طريقة ما للاستحمام في الصباح.

أحضرت واحداً لنا أيضاً، وجعلتني أقوم بغسل الأطفال أكثر من مرة في اليوم، لأنّ أبي، في كلّ رسالة يرسلها، يوصي بأن يستحموا كثيراً لأننا في بلدة بدائية خالية من المعايير الصحية. وكانت امرأة تعيش معنا آنذاك تقول بشيء من الامتعاض حين ترانا نغسل الأطفال: "إنهم نظيفون كالذهب. إنهم دائماً يغتسلون".

تلك المرأة كانت سمينة بملابس سوداء، وفي الخمسينات من عمرها آنذاك، وما يزال والداها على قيد الحياة، وتسميهم: "ذلك العجوز" و"تلك العجوز". في المساء، قبل أن تغادر، تجمع في صرّة عبوات من السكر والقهوة، وتضع تحت إبطها زجاجة نبيذ: "هل تسمحون لي؟ أخذتُ شيئاً لتلك العجوز، وبعض النبيذ لذلك العجوز، إنه يحب النبيذ!".

ألبيرتو نقلوه إلى مكان للاحتجاز في أقصى الشمال. اعتبر الانتقال إلى الشمال أمراً جيداً. من ينقل إلى الشمال يرجّح أن يطلق سراحه قريباً. تقدمنا نحن أيضاً، بين وقت وآخر، بطلبات لننقل إلى الشمال. إلا أننا كنا سنترك أبروتزو بشيء من الأسف مثلما غادراها آسفان ألبيرتو وميراندا اللذان وجدا مكان احتجازهما الجديد في كانفيسي غبياً. على كلّ حال لم تلق طلباتنا للانتقال آذاناً صاغية.

والدي أيضاً جاء لزيارتنا أحياناً. لقد رأى تلك البلدة قذرة وتذكّره بالهند.

"إنها مثل الهند" يقول: "القذارة في الهند لا يمكن تخيلها! القذارة التي رأيتها في كالكوتا وبومبي!".

كان يتحدث عن الهند بمنتهى السعادة، ويشرق بسرور نابض بالحياة حين يشير إلى كالكوتا.

عندما ولدت ابنتي أليساندرا مكثت أمّي معنا مدة طويلة. لم ترغب في المغادرة. هو صيف 1943. كان مأمولاً أن تنتهي الحرب قريباً. كانت فترة هادئة، وهي الأشهر الأخيرة التي أمضيناها معاً، أنا وليون. غادرت أمّي أخيراً وذهبتُ رفقتها إلى أكويلا. وفيما نحن ننتظر العربة في الساحة انتابني شعور بأن عليّ الاستعداد لانقطاع طويل، هو شعور مضطرب انتابني بأنني لن أراها مجدداً.

جاء الـ25 من تموز، غادر ليون المحتجز وذهب إلى روما فيما بقيت أنا. كان ثمّة مرج أسمته والدتي "الحصان الميت" لأننا في أحد الصباحات وجدنا فيه حصاناً ميتاً. تعودت الذهاب مع الأطفال إلى ذلك المرج كل يوم. في ذلك المرج كنت أشتاق إلى ليون وإلى أمّي اللذين أمضيت معهما أوقاتاً هناك ما يترك فيّ حزناً كبيراً. صارت روحي مفعمةً بأشد المشاعر تشاؤماً. على طول الطريق الترابية، بين التلال التي تحرقها شمس الصيف، تروح وتجيء خفيفة الكواحل، بخطواتها المعوجة السريعة، وقبعتها المصنوعة من القش. الأخوان بيرناردو وفيللي يرتديان المعاطف الطويلة ذات الحزام التي منحتها تلك الجمعية اليهودية، والتي كانا يرتديانها حتى في منتصف الصيف لأن ملابسهما ممزقة. باستثناء ليون، بقي المحتجزون هناك لأنهم لم يعرفوا إلى أين عليهم الذهاب.

ثمّ حلت الهدنة، الفرحة العارمة القصيرة ووهم الهدنة. ثمّ، بعد يومين، وصل الألمان. على الطريق تزاحمت الشاحنات الألمانية، البلدة والتلال امتلأت بالجنود. حلّ الجنود في الفندق، تحت الدالية، في المطبخ، والبلدة جمّدها الخوف. كنت أصحب الأطفال دوماً إلى مرج الحصان الميت، وعندما تعبر الطائرات نرتمي على العشب. لطالما التقيت في الطريق بمحتجزين آخرين وتحاورنا بنظرات صامتة متسائلين أين علينا أن نذهب وماذا نفعل!

تلقيت رسالة من أمّي، هي أيضاً كانت خائفة ولا تعرف كيف تساعدني. لأوّل مرة أفكّر في حياتي، ليس ثمة حماية ممكنة بالنسبة إلي وعليّ تدبر أمري بمفردي. فهمتُ أن عاطفتي العميقة تجاه أمّي امتزجت دوماً بالشعور أنها ستحميني في المحن وتدافع عنّي. الآن بقيت في داخلي العاطفة المجردة فقط، لقد تلاشى كل تمنّ أو توقّع بالحماية، فأمّي الآن عجوز وعاجزة.

غادرت البلدة في الأول من تشرين الثاني. تلقيت رسالة من ليون سلّمها لي باليد شخص قادم من روما، وفيها أخبرني أنّه يتوجب عليّ مغادرة البلدة حالاً لأن الاختباء صعب هناك والألمان سيعثرون علينا ويأخذوننا بعيداً. المحتجزون الآخرون أيضاً كانوا يختبئون الآن هنا وهناك، في القرية أو في المدينة القريبة.

حضر أهل البلدة لمساعدتي. تعاونوا في ما بينهم، وجميعهم قدموا لي المساعدة. صاحبة الفندق أخبرت الألمان، الذين كانوا يحتلون بعض الغرف ويمكثون في المطبخ حول الموقد، حيث جلسنا بهدوء في أحيان كثيرة، بأنني نازحة من نابولي، وأنني قريبتها وقد فقدت أوراقي بسبب القصف، وأنه عليّ الوصول إلى روما. هكذا صعدت في أحد الصباحات على متن شاحنة ألمانية، وجاء الناس وقبّلوا أطفالي الذين رأوهم يكبرون، وودعونا.

مع وصولي إلى روما تنفست الصعداء، واعتقدت أنّ زمناً سعيداً سيبدأ بالنسبة إلينا؛ لم يكن ثمة الكثير من الأسباب لذلك الاعتقاد لكنني صدقته. أقمنا بالقرب من ساحة بولونيا. ليون كان يدير صحيفةً غير مرخصة ويبقى دوماً خارج المنزل. اعتقلوه بعد وصولنا بعشرين يوماً، ولم أره بعد ذلك قطّ.

التقيت والدتي في فلورنسا. في المصائب كانت دوماً تشعر ببرد شديد وتلفّ نفسها بشالها. لم نتبادل الكثير من الكلمات بشأن وفاة ليون. لقد أحبّته كثيراً، لكنها لم تحبّ التحدّث عن الموتى. بقي هاجسها الدائم هو تغسيل الأطفال وتمشيط شعرهم وتدفئتهم.

”هل تذكرين خفيفة الكواحل؟ تذكرين فيللي؟“ تقول: ”ماذا حل بهم؟“.

خفيفة الكواحل، كما علمت لاحقاً، توفيت في مزرعةٍ لفلاحين بسبب التهاب رئوي. أميديو، بيرناردو، وفيللي بقوا مختبئين في أكويلا، لكنّ محتجزين آخرين ألقي القبض عليهم وتمّ تكبيلهم وتحميلهم في شاحنة ليختفوا في غبار الطريق.

***

مع نهاية الحرب بدا أبي وأمّي مسنَّيْن. أمّي أصابتها المِحَنُ والخوف بالهرم المفاجئ في غضون يوم واحد. في تلك السنوات احتفظتْ دوماً بشال أرجواني من صوف الأنغورا كانت قد اشترته من باريسيني، وتعودت أن تلف نفسها به. عند الخوف والمِحَن تشعر بالبرد وتغدو شاحبة مع خطوط دائرية سوداء تحت عينيها. المِحَن التي ضربتها وأوهنتها جعلت مشيتها بطيئة، وأذلّت خطواتها الفخورة، وحفرت في خديها أخدودين عميقين.

عادا إلى تورينو، إلى البيت في حي باللاماليو الذي بات الآن يسمّى حي مورغاري. مصنع الدهانات في الساحة احترق تحت القصف وهكذا تمّ إنشاء الحمّامات العمومية. الكنيسة التي تضررت ما تزال موجودة مدعّمةً بعوارض حديدية.

”يا للأسف!“ قالت أمّي: ”يمكن أن تنهار، حالها سيئ. لا لا، ما تزال منتصبة!“.

تمّ ترميم منزلنا وإعادة ترتيبه. وضعت قطع من الخشب المعاكس مكان بعض الزجاج المكسور. وقام أبي بوضع مدافئ في الغرف لأن الشوفاجات ما عادت تعمل. اتصلت والدتي حالاً بتيرسيللا، وحين حضرت تيرسيللا في غرفة الكي أمام ماكينة الخياطة تنفست أمّي الصعداء وبدا لها أن حياتها أخذت تستعيد إيقاعها القديم. بأقمشة مزهّرة غطت الأرائك التي في القبو والتي ظهرت عليها بعض بقع من العفن. وأخيراً تم إعادة تعليق صورة العمة روجينا فوق الأريكة في غرفة الطعام، وعادت مجدداً تنظر من علٍ بعينيها المستديرتين الفاتحتين، والقفازات، وذقنها المزدوج، والمروحة.

”تفاحة للصغار، الكبار يتكفل بهم الله“ كانت تقول أمّي دوماً في نهاية الغداء. لاحقاً كفّت عن قول ذلك لأنّ التفاح صار متاحاً للجميع مجدداً. ”هذا التفاح لا طعم له!“ يقول أبي، فتجيبه أمّي: ”لكنه كارباندوي، بپّينو“.

***

والدي أبلغ كيفريمون أنه ينوي التبرع بمكتبته التي بقيت هناك لصالح جامعة لييج عرفاناً منه لاستضافتهم له أثناء الحملة العنصرية في إيطاليا.

داوم على المراسلة مع كيفريمون. كتبا لبعضهما بعضاً، وكان كيفريمون يرسل إليه منشوراته.

أمّي كانت تفكّر في أن الأماكن تخصّ الأشخاص الذين تعرفهم فقط. في بلجيكا كلها، بالنسبة إليها، لا يوجد سوى كيفريمون. حين يحدث شيء في بلجيكا؛ فيضانات، أو تغيير حكومي، كانت تقول:

”كيف حال كيفريمون يا ترى!“.

في فرنسا، قبل أن يذهب إليها ماريو، كان بالنسبة إليها هناك فقط السيد بوليكار الذي التقته هي ووالدي في أحد المؤتمرات. وكانت تقول دائماً: "كيف حال بوليكار يا ترى!".

في إسبانيا عرفت شخصاً يدعى دي كاسترو. إن قرأت عن عواصف أو أعاصير في إسبانيا، فإنها تقول: "كيف حال دي كاسترو يا ترى!".

دي كاسترو ذاك، في واحدةٍ من إقاماته في تورينو، أصيب بمرض، ولم تتضح ماهيّة مرضه. أدخله أبي إحدى العيادات واستدعى مجموعة من الأطباء للكشف عليه. أحدهم قال إنه ربّما يعاني أمراً في القلب. كان دي كاسترو يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة والهذيان ولا يتعرف إلى أحد. حضرت زوجته من مدريد وراحت تكرر باستمرار:

"Non è il corazon! è la cabezza!" [بالإسبانية: إنه ليس القلب! إنه الرأس!].

شفي دي كاسترو وعاد إلى إسبانيا. وصلت حكومة فرانكو، ثمّ الحرب العالمية ولم تسمع عنه شيئاً بعد ذلك لكن والدتي ظلّت تردّد: "Non è il corazon! è la cabezza" مستحضرةً إسبانيا والسيدة دي كاسترو. الحرب ابتلعت أيضاً السيد بوليكار. حتى غراسّي التي كانت تعيش في فرايبورغ في ألمانيا، لم تسمع عنها مجدداً. لكنها بقيت في الغالب تردّد:

"من يدري ما الذي تفعله غراسّي في هذه اللحظة؟"

"ربّما ماتت!" تقول أحياناً: "يا له من شعور، أن تكون غراسّي قد ماتت!".

بعد الحرب انقلبت جغرافيتها رأساً على عقب. لم يعد بمقدورها استحضار غراسّي والسيد بوليكار بهدوء. في زمن ما استطاعوا تحويل البلدان البعيدة والمجهولة، بنظر أمّي، إلى أماكن أليفة، اعتيادية ومبهجة، وجعل العالم أشبه بقرية أو طريق يمكن للمرء أن يقطعه في برهة عبر التفكير في تلك الأسماء الأليفة والمطمئنة.

العالم بعد الحرب بدا خلاف ذلك، هائلاً، مجهولاً، ودون حدود. إلا أن والدتي رغم ذلك استأنفت عيشه بقدر استطاعتها. استأنفت عيشه بسعادة لأن مزاجها كان سعيداً. روحها لم تعرف العجز، ولم تبلغ قطّ الشيخوخة التي تمكث على حواف أطلال الماضي. كانت أمي تنظر إلى أطلال الماضي دون

دموع، ولم تأسف عليه، علاوة على أنها لم تحبّ ارتداء ملابس الحداد. حين توفيت والدتها، وكانت آنذاك ما تزال في باليرمو، جاءت إلى فلورنسا حيث توفيت والدتها فجأةً ووحيدة. عانت ألماً شديداً لرؤية أمّها ميتة، ثمّ خرجت لتشتري ثوب حداد. إلا أنها عوض أن تشتري ثوباً أسود كما يجب، قامت بشراء فستان أحمر، وعادت إلى باليرمو مع ذلك الفستان الأحمر في حقيبتها. قالت لباولا: "ماذا تريدين! أمّي لم تكن تطيق الملابس السوداء، وستكون في غاية السعادة لرؤيتي بهذا الفستان الأحمر فائق الجمال".

أصيبت قدم تشا بالمرض
تنزّ قيحاً أحياناً في المساء
إلى فيرتشيلي ترسلها موتَوَا

راح الشعراء الشباب يكتبون هذا النوع من القصائد ويحضرونها إلى دار النشر للقراءة. هذه الأبيات الثلاثة عن تشا هي جزء من قصيدة طويلة عن حاصدات الأرز. بعد الحرب، كان زمن ظنّ فيه الجميع أنهم شعراء، كما ظنّ الجميع أنهم سياسيون. اعتقد الجميع أنهم يستطيعون، بل من واجبهم أن يكتبوا شعراً عن كلّ شيء بعد سنوات كثيرة بدا فيها العالم أخرس ومتحجراً، والواقع صار ينظر إليه كما لو أنه هناك خلف زجاج في فيترينا بلورية جامد ومكتوم الصوت. الروائيون والشعراء، خلال سنوات الفاشية، لاذوا بالصوم، لم تكن الكلمات المسموح استخدامها كثيرةً من حولهم، والقلّة الذين واصلوا استخدام الكلمات كانوا ينتقونها بعناية من فتات التراث المتبقي. في زمن الفاشية لم يعثر الشعراء على وسيلة للتعبير إلا في عالمٍ قاحل ومغلق من الأحلام الماورائية. الآن بات هناك من جديد الكثير من الكلمات المتداولة، وبدا الواقع مجدداً في متناول اليد، لذلك شرع الصائمون القدامى بقطافه مبتهجين. كان القطاف حالةً عامّة لأن الجميع فكّر في أن يستحوذ حصّةً، فصار التداخل اللغوي العشوائي بين الشعر والسياسة، حيث بدت اللغتان تختلطان ببعضهما بعضاً. بعد ذلك، إذ تكشّف الواقع، تبين أنه معقّد وسريّ وعصيّ على

الفهم، وليس أقلّ غموضاً من عالم الأحلام، واتّضح أنه بقي واقعاً خلف الزجاج، كما ثبت أنّ وهم تحطيم ذلك الزجاج كان سريع الزوال. هكذا سرعان ما انسحب الكثيرون محبطين وخائبين، ووقعوا في صومٍ مرير ولاذوا بالصمت. لذا صار زمن ما بعد الحرب حزيناً ملؤه الإحباط بعد بهجة القطاف في الفترة الأولى. الكثيرون انسحبوا وانعزلوا في عالم أحلامهم، أو في أعمالهم التي تؤمّن لهم القوت، أعمال يحوذونها صدفةً وبسرعة، والتي بدت ضئيلة وكئيبة بعد الكثير من الصخب. نسي الجميع على كل حال وهم ذلك الانخراط الخاطف في الحياة القريبة. طبعاً، بعد سنوات كثيرة، ما عاد أحد يمارس عمله، لكن الجميع اعتقدوا أن باستطاعتهم، ومن واجبهم، القيام بآلاف الأعمال الأخرى في آن واحد. ومضى وقتٌ قبل أن يأخذ كلّ واحد وظيفته على كاهله محتملاً ثقل عبئها اليومي، والعزلة اليومية، وسيلتنا الوحيدة للتشارك مع حياة الأقرباء الخاسرين والمحاصرين في عزلة مماثلة.

بالنسبة إلى الأبيات حول تشا التي أصيبت قدمها بالمرض فإننا لم نرها أبياتاً جميلة آنذاك، بل بدت لنا كما هي غاية في الرداءة. إلا أنها اليوم تبدو مؤثرةً، تخاطب آذاننا بلغة تلك الحقبة. صار هناك الآن أسلوبان للكتابة؛ الأوّل هو تفنيد بسيط للحقائق حول آثار الواقع الكئيب، المتلبّد، الشحيح، عبر شاشةٍ لمشهدٍ مسطّح ومخزٍ. والآخر يخلط الحقائق بالعنف وبهذيانٍ من دموع وأنين متشنج ونواح. في كلتا الحالتين لم تنتقَ الكلمات، ففي الحالة الأولى تماهت الكلمات مع الكآبة، وفي الأخرى ضاعت بين الأنين والنواح. إلا أنّ الخطأ الشائع كان الاعتقاد أنّ بالإمكان تحويل كل شيء إلى كلمات وشعر. تلا ذلك حالةُ نفور من الشعر والكلمات، حالة قوية شملت الشعر الحقيقي والكلمات الحقيقية أيضاً. لذا لاذ الجميع بالصمت أخيراً، وتصلّبوا في حال من الملل والغثيان. بات من الضروري العودة لانتقاء المفردات والتدقيق فيها بغية الشعور إن كانت حقيقية أم زائفة، لها جذور راسخة فينا أو لا، أم أنّ جذورها هي وهمٌ مشترك فقط. صار ضرورياً على من يكتب أن يعود لتولّي وظيفته التي نسيها في غمرة السكرة العامّة. وأعقب ذلك وقتٌ أشبه بما يلي السّكَر من غثيان وإعياء وضجر. شعر الجميع، بطريقة أو بأخرى، بالخداع والخيانة؛ حتى أولئك الذين

عاشوا الواقع، الذين امتلكوا أو ظنّوا أنهم يمتلكون الأدوات للحديث عنه. هكذا استأنف كلّ واحد طريقه وحيداً وساخطاً.

***

وُجدَ أدريانو أحياناً في دار النشر. لقد أحبّ دور النشر وأراد أن ينشئ واحدةً هو أيضاً. لكن دار النشر التي فكّر فيها مختلفة عن تلك، لأنه لم ينوِ أن ينشر لا الشعر ولا الروايات. في شبابه أحبّ روايةً واحدة فقط: *I sognatori del Ghetto* [حالمون في الغيتو] لإسرائيل زانغويللي. كل ما قرأه بعد ذلك لم يثر اهتمامه. أبدى احتراماً كبيراً للروائيين والشعراء إلا أنّه لم يقرأهم. المواضيع الوحيدة التي جذبته في العالم كانت التخطيط المُدني، التحليل النفسي، الفلسفة والدين.

آنذاك بات أدريانو صناعياً كبيراً ومشهوراً، ورغم ذلك فقد احتفظ من بعض النواحي بشيء من هيئة المتشرد التي كان عليها في شبابه حين خدم كجنديّ. يتحرك مجرجراً ساقيه وهائماً كصعلوك. ظلّ خجولاً ولم يعرف كيف يستغل حياءه كقوة على طريقة الناشر لأنه تعوّد أن يدفعه إلى الخلف في حضرة أشخاص يلتقيهم لأوّل مرة، سواء كانوا جهات سياسية أو فتياناً مساكين جاؤوا يسألونه وظيفةً في المصنع. يرجع كتفيه إلى الوراء، يثبّت رأسه وتضيء عيناه بنظرة جامدة، باردة ونقية.

أثناء الاحتلال الألماني التقيته ذات يوم في الشارع يمشي بخطوات الشريد، عيناه تائهتان في أحلامه الأزلية التي غطّاها ضباب أزرق. يرتدي ملابس مثل الآخرين غير أنه وسط الحشد بدا متسوّلاً، كما بدا في الآن ذاته ملكاً؛ لقد بدا أشبه بملكٍ في المنفى.

اعتقل ليون في مطبعة سرية. كانت لدينا تلك الشقة بالقرب من ساحة بولونيا، وكنتُ وحيدة في المنزل مع أطفالي. انتظرت. مضت الساعات، وهكذا، رويداً رويداً، أدركت أنني لن أراه يعود، وأنّهم اعتقلوه دون شك. مضى ذلك اليوم، وتلك الليلة، والصباح التالي، ثمّ جاءني أدريانو ليخبرني أن أغادر ذلك المبنى فوراً لأن ليون اعتقل بالفعل ويمكن للشرطة أن تحضر في أيّ

لحظة. ساعدني على حزم الحقائب وإلباس الأطفال ملابسهم، هربنا وأوصلني إلى أصدقاء وافقوا على استضافتي.

سأذكر دوماً، طيلة الحياة، الراحة الكبيرة التي شعرت بها حين وجدت نفسي ذلك الصباح أمام شخصيته التي ألفتها جداً فيما مضى، والتي عرفتها منذ الطفولة، بعد ساعات من العزلة والخوف، ساعات فكرت فيها أنّ عائلتي بعيدة، في الشمال، ولا أعرف إن كنت سأراهم مجدداً. سأذكر دوماً ظهره المنحني في الغرفة يلتقط ملابسنا المبعثرة، أحذية الأطفال، بملامح طيبة ومتواضعة، عطوفاً وحليماً. وحين هربنا من ذلك المنزل باتت ملامحه شبيهة بما كانت عليه حين جاء إلينا لأخذ توراتي؛ الوجه اللاهث، المذعور، والذي يصير سعيداً حين يتمكّن من حمل شخص ما إلى برّ الأمان.

تعوّد أدريانو، حين يجيء إلى دار النشر، أن يتسلّى مع بالبو لأنّه فيلسوف، ولطالما انجذب هو إلى الفلاسفة بشدّة. بالبو بدوره كان منجذباً بشدّة إلى الصناعيين والمهندسين ومشكلات المصانع والآلات والمحركات. تعوّد التباهي باهتمامه وشغفه أمامنا أنا وبافيزي قائلاً إننا مثقفان وهو ليس كذلك، ولذا فنحن لن نفهم شيئاً عن المصانع والآلات. اهتمامه وشغفه كانا ينتهيان بتأمّل الدرّاجات المتوقفة في الكراجات أثناء عودته إلى البيت مساءً.

تطلّق أدريانو وباولا بعد الحرب. عاشت هي في فلورنسا عند تلال فيزولي، وهو في إيفريا. رغم ذلك بقي صديقاً لجينو، يلتقيان دوماً رغم أن جينو ترك إيفريا والمصنع بعد الحرب وراح يعمل في ميلانو. جينو في الحقيقة واحدٌ من أصدقائه القلائل جداً، لأن أدريانو كان شديد الإخلاص لأصدقائه وللأشياء التي اكتشفها وعرفها في شبابه، مثلما بقي مخلصاً في أعماق روحه للروائي إسرائيل زانغوييللي. إخلاصه كان عاطفياً بحتاً، لم يتمدّد إلى عالم الإدراك حيث هو مستعدّ للتراجع عمّا قام به والبحث عن الجديد بطرق وتقنيات أكثر حداثة بعد أن تبدو له الأشياء التي أنجزها فعلاً قديمةً بين يديه. هو في ذلك يشبه الناشر الذي استعدّ دوماً أن يدفن ما كان بالأمس فقط قد اختاره ووجده إبداعاً، قلقاً ومضطرباً على الدوام في بحثه عن الجديد. بحثٌ قدّمه على كلّ شيء دون أن يلجمه أمرٌ؛ لا التفكير بالثروة التي تمّ الحصول عليها بواسطة

الآليات القديمة، ولا خشية واحتجاج المحيطين به، أولئك الذين باتوا مرتبطين بتلك الآليات القديمة ولم يفهموا لماذا يتوجب عليهم التخلص منها.

أنا الآن أيضاً أعمل في دار النشر. دار النشر، وحقيقة أنني أعمل بها، حازتا احترام أبي وتقديره، أمّا أمّي فقد نظرت إلى الأمر بريبة وقلّة ثقة. في الحقيقة رأت أمّي أنّ البيئة هناك يسارية جداً، وهي بعد الحرب باتت تخشى الشيوعية، الأمر الذي ما كان ليخطر ببالها قبلاً. لم تعجبها اشتراكية بيترو نيني، التي وجدتها شديدة الشبه بالشيوعية، لقد فضّلت الـsaragattiani [نسبة إلى جوزيبّي ساراغات]، غير أنهم أيضاً لم يرضوها إرضاءً تامّاً، وبدا لها سارغات "ذا وجه لا يعرف شيئاً".

"توراتي، بيسولاتي، كوليشوف، أولئك كانوا لطفاء. السياسة اليوم لا تعجبني" صارت تقول.

ذهبتْ لزيارة باولا كارّارا، التي بقيت هناك، في صالونها الصغير المعتم دوماً والمليء بالطيور المزيفة والبطاقات البريدية والدمى. هي أيضاً كانت متجهّمة بسبب استيائها من الشيوعيين وخشيتها أن يستولوا على إيطاليا. أختها وصهرها توفيا ولم يعد ثمّة ما يدفعها للذهاب إلى جنيف. ما عادت تقرأ *Zurnàl de Zenève*، ولا تنتظر نهاية الفاشية أو موت موسوليني، لأن موسوليني والفاشية قد هلكا منذ زمن، لذا بقيت حيّة فيها كراهية الشيوعيين والأسف لكون أعمال صهرها، غوليلمو فيرّيرو، لم تلق التقدير التي تستحقه في إيطاليا عقب انتهاء الفاشية. ما عادت تدعو الناس إلى صالونها الصغير في المساء. الرواد المنتظمون إلى صالونها، مناهضو الفاشية القدامى، ذهبوا للعيش في روما وشغلوا مناصب سياسية. لم يبقَ إلّا والداي وقلّة من الآخرين الذين واصلت دعوتهم في بعض المساءات ولكن دون تلك المتعة القديمة. لقد وجدت الجميع "يساريين" جداً، باستثناء والدتي، ولذا انتهى بها الأمر أن صارت تنام متجهّمة في ثوبها الحريري الرمادي، ويداها مضمومتان في شال الكروشيه الرمادي.

"أنت تعادين الشيوعيين بسبب باولا كارّارا" يقول أبي لأمّي.

”لا يعجبني الشيوعيون“ تقول أمّي: ”لا علاقة لباولا كارّارا بالأمر. أنا أحبّ الحريّة، في روسيا لا توجد حريّة!“.

اعترف والدي أنه ليس ثمّة الكثير من الحرية في روسيا، ومع ذلك فقد انجذب إلى اليسار. أوليفو، مساعده القديم، والذي يشغل الآن منصباً في مودينا، كان يسارياً.

”أوليفو أيضاً يساري“ يقول أبي لأمّي فتجيبه: ”انظر كيف تسمح لأوليفو بتوجيهك!“.

بعد الحرب عاد والداي إذاً للإقامة في حي بالاماليو الذي بات الآن يسمّى مورغاري. عشتُ معهما أنا وأطفالي. لم تعد ناتالينا موجودة، لقد انتقلت بعد الحرب إلى استديو صغير مع بعض الأثاث الذي منحته إياها والدتي، وصارت تعمل في الخدمة الساعيّة.

”ما عدتُ أريد أن أكون عبدةً“ قالت ناتالينا لأمّي: ”أريد الحريّة“.

”حمقاء“ قالت لها أمّي: ”تخيلي أن أعاملك كعبدة، أنتِ معي أكثر حريّة“.

”أنا عبدة، أنا عبدة“ تقول ناتالينا بنبرة متوترة متوعدة، وهي تهز المكنسة، فتخرج أمّي عندئذ من البيت وهي تقول:

”أنا خارجة لأنني ما عدت أستطيع النظر إليك، لقد أصبحتِ بغيضة“.

وتمضي للترويح عن نفسها في البقالية أو عند الجزار. ”عندي ستبقى دافئة، لا ينقصها شيء“ تشرح: ”إنها غبية حقاً!“.

تذهب إلى ألبيرتو وميراندا اللذين يعيشان على مسافة قريبة في شارع فالنتينو، وتشكو إليهما أيضاً: ”ألا تملك كلّ الحريّة التي تريدها؟ أنا لا أستعبد أحداً“ تقول. وتقول أيضاً: ”لكن ماذا أفعل أنا دون ناتالينا؟“.

انتقلت ناتالينا إلى الأستديو خاصتها، ومع ذلك ظلّت تجيء لزيارة أمّي التي بقيت في البدء تأمل أن تعود عن رأيها وترجع إليها، ثمّ يئست. الآن لديها امرأة أخرى.

”وداعاً لويس الحادي عشر!“ تقول لناتالينا وهي تمضي عائدة إلى الاستديو الذي، بحسب وصفها، كان ”رائعاً“، وحيث صارت تدعو في المساء تيرسيللا وزوجها لشرب القهوة. ”وداعاً لويس الحادي عشر! وداعاً جان بول مارا!“.

توفي الكثير من أصدقاء والديّ. كارّارا، زوج باولا كارّارا، توفي قبل الحرب حتى. رجل طويل، نحيل، بشاربين مشذبين، والذي مضى دوماً بواسطة الدرّاجة، بعباءة سوداء ترفرف خلفه. لطالما قالت أمي عنه إنه آدميّ. " آدميّ مثل كارّارا" تقول حين تريد الإشارة إلى قمّة الاستقامة. وواصلت قول ذلك حتى بعد وفاته. والدا أدريانو، المهندس العجوز أوليفيتيه وزوجته، توفيا أيضاً في الأشهر التي أعقبت الهدنة، في أحد الحقول القريبة من إيفريا حيث كانا يختبئان. توفي هو أولاً ولحقت هي به بعد وقت قصير. توفي لوبيز حال عودته من الأرجنتين بعد انتهاء الحرب. وكذلك توفي تيرني في فلورنسا. والدي بقي على تواصل مع زوجته ماري، لكنه منذ سنوات ما عاد يراها.

"هل كتبتِ إلى ماري؟" يقول لأمّي: "عليك أن تكتبي إلى ماري. تذكري أن تكتبي إلى ماري".

"هل ذهبتِ لرؤية فرانشيس؟" يقول لها: "اذهبي لرؤية فرانشيس. اليوم اذهبي لرؤية فرانشيس".

"هل كتبتِ إلى ماريو؟" يقول لها: "الويل لك إن لم تكتبي إلى ماريو اليوم!".

لم يعد ماريو يعمل مع ذلك الفرنسي، لقد بات الآن موظفاً في الإذاعة ويحمل الجنسية الفرنسية، وقد تزوّج مرة أخرى.

حين أعلن عن زواجه الجديد غضب أبي هذه المرة، ولكن ليس كثيراً على كلّ حال. ذهبا، هو وأمي، إلى باريس ليتعرفا إلى زوجته الجديدة. كان ماريو يعيش في منزل بالقرب من نهر السين. هو بيت مظلم إلى حدّ ما فلم يستطع أبي تبيّن زوجة ماريو جيداً. رأى فقط أنها ضئيلة جداً، وأنّ لديها غرّة فوق عينيها. سأل ماريو في غيابها:

"لماذا تزوجت امرأة عجوز أكثر منك؟".

في الحقيقة لم تكن زوجة ماريو قد تجاوزت العشرين من العمر، بينما هو الآن في الأربعين.

أنجبا طفلةً. عاد والداي إلى باريس عند ولادة الطفلة. ماريو جنّ بالطفلة يحملها في الغرفة جيئة وذهابا وهو يهزها. "Elle pleure, il faut lui donner sa

”tétée!“ [إنها تبكي، عليكِ أن ترضعيها] يقول لزوجته بشكل متواصل. وأمّي تقول: ”ولكن كيف أصبح فرنسياً!“.

هذه المرة ثار غضب أبي لأنه في أحد الأيام رأى في بيت ماريو، الطفلة مع زوجته وزوجته السابقة، طليقته جيان التي جمعته بها علاقة ود.

أبي لم يحب ذلك المنزل عند السين، قال إنه معتم ولا بدّ أنه رطب. أما بالنسبة إلى زوجة ماريو فقد بدت له صغيرة جداً. ”إنها صغيرة جداً“ يقول، فتجيب أمّي: ”صغيرة لكنها لطيفة. قدماها صغيرتان جداً، أنا لا أحبّ الأقدام الصغيرة!“.

هذا ما لم يوافق عليه أبي، فقدما والدته كانتا صغيرتين.

”أنتِ مخطئة. الأقدام الصغيرة تمنح المرأة جمالاً عظيماً. لطالما تباهت المرحومة أمّي بقدميها الصغيرتين“.

”يتحدثان كثيراً عن الطعام“ يقول عن ماريو وزوجته.

”لديهما بيت شديد العتمة! قولي لهم أن يغيّروا ذلك البيت“.

”أنت مجنون بّينو! إنهما يحبان السكنى فيه كثيراً“.

”تلك الإذاعة أيضاً! أخشى أنه عمل دون قيمة“ تقول أمّي، فيجيب أبي: ”للأسف، بذكائه كان يستطيع الحصول على مهنة رائعة“.

توفي كافي في بوردو. جمع ماريو وكياروموننتي كلّ أوراقه المبعثرة، المكتوبة بقلم الرصاص، وحاولا فكّ طلاسمها. كياروموننتي الذي تزوج في أميركا غادر باريس وجاء ليستقرّ مع زوجته في إيطاليا. ماريو وجد أنه أخرق، ولا يمكنه فعل ما هو أكثر غباءً من ذلك. رغم ذلك بقيا صديقين مقربين، يلتقيان صيفاً في بوكا دي ماغرا ويلعبان الشطرنج. ماريو الآن لديه ولدان ويعمل في الأونيسكو. كتب والدي إلى كياروموننتي يسأله إن كان العمل الذي يقوم به ماريو يضمن شيئاً من الأمان.

”ربّما ليست وظيفة قليلة الشأن، قد تكون وظيفة جيدة!“ قالت أمّي. غير أنّ أبي، رغم تلقيه معلومات مطمئنة من كياروموننتي، واصلَ هزّ رأسه بأسف، ولأنّه صعب المراس وغير قادر على تجاهل انطباعاته الأولى فقد بقي على قناعته بأنّ مهنةً رائعةً وعبقرية قد فاتت ماريو.

رغم فخره الدائم بأنّ ماريو هو ابنه المتآمر الذي اجتاز الحدود مراراً حاملاً منشورات سرية، وكذلك فخره الدائم بقصة اعتقاله وهروبه الدراماتيكي، إلا أنه بقي على شيء من الأسف حياله لأن تلك الواقعة جعلته يعرّض آل أوليفيتيه ومصنعهم للتهديد والخطر. لذلك، عندما توفي أدريانو بعد بضع سنوات، وأرسل ماريو برقية إلى والدي من باريس يسأله فيها: "أخبرني إن كان مناسباً حضوري جنازة أدريانو". أجابه والدي: "حضورك الجنازة غير مناسب".

من ناحية أخرى بقي أبي دوماً على قلق بشأن بعض أبنائه. فيستيقظ ليلاً وهو يهجس بجينو. بعد تركه آل أوليفيتيه استقرّ جينو في ميلانو وبات مديراً ومستشاراً لشركات كبرى. "في المرّة الأخيرة التي جاء فيها بدا مغتمّاً" يقول أبي عن جينو: "أتمنى أنه لا يعاني المتاعب. تعلمين أنه يتحمّل واجبات ومسؤوليات كبيرة!".

من بيننا بقي جينو الأكثر وفاءً لعادات العائلة القديمة؛ واصل الذهاب إلى الجبال أيام الآحاد صيفاً شتاءً، وفي بعض الأحيان يذهب أيضاً رفقة فرانكو راسيتّي الذي يعيش الآن في أميركا لكنه يجيء إلى إيطاليا من حين إلى آخر.

"كم هو رائع جينو في الجبال" يقول أبي: "إنه يجيد التسلق، وماهر جداً في التزلج".

فيقول جينو: "لا، لست جيداً على الإطلاق في التزلج. أمارسه بالأسلوب القديم. شباب اليوم ماهرون جداً".

"أنت متواضع دوماً" يقول أبي. وبعد مغادرته يعود ليكرّر: "كم هو متواضع جينو!".

"يا له من متعصّب ماريو!" يقول في كلّ مرة يأتي فيها ماريو من باريس. "لا أحد يعجبه، يحب كياروموننتي فقط!".

"لا أريد أن يخرجوه من الأونيسكو" يقول: "الوضع في فرنسا غير آمن. أنا لست مطمئناً. كم هو أحمق بأخذه الجنسية الفرنسية، كياروموننتي لم يأخذها قطّ. إن ماريو أحمق بالفعل!".

طبعاً كانت أمّي بالغة الرقة مع أطفال ماريو حين يحملهم إليها. "كم هو لطيف ماريو مع أطفاله، كم يحبهم!" تقول.

"Sa tétée! Il faut lui donner sa tétée!" تقول: "إنّه فرنسي حقاً!".

"الطفلة جميلة جداً لكنها بريّة. إنها شيطانة حقيقية!" تقول.

"لا يعرفون كيف يربونهم. إنهم مدللون جداً" يقول أبي.

"وما فائدة إنجاب الأطفال إن لم يكونوا مدللين؟" تقول أمّي.

"قال إنني برجوازية!" قالت أمّي حين غادر ماريو: "أبدو له برجوازية لأنني أحافظ على الخزانة مرتبة. إنهم شديدو الفوضى في المنزل. ماريو الذي كان شديد الترتيب والتنظيم! الذي كان يشبه سيلفيو، أصبح الآن مختلفاً في كل شيء! لكنه سعيد".

"أحمق. قال لي إنني يمينيّة جداً! لقد عاملني كما لو أنني ديموقراطية مسيحية!".

"لكنكِ حقاً يمينيّة" قال أبي: "تخافين الشيوعية. لقد تأثرت بباولا كارّارا".

"لا أحب الشيوعيين" قالت أمّي: "يعجبني الاشتراكيون، أولئك القدامى؛ توراتي، بسولاتي. كم كان بيسولاتي لطيفاً. كنا نذهب إليه أيام الآحاد مع أبي".

"ربّما لا يكون سارغات سيئاً. المؤسف أنّ له وجهَ مَن لا يعرف شيئاً!" تردّد أمّي ويصيح أبي:

"لا تتفوهي بالحماقات. لا تصدّقي أبداً أنّ سارغات اشتراكي. سارغات يمينيّ. الاشتراكي الحقيقي هو نيّني وليس سارغات".

"نيّني لا يعجبني. نيّني يبدو كأنّه شيوعي. دوماً يتفق مع تولياتّي. تولياتّي ذاك لا أطيقه".

"لأنّكِ يمينيّة".

"لستُ يمينية ولا يسارية. أنا مع السلام".

تخرج بخطواتها الرتيبة الفخورة التي كانت لها في شبابها، شعرها الأبيض متروك للريح والقبعة بيدها. ودوماً، في الصباح حين تذهب لطلب البقالة، أو عصراً عند ذهابها إلى السينما، تتوقف لبعض الوقت في بيت ميراندا.

تقول لها ميراندا: "أنت تخافين الشيوعيين لأنهم سيجعلونك تتخلين عن خادمتك".

"صحيح، ولو جاء ستالين ليأخذ خادمتي منّي سأقتله" تجيب أمّي: "كيف أستطيع البقاء دون الخادمة وأنا لا أجيد فعل شيء؟".

ميراندا بقيت دوماً في الأريكة مع البطانية وزجاجة الماء الساخن بيدها، شعرها الأشقر يتدلى على وجنتيها، صوتها رتيب، مترنم، طفولي.

والداها أخذهما الألمان. أخذوهما كما أخذوا الكثير من اليهود التعساء الذين لم يصدّقوا الاضطهاد. كانا في تورينو الباردة، وذهبا إلى بورديغيرا هرباً من البرد. بورديغيرا هي مكان صغير والجميع فيها يعرفهما. أحدهم أبلغ الألمان عنهما، والألمان أخذوهما.

حين علمت ميراندا أنهما في بورديغيرا كتبت إليهما متوسّلةً أن يغادراها لأنّ الجميع هناك يعرفهما، وأنّ المدن الكبرى أكثر أماناً. لكنهما كتبا لها في الردّ ألّا تكون حمقاء.

"نحن أناس مسالمون. المسالمون لا أحد يكترث لهم".

لم يقبلا استعمال أسماء مزيفة أو بطاقات مزورة؛ بدا ذلك لهما عملاً غير أخلاقي. قالا: "من سيؤذينا؟ نحن أناس مسالمون!".

هكذا أخذ الألمان والدتَها الصغيرة، المشعّة، الفرحة، مريضة القلب، ووالدَها الكبير، الوقور، المسالم.

تلقّت ميراندا أخباراً عن وجودهما في سجون ميلانو. ذهبت إلى هناك هي وألبيرتو، وحاولا الوصول إليهما بالرسائل والمؤونة والملابس. لم ينجحا ببلوغ أيّ نوع من التواصل مع داخل السجن. ثم علما أن جميع يهود سان فيتّوري تمّ نقلهم إلى وجهة مجهولة.

ذهبت هي باسم مستعار مع ألبيرتو وابنهما إلى فلورنسا. كانت لديهما غرفتان بالقرب من كامبو دي مارتي. أصيب الطفل بالتيفوس وهم تحت القصف، فاضطرا لحمله محموماً وملفوفاً ببطانية إلى الملجأ.

مع نهاية الحرب رجعوا للإقامة في تورينو. فتح ألبيرتو العيادة من جديد، وعادت قاعة الانتظار مليئة على الدوام بالكثير من المرضى، وألبيرتو بمريوله

الأبيض وسماعته الطبية المتدلية على صدره يهرب إلى الصالون ليتدفأ على الشوفاج ويصنع القهوة.

لقد غدا سميناً وأصلع تقريباً، مع بعض الخصلات الشعثاء من الشعر الأشقر الناعم في مقدمة رأسه. يقرّر تخفيف وزنه. يتبع حمية غذائية. يجرّب بعض الوصفات الطبية التي يحصل عليها مجاناً. إلا أنه في المساء ينهض جائعاً فيذهب إلى المطبخ ويبحث في الثلاجة عن بقايا طعام الغداء.

كانت لديهم ثلاجة كبيرة جميلة جداً أهادهم إياها أدريانو لقاء عناية ألبيرتو به حين كان مريضاً. وميراندا، دائمة الشكوى، اشتكت من هذه الهدية أيضاً.

"إنها كبيرة جداً" تقول: "ماذا سنضع فيها؟ أنا لا أشتري سوى أوقية من الزبدة في كلّ مرّة".

كانا دوماً يستذكران سنوات الاحتجاز التي أمضياها في أبروتز. يأسفان على تلك السنوات. "كم كانت جيدة الإقامة في الحجز في راكّا دي ميتزو!" يقول ألبيرتو: "حقاً كانت إقامة جيدة!".

ميراندا تقول: "لم أكن كسولة. لقد تزلجت. ذهبتُ مع الطفل للتزلج، في الصباح أستيقظ باكراً وأشعل الموقد. لم أعانِ من الصداع قطّ. الآن أنا من جديد متعبة دوماً!".

"أنت لم تستيقظي باكراً" يقول ألبيرتو: "لا تجمّلي الواقع. أنت لم توقدي الموقد. المرأة هي من كانت تفعل ذلك".

"أيّ امرأة؟ نحن لم يكن لدينا امرأة!".

الطفل، سكة الحديد سابقاً، هو الآن فتى يذهب للعب الكرة مع أبنائي في فيلينتينو.

إنه بدين، أشقر، بصوت ثخين. رغم ذلك يشوب صوته الثخين صدى ترنيم والدته.

"ماما، هل أستطيع الذهاب إلى فيلينتينو مع أبناء عمّتي؟" يقول.

"احذر ألا تتأذّى" تجيب أمّي.

ميراندا تقول: "لا تخافي، إنهم حذرون كالثعابين".

”لكنه مهذّب بما فيه الكفاية“ يقول ألبيرتو وميراندا عن ابنهما: ”من الذي هذّبه؟ ليس نحن. لقد هذّب نفسه بمفرده!“.

”ربما أذهب الأحد إلى الجبل“ يقول ألبيرتو وهو يفرك يديه ببعضهما.

ألبيرتو أيضاً واصل الذهاب إلى الجبال لكن ليس بأسلوب جينو، بل بالأسلوب الذي علّمه إيّاه أبي. جينو كان يذهب إلى الجبال بمفرده أو مع صديقه راسيتّي في أغلب الأحيان. متعته في الذهاب إلى الجبل هي البرد والريح، التعب، قلّة الراحة، النوم السيئ والقليل، الأكل قليلاً وبسرعة. بينما ألبيرتو كان يذهب رفقة مجموعة من أصدقائه. ينهض متأخراً، يمكث طويلاً في ردهات الفندق للثرثرة والتدخين، يتناول، في دفء المطعم، وجبات ساخنة ولذيذة. يرتاح طويلاً في الشحاطة. وأخيراً يمضي للتزلج. حين يتزلج، هو أيضاً يلقي نفسه بأقصى طاقة يمتلكها، كما تعلم في طفولته، ولم يعرف قطّ تقدير جهده ولا قياس قوّته، فيعود إلى البيت منهكاً، متوتراً، مع أخاديد عميقة حول عينيه.

أمّا ميراندا فلم ترغب في معرفة شيء عن الجبال لأنها كرهت البرد والثلج، باستثناء الثلج القديم في روكّا دي ميتزو، الذي قالت إنها تزلجت عليه جيداً وتأسف عليه دوماً.

”كم هو أحمق ألبيرتو“ تقول: ”دوماً يذهب إلى الجبال متأمّلاً المتعة، غير أنه يعود من دونها ومتعباً. أي متعة هذه؟ ثم ما الذي يرغب أن يستمتع به الآن؟ في شبابنا كنا نستمتع بالتزلج أو بالقيام بأي شيء. الآن لم نعد كذلك. ما عدنا نستمتع!“.

”طبعاً، لقد فعل أشياء في شبابه. طبعاً، يريد أن يفعلها الآن“.

”كم هذا محبط ميراندا!“ يقول ألبيرتو: ”أنت تسببين لي الكآبة. أنت تقصّين أجنحتي!“.

أحياناً يجيء إليهم فيتّوريو مساءً أثناء مروره بتورينو. لقد خرج من السجن أثناء حكم بادوليو. وبعد ذلك كان أحد قادة المقاومة في بيدمونت. كان في حزب العمل. تزوج من ليزيتّا، ابنة جيوا. مع موت حزب العمل صار اشتراكياً. انتخبوه نائباً. وعاش في روما.

لم تتغير ليزيتّا كثيراً منذ أن ركبنا الدراجات وأخبرتني عن روايات سالغاري. بقيت دوماً نحيلة، منتصبة، وشاحبة، بعينين مشعّتين وخصلة من الشعر تتدلى فوقهما. في الرابعة عشرة حلمتْ بمغامرات كثيرة، وقد حققت شيئاً من ذلك أثناء فترة المقاومة. اعتقلت في ميلانو، وسجنت في فيلا تريستي. استجوبتها فيريدا. ساعدتها صديقات متنكرات بزيّ الممرضات على الهرب. ثمّ قامت بصبغ شعرها بالأبيض كيلا يتعرف إليها أحد. بين الهرب والتنكر أنجبت طفلةً. ولسنواتٍ بعد الحرب حافظت على خصلات بيضاء في شعرها البني القصير.

أمّا والدها فقد صار نائباً هو أيضاً، يذهب ويجيء بين روما وتورينو. ووالدتها، السيدة جيوا، واصلت المجيء دوماً لزيارة والدتي، لكنهما تتشاجران لأنّ والدتي رأت أنّها يسارية متطرّفة. تتجادلان حول حدود آسيا، والسيدة جيوا تحضر معها أطلس أوغستين لتقنعها والوثائق بيدها أنها على خطأ. اعتنت السيدة جيوا بابنة ليزيتّا، لأن ليزيتّا التي ما تزال في ريعان شبابها، لم ترغب أن تكون أمّاً لابنتها التي ولدت في غفلة منها، وجعلتها تعبر بغتةً من عالم أحلام الطفولة إلى حياة الكبار دون لحظة توقف للتفكير في الأمر.

ليزيتّا شيوعية، وقد رأت في كل مكان، وفي الجميع، بقايا خطرة من حزب العمل. الآن ما عاد حزب العمل، il pi.–di–a، كما تسمّيه هي، موجوداً، غير أنها رأت انعكاس ظلاله في كل مكان.

”أنتم الـpi.–di–a، لديكم ذهنية pi.–di–a الرومانسية الميؤوس منها“ تقول لألبيرتو وميراندا. فيرمقها زوجها فيتّوريو بنظرةٍ، كمن يراقب قطّة فتية تلعب ببكرة من الخيطان، ويضحك عليها فيهتز ذقنه المتعجرف البارز بين كتفيه السمينين.

”ما عدت أستطيع العيش في تورينو. يا لها من مدينة مملة!“ تقول ليزيتّا: ”مدينة هي pi.–di–a، أنا ما عدت أقدر على العيش فيها!“.

”معك حق تماماً“ يقول ألبريتو: ”إنها تقتل من الملل. دوماً الوجوه ذاتها“.

”كم هي حمقاء ليزيتّا“ تقول ميراندا: ”كما لو أن ثمّة مكاناً يمكننا أن نستمتع فيه! ما عادت المتعة موجودة!“.

”فلنذهب لنأكل الحلزون“ يقول ألبيرتو وهو يفرك كفيه ببعضهما. خرجا. عبرا ساحة كارلو فيليتشي. الأروقة مضاءة بشكل خافت وشبه مهجورة في الساعة العاشرة مساء. دخلا حانة شبه خاوية. لم يكن هناك حلزون. طلب ألبيرتو طبقاً من المعكرونة الجافّة.

”ألا تتبع الحمية الغذائية؟“ تقول ميراندا فيجيبها ألبيرتو: ”اصمتي. أنت تقصّين أجنحتي“.

”كم هو متعب ألبيرتو“ تشكو ميراندا لأمّي في الصباح: ”هو مضطرب دوماً، دائماً يريد القيام بشيء ما، أن يأكل شيئاً، أن يشرب شيئاً، أو أن يذهب إلى مكان ما. دوماً يأمل بالمتعة!“.

”إنه مثلي، أنا أيضاً أرغب أن أستمتع. أرغب القيام برحلة جميلة“ تجيب أمّي.

”بربّكِ!“ تقول ميراندا: ”البقاء في المنزل شعور جميل للغاية“.

”ربّما أذهب في عيد الميلاد عند إيلينا في سان ريمو“ تقول: ”لكن لا أعرف إذا ما كنت سأذهب. في الحقيقة، ماذا سأفعل بذهابي؟ وربما أيضاً بالبقاء هنا؟!“.

”هل تعلمين أنني لعبت في الكازينو في سان ريمو؟“ تحكي لأمّي عند عودتها: ”لقد خسرت. وخسر ألبيرتو الأحمق أيضاً! خسرنا عشرة آلاف ليرة“.

تخبر أمّي أبي: ”ميراندا لعبت في الكازينو في سان ريمو. لقد خسرا عشرة آلاف ليرة“.

”عشرة آلاف ليرة!“ يصيح أبي: ”انظري كم هما أحمقان. قولي لهما ألا يلعبا مرّة أخرى أبداً. قولي إنني أمنعهما عن ذلك بشكل قاطع“.

ويكتب إلى جينو: ”ذلك الأحمق ألبيرتو خسر مبلغاً كبيراً في الكازينو في سان ريمو“.

بعد الحرب صارت أفكار والدي عن المال أكثر ضبابية وغموضاً. في إحدى المرّات، والحرب لا تزال قائمة، طلب إلى ألبيرتو شراء عشر علب من الحليب المكثّف. ألبيرتو اشتراها من السوق السوداء، ودفع ثمنها أكثر من مئة ليرة لكلّ علبة. والدي سأله عن المبلغ الذي يدين به إليه. ”لا شيء“ قال ألبيرتو. وضع أبي في يده أربعين ليرة وقال له: ”احتفظ بالباقي“.

”هل تعلمين كم انخفضت قيمة أسهمي في Incet؟“ تقول ميراندا لأمّي: ”ربّما أبيعها“. وترتسم على وجهها، كما في كل مرة تتحدث فيها عن المال، ربحاً أو خسارة، ابتسامةُ مرحة، حادّة وخبيثة.

”هل تعلم أن ميراندا ستبيع أسهمها في Incet؟“ تروي أمي لأبي: ”وتقول إننا نحن أيضاً سنفعل جيداً بأن نبيع أسهمنا في العقارات“.

”وبرأيك، ما الذي تعرفة تلك الخرقاء ميراندا؟“ يصرخ أبي.

ومع ذلك يعيد التفكير في الأمر. يسأل جينو:

”هل تعتقد أنت أيضاً أنه عليّ أن أبيع أسهمي في العقارات؟ ميراندا قالت ذلك، وهي، كما تعلم، لديها خبرة في البورصة. لديها حاسّة شم قوية، والدها، المرحوم، كان صرّافاً“.

فيجيب جينو: ”أنا لا أفقه شيئاً في شؤون البورصة“.

”أجل، هذا صحيح، أنت لا تفهم شيئاً في الأمر، نحن في العائلة حاسة الشم عندنا ضعيفة بما يخص الأعمال“.

”المال! نحن نجيد إنفاقه فقط“ تقول والدتي.

”طبعاً أنتِ“ يقول أبي: ”أمّا أنا فلن تستطيعي القول إنني أنفق الكثير. الطقم الذي أرتديه ما زلت أرتديه منذ سبع سنوات“.

”في الحقيقة بيّنو هذا واضح“ قالت أمّي: ”إنه مهترئ تماماً وبالٍ، عليك الحصول على واحد جديد“.

”لا أفكر في ذلك حتى، تخيلي. هذا ما يزال جيداً جداً، والويل لك إن قلت إن عليّ أن أصنع طقماً جديداً!“.

”جينو أيضاً“ يقول: ”ليس مسرفاً. إنه متواضع جداً بعاداته. باولا نعم، مبذّرة. جميعكم كفوفكم مثقوبة باستثناء جينو. جميعكم مصابون بجنون العظمة“.

ويقول: ”جينو كريم مع الآخرين ومتواضع مع نفسه. جينو أفضلكم جميعاً“.

أحياناً تأتي باولا من فلورنسا بالسيارة وحدها.

”أتيت وحدكِ؟ وبالسيارة؟“ يقول لها أبي: ”ما قمت به سيئ وخطِر. ماذا تفعلين لو انثقب أحد الإطارات؟ عليك المجيء مع روبيرتو. روبيرتو لديه خبرة

جيدة بالسيارات، منذ صغره وهو مهووس بالسيارات. أذكر أنه لم يتحدث عن شيء آخر!".

ويتابع: "حسناً! أخبريني عن روبيرتو".

روبيرتو صار الآن رجلاً ويذهب إلى الجامعة.

"أنا أحب روبيرتو جداً، لديه شخصية بمنتهى الحلاوة" يقول أبي: "لكنه يحب النساء كثيراً. إيّاكِ أن تزوّجيه. لا تدعي فكرة الزواج تخطر على رأسه".

امتلك روبيرتو زورقاً، واعتاد الذهاب في رحلة بواسطته في الصيف رفقة صديقه بيير ماريو. تعطّل المحرّك في إحدى المرّات، وكان البحر هائجاً، فأمضيا وقتاً سيئاً.

"لا تتركيه يذهب في الزورق مع بيير ماريو فقط، إنها مخاطرة" يقول أبي لباولا: "عليكِ الاحتراس. لا سلطة لديك!".

"لا تعرف باولا كيف تربّي أبناءها" يقول في المساء لأمّي: "لقد دللتهم كثيراً! يفعلون كلّ ما يحلو لهم، ينفقون كثيراً، إنهم مصابون بجنون العظمة!".

"تيرسيللا هنا!" تقول باولا وهي تدخل غرفة الكيّ: "يا لروعة رؤية تيرسيللا!".

تنهض تيرسيللا مبتسمة تكشف عن لثتها وتسأل باولا عن أولادها، عن ليديا، آنّا، وروبيرتو.

تيرسيللا صنعت السراويل لأبنائي أيضاً. خافت أمّي دوماً أن يبقوا دون سراويل: "وإلا ستبقى مؤخراتهم عارية!" تقول. وبسبب خوفها من أن يجدوا أنفسهم "بمؤخرات عارية" كانت تصنع لهم في كل مرة خمسة أو ستة أزواج. نتشاجر أنا وأمّي حول موضوع السروايل: "غير مجدٍ أن تصنعي لهم الكثير!" أقول. فتجيبني هي: "بالفعل أنت سوفياتية! أنت من جماعة حياة التقشف. أما أنا فأريد أن أرى الأطفال مرتبين، لا أريد أن تكون مؤخراتهم عارية".

حين تحضر باولا فإنّ أمّي تمضي معها تحت الأروقة وهي تتأبط ذراعها، تثرثران وتتفرجان على الواجهات، وتفضي لباولا عني: "لا تترك لي الحبل أبداً" تقول: "لا تتكلم. ثمّ إنها شيوعية متشددة، إنها سوفياتية حقيقية!".

"لحسن الحظ لديّ أطفالي" تقول وهي تشير بذلك إلى أولادي: "كم هم لطفاء! كم أحبهم! أحبهم جميعاً ولا أعرف من أفضل من الثلاثة".

"لحسن الحظ لديّ أطفالي، هكذا لا أشعر بالملل. ناتاليا تتركهم دوماً بمؤخرات عارية. أنا لا، أنا أحافظ عليهم مرتبين، وأجيء بتيرسيللا".

الخياط القديم، بيلوم، توفي منذ زمن. الآن تحضر والدتي ملابسها من متجر تحت الأروقة يدعى ماريا كريستينا. ومن أجل الكنزات والسترات الصوفية تذهب إلى بارسيني.

"إنها من عند بارسيني" تقول وهي تعرض على باولا قميصاً اشترتها، بالطريقة ذاتها التي قالت فيها عن التفاح الذي يحضر على المائدة: "إنه كارباندوي".

"تعالي" تقول لباولا: "لنذهب إلى ماريا كريستينا. أودّ الحصول على تايير جميل لي".

"لا تشتري تايير" تقول باولا: "لديك الكثير منهم. لا ترتدي المزيد الملابس من السويسرية. اشتري بدلاً عنه معطفاً أسود، أنيقاً، بقصّةٍ جيدة ومهمّة ترتدينه في المساء حين تذهبين إلى فرانشيس".

تطلب والدتي معطفاً أسود. ثمّ تجد أنّ كتفيه سيئان فيتمّ تعديله في البيت على يد تيرسيللا. ثمّ لا تلبسه على أية حال. "إنه ستّاتي كثيراً. ربّما أعطيه لناتالينا!" تقول.

بمجرد أن تغادر باولا حتى تطلب تايير. وستظهر في الصباح عند ميراندا بتايير جديد.

"ماذا؟ جلبت تايير آخر؟" تقول ميراندا.

فتجيب أمّي:

"الكثير من الملابس، الكثير من الوقار".

باولا كان لديها في تورينو صديقات تلتقيهن أحياناً، وأمّي تغار بعض الشيء.

"لماذا لست مع باولا؟" تسألها ميراندا لدى رؤيتها تصل. والدتي تجيب: "اليوم ذهبت مع إيلدا. إيلدا تلك لا تعجبني كثيراً. ليست كثيرة الجمال. إنها

طويلة جداً. لا تعجبني النساء بالغات الطول. ثمّ إنها تتحدث كثيراً عن فلسطين!“.

إيلدا الآن تركت فلسطين لكنها تتحدث عنها بالطريقة ذاتها. شقيقها، سيون سيغري، لديه مصنع للمنتجات الصيدلانية. بقي هو وألبيرتو صديقَين دوماً.

ألبيرتو يقول لباولا:

”هل نذهب هذا المساء مع إيلدا وسيون لتناول الحلزون؟“.

”بالنسبة إليّ أنا لا أحب الحلزون!“ تقول أمّي. وتبقى في البيت تشاهد التلفاز. احتقر أبي التلفاز وقال إنه محض هراء. لكنه في الوقت نفسه لم يمانع أن تشاهده والدتي لأنه هدية من جينو. بل إنه يقول لها، في حال لم تشغّل هي التلفاز في أحد المساءات وبقيت في الأريكة تقرأ:

”لماذا لم تديري التلفاز؟ أديريه وإلا فلا فائدة من وجوده! لقد أهداه جينو إليك وأنت إن لم تشاهديه تكونين قد جعلته يهدر المال. على الأقل انظري إليه الآن“.

في المساء يقرأ أبي في مكتبه، وأمّي تشاهد التلفاز مع الخادمة.

بعد ناتالينا ثمّة نساء يجئن دوماً عند أمّي. تأتي بهنّ من بلدة تدعى موتّا دي ليفينزا.

واحدة منهن في إحدى المساءات صارت تبصق دماً. انتابنا جميعاً خوف شديد. استدعى ألبيرتو الإسعاف، قال إنه علينا أن نجري لها صورة شعاعية في اليوم التالي. راحت المرأة تبكي بيأس. رغم ذلك قال ألبيرتو إنها ربما لا تعاني من نزيف، وقد يكون مجرد جرح في حلقها. كان جرحاً في الحلق، لكن المرأة واصلت البكاء، ودوماً بيأس. فقال أبي: ”كم يخافون الموت، هؤلاء البروليتاريون!“.

في كلّ مرة تغادر فيها باولا تعانقها أمّي وتبكي:

”كم يؤسفني أنك راحلة. لقد تعوّدت وجودك هنا!“.

وتقول باولا:

”تعالي إليّ لبعض الوقت في فلورنسا“.

”لا أستطيع“ تقول أمّي: ”البابا لن يسمح لي. ثمّ إن ناتاليا ذهبت إلى بيتها وعليّ الاعتناء بأطفالي“.

تستاء باولا حين تسمعها تقول ”أطفالي“ وتشعر عندئذ ببعض الغيرة منهم.

”إنهم ليسوا أطفالك! إنهم أحفادك. أبنائي أيضاً هم أحفادك. تعالي لقضاء بعض الوقت مع أولادي!“.

أحياناً كانت أمّي تذهب. ”سترين ماري أيضاً!“ يقول لها أبي: ”احرصي على الذهاب فوراً لزيارة ماري!“.

”سأذهب إليها بالتأكيد“ تقول أمّي: ”أنا حقاً أرغب في رؤية ماري. أنا أحب ماري“.

”كم هي لطيفة ماري!“ تقول عند عودتها: ”كم هي رائعة! لم أرَ قطّ أحداً بروعة ماري. أنا أستمتع جداً في فلورنسا. أحبّ فلورنسا. باولا لديها هناك بيت جميل“.

”أنا بعكسك، لا أطيق فلورنسا. لا أطيق توسكانا“ يقول أبي.

خلال الحرب، حين لم يعد الزيت متوفراً، أرسلت باولا إليه الزيت لأنها كانت تملك بعض أشجار الزيتون في الأرض المحيطة ببيتها في فييزولي، فغضب أبي: ”لا أريد زيتاً. لا أطيق الزيت. لا أطيق توسكانا. لا أريد الواجبات“.

”ألم تكن باولا حمارة معك؟“ يسأل أمي.

”لا! مسكينة باولا. في الصباح تحضر لي الفطور إلى السرير. هناك أتناول فطوراً لذيذاً في السرير. في الدفء. كنت بحال جيدة جداً“.

”الحمد لله. لأن باولا أحياناً تكون حمارة“.

”ومن يمنعكِ من تناول الفطور في السرير هنا أيضاً؟“ تسأل ميراندا أمّي.

”هنا لا. أنا أستيقظ وآخذ في الحال دوشاً بارداً. ثمّ أقوم بقراءة الحظ في أرواق اللعب وأنا ملفوفة جيداً، ومغطاة بإحكام، وفي هذه الأثناء أدفأ“.

كانت تلعب السوليتير وحيدة في غرفة الطعام. تدخل ابنتي أليساندرا متجهمة وغاضبة لأنها لم ترغب في الاستيقاظ صباحاً ولا بالذهاب إلى المدرسة. تقول أمّي: ”ها هي ماريا العاصفة“.

”لنرَ إن كنْتُ سأحظى برحلة جميلة. لنرَ إن كان أحدهم سيهديني فيلا جميلة. لنرَ إن كان جينو سيغدو مشهوراً جداً. لنرَ إن كان ماريو سيحظى بمنصب آخر أكثر أهمية من ذاك الذي يعمل فيه في الأونيسكو“.

”هراء!“ يقول أبي وهو يعبر: ”هو الهراء الأزلي دوماً!“.

يرتدي معطفه ليذهب إلى المختبر. ما عاد يذهب إلى المختبر قبل الفجر. إنه الآن يذهب في الثامنة صباحاً. عند الباب يرفع كتفيه ويقول:

”من الذي تريدينه أن يهدي لكِ فيلا؟ حمقاء، لستِ شيئاً آخر“.

***

لقد أمضيتُ المساءات كلّها في بيت بالبو. أحياناً ألتقي ليزيتّا دون فيتّوريو؛ لأنه نادراً ما يجيء إلى تورينو. وحين يكون في تورينو يفضّل البقاء مساءً مع ألبيرتو، صديقه القديم.

ليزيتّا وزوجة بالبو كانتا صديقتين. لولا، زوجة بالبو، هي تلك الفتاة البغيضة فائقة الجمال التي اعتدت رؤيتها عند النافذة، أو في شارع الملك أومبيرتو تمشي بخطواتها الواسعة المتعالية.

لولا وليزيتّا صارتا صديقتين خلال تلك السنوات التي كنتُ فيها في الحجز. لا أعرف متى كفّت لولا عن كونها بغيضة. حين أصبحنا أنا وهي صديقتين شرحت لي أنّها في ذلك الوقت أدركت جيداً أنها كانت بغيضة. بل إنها حاولت بالفعل أن تبدو بغيضة قدر استطاعتها. وأنها كانت متصلبة الروح نتيجة الخجل وفقدان شعور بالأمان والعزلة. حتى ونحن صديقتان أستعيد دائماً بذهول عميق تلك الصورة البغيضة المتعالية، والكراهية الكبيرة، الحقيرة، التي كنت أشعر بها في شعاع نظرتها، وأقارنها مع الصورة الأليفة والأخوية لصديقتي اليوم. من بين أفراد العائلة والإخوة هي أكثر من يمكنني الاعتماد عليه في العالم.

في الوقت الذي أمضيته في الحجز عملت لولا لفترة قصيرة سكرتيرةً في دار النشر، لكنها كانت سكرتيرة سيئة تنسى كل شيء. ثم اعتقلها الفاشيون وأمضت شهرين في السجن. تزوجت بالبو خلال الاحتلال الألماني، بين الهروب والتنكر. دوماً كانت فائقة الجمال، لكنها الآن ما عادت تقص شعرها مثل صبيّ

وتصففه مضغوطاً كخوذة حديدية. الآن لديها شعر أشعث يتدلى على وجنتيها، شعر هنديّ، ليس شعر امرأة هندية بل شعر رجل هندي قصّفته الشمس والمطر. ملامحها القديمة الجافة القاسية تحولت إلى وجه حماسي متجعد، مكشوف ومتقشر من الطقس، من الشمس والمطر. مع ذلك ما زالت أحياناً، في بعض اللحظات، تعود ملامحها القديمة العنيدة وخطواتها المهتزة المتعالية للظهور.

في كلّ مرة يأتون على ذكرها يقول أبي حالاً إنها فائقة الجمال.

"إنها جميلة جداً، لولا بالبو. حقاً إنها فائقة الجمال".

ويقول: "أعلم أنّ بالبو جيّد جداً في الجبال. أعلم أنه وموتورا صديقان مقربان".

موتورا هو عالم أحياء قدّره أبي. الصداقة بين بالبو وموتورا طمأنته على أمسياتي. في كل مرّة أخرج فيها مساء يقول لأمّي:

"أين ذهبت؟ إلى بالبو؟ بالبو صديق مقرب لموتورا"، ويقول: "كيف هم أصدقاء مقرّبون من موتورا؟ كيف يعرفون بعضهم بعضاً؟".

امتلك أبي دوماً فضولاً تجاه معرفة كيف تجمع صداقة أحد بالآخر.

"كيف عرفه؟ كيف قابله؟" يسأل بحيرة: "آه، ربما في الجبال، لا بدّ أنهما التقيا في الجبل". هكذا يحدّد أصل العلاقة بين شخصين، فيهدأ. وإن كان يحترم أحدهما فهو مستعد أن يرحّب بالآخر مانحاً إياه الرضى.

"ليزيتّا أيضاً تذهب إلى بالبو؟ من أين تعرفهم ليزيتّا؟".

سكنت عائلة بالبو في شارع الملك أومبيرتو، في منزل في الطابق الأرضي بابه مفتوح دائماً، والناس يدخلون ويخرجون بشكل متواصل. أصدقاء بالبو، أولئك الذين يرافقونه إلى دار النشر، ويتبعونه إلى مقهى بلاتّي حيث اعتاد أن يشرب الكابتشينو، يعودون معه إلى البيت ويواصلون التحدث إليه حتى وقت متأخر من الليل. إن حضروا ولم يجدوه في البيت فإنهم يجلسون في الصالون يتحدثون إلى بعضهم بعضاً، يتجولون في الممرات، يجلسون إلى طاولة الدراسة. لقد تعلّموا منه عدم التزامه بجدول زمني، وأنه لا يتذكر الذهاب لتناول العشاء، ويواصل النقاش دون توقف.

سئمت لولا وجود الكثير من الناس دوماً في أرجاء البيت. رغم ذلك واصلت القيام بالأشياء التي عليها فعلها؛ الاعتناء بطفلها بمزيج من القلق والاستياء، لأنها هي أيضاً، كما ليزيتّا، لم تعرف كيف تكون أمّاً، لأنها انتقلت بغتة من ضبابية المراهقة إلى سن النضج العاصف دون مساحة فاصلة.

لقد أحبّت بين حين وآخر أن تعهد بطفلها إلى أمها أو إلى حماتها، وترتدي ملابسها بمنتهى الأناقة، تلبس عقد اللؤلؤ والحليّ، وتخرج إلى شارع الملك أومبيرتو، كما في الماضي، تمشي ببطء شديد بعينين نصف مغمضتين، تخوض الهواء بالهيئة الرومانية. عند عودتها ورؤيتها الأشخاص الذين تركتهم في المنزل ما يزالون يجلسون هناك على مقعد البوابة، أو حول الطاولات، يتجادلون، تزفر زفرة غاضبة طويلة ولا يكترث لها أحد منهم.

حين يغيب زوجها تطلق عليه ألقاباً حلوة، وتندب غيابه بزفرات طويلة تخرج من حلقها رقيقة مثل هديل حمامة تدعو رفيقها. لكن حال عودته سرعان ما توبخه، إما لأنه يتأخر دوماً عن موعد الغداء، أو لأنه خرج وتركها دون قرش واحد لشراء البقالة، أو لأنها تعرب عن تذمرها من ذلك الباب المفتوح دائماً لأناس يذهبون ويجيئون. هكذا يبدآن الشجار، هو يتسلّح بأعذار واهية، وهي لا تملك إلّا غضبها. تختلط أسبابهما وأخطاؤهما متشابكة بطريقة يصعب الفصل فيها. لم يبقيا وحدهما قطّ حتى أثناء الشجار، بل إنها تقذف بعض الأصدقاء الحاضرين بشتائم عشوائية وتصرخ مطالبة إياهم بالرحيل. لكن أولئك لم يخطر ببالهم التحرّك، بل ينتظرون هادئين مستمتعين إلى أن تمضي العاصفة.

بالبو على الغداء دوماً تناول الأشياء ذاتها، وهي: الأرز مع الزبدة، شريحة من اللحم، بطاطا، تفاحة. تلك كانت الأشياء التي عليه أن يأكلها بعدما أصيب بالأميبيا خلال الحرب. ”هل يوجد شريحة لحم؟“ يسأل قلقاً وهو يجلس إلى الطاولة. وبمجرد طمأنته بشأنها يبدأ الأكل وهو شارد الذهن ويواصل التحدث إلى أصدقائه، الحاضرين دوماً مع وجبته، ويتشاجر ويتجادل مع زوجته بأعذاره الواهية. ”هذا مملّ“ تقول لولا للأصدقاء ثائرة: ”أجده أمراً مملاً! هل يوجد شريحة لحم! دوماً مع شريحة اللحم هذه! لو أنه يأكل لمرة واحدة بيضاً مقلياً!“، وتستذكر زمن المقاومة في روما حين اختبآ دون ليرة واحدة، وتوجّب

عليها التجول في المدينة بحثاً عن الزبدة وشريحة اللحم والأرز في السوق السوداء.

يشرح بالبو أن ليس بمقدوره أكل البيض المقلي لأنه يؤذيه. ويبدأ الأكل بجديّة شارد الذهن وغير مبال بنوع شريحة اللحم التي يأكلها ما دامت دون أدنى شك شريحة لحم مشوية.

"لا أحبّ أصدقاءك هؤلاء" تشكو لولا: "ليس لديهم حياة خاصة، لا زوجات، ولا أولاد، وإن وجدوا فلن يعتنوا بهم لأنهم دوماً هنا!".

يغدو البيت يومي السبت والأحد مهجوراً. تعهد لولا بالطفل إلى حماتها وتمضي هي وزوجها للتزلج.

"كم كان لطيفاً البارحة!" تقول لولا عن زوجها صباح الاثنين مخاطبة الأصدقاء الذين عاودوا الظهور: "لو أنكم رأيتموه! كان في غاية اللطف! إنه يجيد التزلج مثل مدرّب، يبدو كَراقص، لم يكن مملاً على الإطلاق. الآن ها هو يعود مملاً من جديد!".

أحياناً تذهب هي وزوجها للرقص في نايت كلوب. يرقصان حتى وقت متأخر من الليل. "لقد استمتعنا جداً" تقول لولا لاحقاً: "إنه يجيد رقص الفالس، يرقص بمنتهى الرشاقة" وتطلق ناحية زوجها، الموجود في المكتب تلك اللحظة، تلك الزفرة الحلقية كهديل الحمام وهي تعلّق فستان السهرة في الخزانة.

أحياناً يقول بالبو لزوجته: "اشتري فستان سهرة جديداً. إنه يمتّعني" وهي لتمتّعه تشتري فستاناً ثمّ لا تكون راضية عنه، وتكتشف أنّه فستان سخيف وأنها لن ترتديه مطلقاً. "ذلك الأحمق!" تقول: "من أجل متعته توجّب عليّ أن أشتري فستاناً لا معنى له!".

بعد الفترة القصيرة التي عملت فيها سكرتيرةً في دار النشر لم تعمل لولا مرة أخرى. لقد اتفقت هي وزوجها أنها كانت سكرتيرة سيئة. لكنهما توافقا بشكل صريح على ضرورة إيجاد وظيفة لها لم يعرفا ماهيتها، وأنّ عليهما اكتشاف ذلك. بالبو طلب إليّ أيضاً أن أستكشف معهما الوظيفة التي يمكن أن تلائم لولا من بين آلاف الوظائف التي تعجّ بها الأرض.

اعتادت لولا دوماً استعادة الفترة التي أمضتها في السجن بكثير من الحنين. "حين كنتُ معتقلة" تقول غالباً. كانت تقول إنها أثناء الاعتقال شعرت بالراحة، وإنها أخيراً وجدت السلام مع نفسها هناك متحرّرةً من التعقيدات والمحظورات. أقامت صداقات مع الفتيات اليوغسلافيات المعتقلات لأسباب سياسية، وكذلك مع السجينات العاديات. استخدمت معهن الكلمات الصحيحة فحظيت بثقتهن. والسجينات الأخريات تجمّعن من حولها للحصول على المساعدة والنصيحة. المحادثات التي أجراها بالبو مع زوجته حول الوظيفة المحتملة التي يمكنها العثور عليها انتهت دوماً "في المعتقل". وخلص كلاهما إلى ضرورة العثور على وظيفة تشعر فيها، كما حدث في الاعتقال، بطمأنينة مطلقة، وبالتحرّر من القيود، وبأنها مسيطرة تماماً على قوتها. عملٌ كهذا بدا من غير اليسير العثور عليه. في وقت لاحق وقعت مريضة وتوجّب عليها قضاء فترة قصيرة في المستشفى. في المستشفى، وبين الفتيات المريضات، عثرت على شيء من قوتها كقائدة شعبية، والتي من الواضح أنها تعاود الولادة في اللحظات الدراماتيكية التي يخلقها الخطر والتوتر والطوارئ.

ليزيتّا، في روما، عثرت على عمل مسائي. توظّفت في الجمعية الإيطالية–الروسية. تعلّمت اللغة الروسية، بدأت دراستها مباشرة بعد الحرب، معنا أنا ولولا. لكنها تعلمتها بينما توقفنا نحن عن الدراسة. لذا فهي تذهب يومياً إلى المكتب، كما تقوم بإدارة المنزل، والآن تعتني بأطفالها أيضاً. الأطفال الذين تتظاهر بعدم رعايتهم، والذين تتظاهر أنهم مستقلون عنها رغم صغرهم. واصلت المجيء في العطلات إلى تورينو مع الأطفال. وحين نسألها أين الأطفال تجيب متصنّعة عدم الاكتراث أنها لا تذكر تماماً أين تركتهم. كانت تحبّ الإشارة إلى أنها أرسلتهم ليلعبوا بمفردهم في الشارع. في الحقيقة يكون الأطفال عندئذ في الحديقة العامّة مع جدتهم والمربية تراقبانهم. وبمجرد حلول الظلام تمضي لاستعادتهم مع الأحذية والقبعات، لتصبح، دون أن تدرك ودون أن تعترف بذلك لأحد، أمّاً حنوناً، دقيقة، متخوّفة.

كما تظاهرت دوماً أنها في حالة جدال مع زوجها لأسباب سياسية. والحقيقة أنها كانت مع زوجها وديعةً كالحمل، وتقريباً غير قادرة على امتلاك رأي مخالف

لرأيه. إضافة إلى أنه لم يكن ثمّة اختلاف في آرائهما السياسية. حزب العمل pi.–di–a، كان قد تلاشى الآن في عتمة الزمن وما عاد له من أثر. غير أن ليزيتّا صرّحت دوماً أنها ترى ظلاله في كلّ مكان، وتحديداً بين جدران منزلها. وحالما بدأ أطفالها بالتفكير دخلت في حالة جدال معهم، وبخاصّة مع ابنتها الكبرى التي كانت ساخرة وحسّاسة، وتفحمها بشدة. حتى إنهما تجادلتا، الأم وابنتها، أمام طبق من اللحم، حول الفقراء والأغنياء، اليسار واليمين، ستالين، الكهنة ويسوع.

”لا تجعلي نفسك كونتيسة كثيراً!“ تقول ليزيتّا لصديقتها لولا حين تراها ترتدي المجوهرات وتضع الماكياج أمام المرآة. ثم ينتهي الأمر بأن تضع القليل من الأسود حول عينيها، أثراً قليلاً جداً، وتخرجان إلى شارع الملك أومبيرتو، إلى طرقاتهما، ليزيتّا بمعطفها المفتوح وقدميها الطفوليتين عاريتين في الصندل، ولولا بمعطفها الأسود الضيق مع الأزرار الكبيرة، ومشبكٌ مثبّت على الياقة، وأنفها الروماني ممتد ليقطع الهواء، والخطوات القديمة المهتزة والمتعالية.

تذهبان إلى دار النشر. تجدان بالبو في الممر يتحدث إمّا إلى بعض الكهنة، أو إلى مارتورا، أو مع واحد من أصدقائه أولئك الذين يلحقون به إلى البيت.

”تُمضي الكثير مع الكهنة!“ تقول ليزيتّا لبالبو: ”لديك الكثير منهم!“. لم تقل عنه إنّ لديه ”ذهنية pi.–di–a“. بالعكس من ذلك، هو واحد من القلائل الذين لم تقل عنهم ذلك، بل إنّ بالبو في بعض الأحيان اتهمها بأنها ” pi.–di–a بعض الشيء“ واتهمها بأنها ربما تكون آخر pi.–di–a متبقٍ في الجوار. وهي بالمقابل اتهمته بأنه كاثوليكي متشدد، وأنها رغم ذلك مستعدة لمسامحته، هي التي لم تسامح أحداً في العالم على هذا الأمر لأنها ما تزال تحتفظ، منذ الطفولة، بذكرى انبهارها ببالبو ونبرته حين يجيء يوم الأحد مع كتب كروتشه.

”كونت! في العمق هو كونت! في العمق نحن الاثنان كونت وكونتيسة“ تقول وهي تفكر ببالبو حين تكون في روما بعيدة عنهم. في روما رأت أصدقاء آخرين أعجبوها أقل بكثير، مع أولئك ليس ثمة صراعات، كما أنهم ليسوا على صلة وثيقة بذاكرتها. للحقيقة فقد شعرت ببعض الملل مع أولئك لكنها لم تعترف

بذلك حتى لنفسها. حقيقة أنّ بالبو سليل عائلة نبيلة، وأنه كاثوليكي، بدت لها، من بعيد، السبب بتداعي جميع الأفكار التي ساقها عندما التقيا. لكن في كلّ مرّة تعود فيها إلى تورينو فإنّ بيت بالبو يجذبها بشيء من الرهبة، ورغم ذلك لم تملك القدرة على قول الحقيقة لنفسها. كانت تقول: "إنهم أصدقائي وأحبّهم ولا أهتم أبداً إن كانت آراؤهم صحيحة أو خاطئة. لا أهتم أبداً إن كان هو يحب الكهنة كثيراً". لأنه في طبيعته الساذجة، المعطاءة، الطفولية، نشأت آراؤه وأفكاره، كما الآخرين، وتفرّعت مثل أشجار كبيرة مورقة تخفي وتستر مرآة روحه الحقيقية عن الناظر إليه.

موتّورا بقي مع بالبو فترة طويلة، إلى أن ظهر في دار النشر فعل "يتموتر". "ماذا يفعل بالبو؟"، "إنه يتموتر. هو يتموتر حتماً" كنّا نقول. بالبو، بعد محادثته مع موتّورا يمضي إلى الناشر ليعرض عليه المقترحات التي تقدّم بها موتّورا بشأن السلسلة العلمية، والتي لم يكن مطلوباً من بالبو التعامل معها مطلقاً، غير أنّه اعتاد حشر أنفه في مختلف السلسلات والقول إنها اختصاصه. لم يملك بالبو أية معلومات علمية رغم أنه أمضى، قبل التحاقه بكلية الحقوق وأثناء حالة الضياع في شبابه، سنتين في كلية الطب، إلا أنه لم يحتفظ بأدنى ذكرى من ذينك العامين. موتّورا هو العالم الوحيد الذي يعرفه، بغضّ النظر عن والدي الذي أجرى له امتحان التشريح في تلكم السنوات البعيدة، لكنه شعر من خلال محادثاته مع موتّرا بالحاجة إلى البحث عن كتب علمية لن يقرأها، وبالكاد حشر أنفه الأحمر بها للحظات هنا وهناك. رغم ذلك بقي على أهبة الاستعداد لالتقاط الانتقادات والأفكار على الطاير من محادثاته مع موتّورا. كان يتحدث إلى موتّورا من أجل متعته الخالصة طبعاً وليس بغية الحصول على الأحكام والمقترحات. علاوة على أنه بالطبع لم يملك غاية محددة من حديثه إلى الناس، وحتى إن وجدت لديه في البداية فإنه سرعان ما ينساها. حديثه يجري على حافّة البحث المجرّد الصّرف الخالي من أية غاية. لكنه اعتاد ترك البعض ممّا يتعلمه يصبّ في دار النشر، مثل من يحتاج التخلص من الغائط ويدرك أنه بذلك يقوم بتسميد الحقل. المعرفة التي امتلكها عن العمل ما كانت لتقبل التفكير أو التسامح في مكان آخر غير دار النشر. لقد تعلّم في الحقيقة،

في وقت لاحق، العمل بطريقة مختلفة، لكنه آنذاك كان هذا أسلوبه في العمل. يبقى حتى المساء دون أن يلحظ أنه متعب، غير أنه لحظة النوم يشعر بأنه مرهق. لقد كتب كتاباً أيضاً، ولم يُفهم مطلقاً متى وجد الوقت لكتابته، إلا أنه كَتَبَه، فقد قام بطبعه في مرحلة معينة متوسلاً آخرين لتصحيح المسودات لأنه لم يعرف كيف يصحح المسودات التي بقي معها لأشهر دون أن يعثر فيها على أخطاء.

كنت أبقى في منزل بالبو حتى وقت متأخّر من الليل. ثمةّ ثلاثة أصدقاء كانوا مغروسين هناك دوماً؛ واحد ضئيل بشارب صغير، وواحد طويل يشبه غرامشي بملامحه بعض الشيء، وآخر ببشرةٍ وردية مجعّد الشعر دائم الابتسام. دائم الابتسام ذاك جاء لاحقاً للعمل في دار النشر، وتمّ تكليفه الاهتمام بالسلسلة العلمية، وبدا الأمر في غاية الغرابة، لم يظهر أنه سبق أن تعامل مع أي شكل من أشكال العلم، إلا أن الواضح أنه أولاها اهتمامه جيداً لأنه بقي في منصبه لسنوات، بل إنه فيما بعد صار مديراً لتلك السلسلة، ودوماً مع ابتسامته الهادئة، المسالمة، الحزينة تلك. ودوماً يفتح ذراعيه على اتساعهما مدّعياً عدم معرفته شيئاً بخصوص العلم. وفي النهاية غادر وأسس دار نشر متخصصة بالكتب العلمية لحسابه الخاص.

بالبو، حين يتوقف لحظةً عن الحديث إلى أصدقائه، كان يفصح لبافيزي ولي عن أفكاره حول أسلوبنا في الكتابة. بافيزي يستمع إليه جالساً في الأريكة تحت المصباح يدخن الغليون مع ابتسامة خبيثة. وكل الأشياء التي يقولها بالبو يقول له إنه بالفعل يعرفها منذ زمن طويل.

رغم ذلك كان يصغي إليه بمتعة كبيرة. في علاقته معنا، نحن أصدقاءه، امتلك دوماً خلفية ساخرة، واعتاد التعليق علينا ومقابلتنا بالسخرية. تلك السخرية التي ربما هي من أجمل الأشياء لديه، والتي لم يعرف كيف يحمّلها للأشياء الأقرب إلى قلبه، ولا لعلاقاته مع النساء اللواتي أحبهن، ولا لكتبه. لقد استخدمها فقط في الصداقة، لأن الصداقة عنده كانت شعوراً طبيعياً، ولا يعوّل عليها إلى حد ما، أي أنها شيء لم يعلّق عليه أهمية كبرى. في الحب، وفي الكتابة، ألقى نفسه بروح ساخنة محمومة، حتى إنه فيهما لا يعرف الضحك

أبداً، ولا يعود هو نفسه على الإطلاق. أحياناً، عندما أفكر فيه، فإن سخريته هي أكثر ما أتذكره وأحزن لأنها لم تعد موجودة، لا أثر لها في كتبه، ولا يمكن العثور عليها إلّا في وميض ابتسامته الخبيثة.

بالنسبة إليّ، كنتُ متعطشة لسماع الحديث عن كتبي. كلمات بالبو بدت لي في بعض الأحيان تغلغلاً مبهراً، رغم معرفتي الأكيدة أنه يقرأ فقط بضعة أسطر من الكتب؛ في يومياته ليس ثمّة متّسع أو وقت للقراءة، غير أنه استعاض عن ضيق الوقت والمساحة بتأهّب كبير وحدس حاد سمحا له أن يكوّن رأياً بمساعدةٍ بسيطة من عبارات قليلة. كرهت أسلوبه في تكوين الرأي واتهمته بالسطحية، إلا أنني كنت مخطئة لأنه لم يكن عادياً ولا سطحياً، فالقراءة المتأنية طويلة الأمد ما كانت لتمنحه القدرة على تكوين رأي أكثر عمقاً واكتمالاً. السطحي في تعليقاته على الكتب أو الأشخاص لم يكن غير النصائح العملية العامة، فهو لم يعرف كيفية تقديم المشورة سواء للآخرين أو لنفسه. النصائح العملية التي أسداها لي بشأن كتبي، أو حين رؤيته لي مكتئبة، هي أن أتابع بنشاط أكبر اجتماعات الخليّة، أو فرع الحزب الشيوعي الذي انتميت إليه آنذاك. بدا ذلك له وسيلة لفتح ممرّ أمامي إلى العالم الواقعي الذي وصفني بأنني منفصلة عنه، إضافةً إلى الرأي الذي ساد على نطاق واسع في السنوات التي تلت الحرب بأنه يتوجب على الكتّاب، من خلال الأحزاب اليسارية، تحطيم دائرة الظل والاختلاط بالحياة الواقعية. آنذاك لم أستطع التصريح بأن نصيحته تلك خاطئة، لأنني ببساطة كنت أشعر بالمزيد من التعاسة والارتياب حيال كلّ شيء. مع ذلك أطعته وذهبت إلى تلك الاجتماعات التي وجدتها في أعماق روحي، ودون أن أقدر على الاعتراف بذلك، حزينة ومملة.

لاحقاً أدركت أنّه يتوجّب عليّ عدم اتباع نصائحه العملية بأي شكل من الأشكل. كان من الضروري تحرير كلماته من كلّ المقترحات العملية. تجريد كلماته من كلّ ما تحتويه من عملانية يجعلها مثمرة فيما توجّه إليه. إلا أنني آنذاك شعرتُ أنني مرغمة على اتباعه خطوة بخطوة، والالتزام، خطوة بخطوة، بالأخطاء التي ارتكبها هو. أمّا بافيزي فقد ارتكب أخطاء أخرى لا

تشبهها، وتعثّر في طرق أخرى، حيث سار بمفرده بتحدّ وعناد، وروح حسّاسة وديعة.

ارتكب بافيزي أخطاءً أكثر جسامة من أخطائنا. لأن أخطاءنا ولدت من الاندفاع، التهور، الحماقة، والصراحة. بينما ولدت أخطاء بافيزي من التعقّل، الدهاء، التحسّب، والذكاء. لا شيء بخطورة هذا النوع من الأخطاء إذ بمقدورها أن تكون قاتلة، كما حدث معه، بسبب صعوبة العودة من الطرق التي ترتكب فيها الأخطاء بدهاء. الأخطاء الناجمة عن الدهاء تطوّقنا بإحكام. الدهاء يضرب جذوره فينا بقوة أكبر من الحماقة والتهور. كيف يمكننا التخلص من تلك الروابط العنيدة بهذا الشكل، الضيّقة والعميقة؟ للتعقّل والتحسّب والدهاء ملامح المنطق، صوت المنطق المرير، الذي يجادل بحججه المعصومة، التي لا يُرَدّ عليها ولا مناص من تأييدها.

انتحر بافيزي في صيفٍ لم يكن فيه أحد منّا في تورينو. لقد أعدّ وتهيّأ لموته كمن يتهيأ لنزهة في الشارع مساءً. لطالما كره أن تعترضه في النزهات أو المساءات أية مفاجآت أو مصادفات. حين نمضي أنا وهو وبالبو والناشر للتنزه في التلال كان يستاء بشدة إذا ما انحرف شيء عن المسار الذي خطط له، أو إن تأخّر أحد ما عن الوصول في الموعد، أو إذا ما قمنا بغتة بتغيير البرنامج، أو إذا ما انضم إلينا فجأة شخص غير متوقع، أو إن أرغمتنا ظروف مباغتة على تناول الطعام في بيت أحد معارفنا الذي التقيناه مصادفة عوض الحانة التي اختارها هو. المصادفة كانت تسبب له الاضطراب. لم يحبّ أن يفاجأ.

تحدّث لسنوات عن انتحاره ولم يصدّقه أحد. حين أتى إلينا أنا وليون وهو يأكل الكرز، عندما أخذ الألمان فرنسا، كان يتحدث عن ذلك بالفعل. ليس بسبب فرنسا، ولا الألمان، ولا الحرب التي وصلت إلى إيطاليا. لقد خاف من الحرب لكنها لم تكن سبباً كافياً يدفعه للانتحار. مع ذلك استمرّ خوفه من الحرب، مثلنا جميعاً، حتى بعد انقضائها؛ لأنّ ما حدث هو أننا بتنا، بعد انتهاء الحرب، نخشى حرباً جديدة ستقع ونفكّر فيها دوماً. لقد خشي حرباً جديدة أكثر منّا. خوفه كان أكبر من خوفنا؛ فالخوف عنده دوّامة من المباغت

واللامتوقع، وقد بدت واضحة بشدة في أفكاره، دوّامة من مياه قاتمة سامّة على ضفاف حياته العارية.

في العمق لم يملك سبباً موجباً للانتحار. إلا أنّه معنا قام بتأليف الكثير من الأسباب، وقام بحساب مجملها بدقة وبسرعة البرق وأعاد تكوينها والنظر إليها وهو يهز رأسه مع ابتسامته الخبيثة، وتوصّل إلى نتائج متطابقة وبالتالي فهي صحيحة. لقد نظر أيضاً إلى ما هو أبعد من حياته، إلى مستقبلنا، وتطلع إلى كيف سيتصرف الناس حيال كتبه وذكراه. نظر إلى ما وراء الموت، مثل أولئك الذين يحبون الحياة ولا يستطيعون الانفصال عنها، وفيما هم يتخيلون الموت لا يفكرون في الموت بل في الحياة. هو لم يحبّ الحياة، تطلّعه إلى موته لم ينبع من حبّه للحياة، بل كان تحسبّاً حاضراً للظروف، كيلا يفاجئه أيّ أمرٍ حتى بعد الموت.

***

ترك بالبو دار النشر وذهب للعيش في روما. خاض لسنوات في مشاريع سخيفة وأخطاء. وفي النهاية حصل على عمل حقيقي. تعلّم أن يعمل كغيره من الناس، وبقي رغم ذلك ينسى دوماً موعد الغداء، ويغادر مكتبه بعد أن يفرغ كما فعل أيّام دار النشر. لذا فقد عمل أكثر من غيره دون أن يدرك ذلك، وفي المساء يفاجأ بكونه منهكاً.

صار لبالبو وزوجته اليوم ثلاثة أطفال، وقد حاولا أن يكونا أباً وأمّاً فعليين وهو ما أثقلهما ولم يمتلكا القدرة عليه. تعوّدا، كلّ يوم، اتهام بعضهما بالعجز. لم يدّع أيّ منهما معرفته بتربية الأطفال، لكنْ كلّ منهما طالب الآخر بأن يكون ما لا يقدر هو أن يكونه. حاول بالبو تعليم أولاده شيئاً يعرفه جيداً، وهو الجغرافيا. لأنّ من كلّ الأشياء الأخرى التي تعلمها في المدرسة لم يتذكر شيئاً، رغم قوله إنه كان تلميذاً ممتازاً.

من ناحية أخرى لم يتطرّق معهم قطّ إلى المواضيع التاريخية؛ أولاً لضآلة معرفته بالتاريخ، وتالياً لخشيته أن تتسلل أحكام وآراء سياسية إلى الحقائق التاريخية. لم يرغب أن يقدّم لأبنائه أحاكماً مطلقة. رغب أن يكوّن أبناؤه

أحكامهم وآراءهم بأنفسهم. وقد بدا هذا غريباً على شخص مثله بقي لوقت طويل، مع أصدقائه، عدائياً ومتطفلاً في فرض أحكامه وآرائه، وعدائياً ومتطفلاً في تلقيها أيضاً، أي في تبنّي أحكام وآراء الآخرين وخلطها ودمجها ودمغها بأفكاره. مع أبنائه بقي حذراً في إعطائهم عصارة أفكاره.

لولا وبالبو لم يتحدّثا مطلقاً في السياسة بحضور أطفالهما. هي لأنها كرهت الطائفية، وهو لأنه فكّر في ضرورة الامتناع عن إقحام الأطفال في مواضيع شائكة. وبما أنّ كليهما خشيا تشويش أفكارهم والإيحاء لهم بعدم الثقة، والتشكيك بمواجهة مؤسسات السلطة، فقد امتنعا بحضور أبنائهما عن الحديث عن المعتقل.

بالنسبة إلى لولا فقد اعتادت تشكيل نموذج مثالي للأولاد مختلف كلّياً عن أولادها، وفي كلّ لحظة تقارن هذا النموذج بأبنائها الكسالى، الفوضويين، المشتتين. لذا لم تكفّ عن توبيخهم بأسلوبها الخشن والفوضوي، الذي لم يُخف أحداً بل فقط خلق شعوراً مربكاً بعدم الارتياح والضوضاء والفوضى في المنزل. وبالتزامن خلقت لنفسها نموذجاً مثالياً عن الزوج والأب مختلفاً تماماً عمّا كان عليه بالبو، ولن يقدر أن يكونه أبداً. ومن حين إلى آخر تطلق نحو زوجها وأبنائها زفرةً غاضبة كتلك التي اعتادت أن تشكو بها من وجود أناس يتجولون في المنزل.

في بيتهم في روما لم يعد هنالك أناس يذهبون ويجيئون كما الحال في شارع الملك أومبيرتو في تورينو. بل إنهم الآن يمتلكون القليل من الأصدقاء ويتم احتواؤهم في نحو ساعات منطقية. مع هؤلاء الأشخاص لم يملك بالبو شيئاً خاصاً يقوله، لذا فإنّه غالباً ما يصمت معهم أو يتحدث إليهم ممازحاً. لقد هدأ فيه الكلام القديم المتسلّط. هو الآن يوجّه ذكاءه إلى أهداف محدّدة، وأشخاص محدّدين في لحظات معينة من اليوم. ثمّ يدخل في الصمت كمن يغلق المصاريع عند حلول المساء.

ما يزال بالبو وزوجته، أحياناً، حين يسافران بمفردهما، أو عندما يكون الأولاد جميعاً في إجازة، يستمتعان بنهاراتهما ومساءاتهما بالطريقة التي تعوّداها.

يستريحان متحررين، يذهبان للتسكّع في الشوارع، يدفعها لشراء الفساتين والأحذية التي تثير متعته، أو يذهبان للرقص في النايت كلوب.

حصلت لولا أخيراً على عمل، لم تختره بل وقع بين قدميها صدفةً في وقت لم تكن فيه تفكر في الأمر. ربّما ليست هي الوظيفة التي كانت لتختارها لو أتيح لها الاختيار، ولا شبه على الإطلاق بينها وبين اعتقالها؛ أي مع اللحظة التي اعتبرتها الأفضل والذروة في حياتها. ومع ذلك فقد نجحت في ذلك العمل مستخدمة فيه القليل من ذكائها، رغم أنها حملت إليه في الوقت نفسه استعجالها، قلقها، ورغبتها في الشجار. رغبتها في الشجار راحت تظهر بشكل خاص أمام بوابات مكاتب البريد حيث تذهب لإرسال كتيّبات وطرود لصالح عملها.

كانت تعمل مع بعض القضاة. وعادة ما تقوم بعملها من داخل البيت، وفي غضون ذلك تصرخ بالأوامر على الخادمة والأطفال، تهاتف حماتها وصديقاتها، وتقوم بقياس ملابسها. أضاف هذا العمل مزيداً من الفوضى إلى الفوضى القائمة. توجّب عليها في بعض الأحيان توضيب بعض الطرود، فتقرّر فجأة أنّ على أولادها أن يوضّبوها لها، خالقة نموذجاً متخيلاً عن أولاد حذقين وماهرين بتوضيب الطرود. لذا تصرخ: "لووووكاااا" فيظهر لوكا، سميناً، ملطخاً بالكامل بالحبر، تائهاً في ضباب التراخي، بطيئاً ولا مبالياً مثل أمير. فتأمره حالاً بتوضيب عشرين طرداً. لوكا لم يوضّب طرداً في حياته. تضع في يده حزمة من الأوراق وخيطاً للفّها. لوكا يتجوّل في البيت مع ذلك الخيط شارداً، غافلاً، وخمولاً. يتحرّك ببطء دون أيّ هدف إلى أن تصرخ فيه بغتة وتنزع الخيط من يده، فينظر إليها عندئذ بعينيه الخضراوين، الفخورتين، متسمّراً، محتفظاً بمسافة من صمته الملكي.

في الشتاء قصدت عائلة بالبو دوماً الجبال للتزلج. والآن يأخذون الأولاد معهم. يقصدون جبال الشمال، مزدرين الجبال المنخفضة، والرياح، والازدحام حول روما. يذهبون إلى سيستريير، أو حتى إلى سويسرا. وهناك، في حقول الثلج تغدو لولا حرّة. تنسى قضاتها، تنسى دروس أولادها، الخادمة التي ربما استهلكت الكثير من الزيت، مزاجها السيئ واستياءها الأزلي. لكن بلوغ تلك

الحرية استوجب قبلاً، في روما، أياماً من الفوضى العارمة التي لا تحتمل، الحقائب المحزومة وغير المحزومة، السترات الصوفية والصراخ، الجري سريعاً إلى المدينة، الأوامر الصادرة والملغاة بين المرأة الفزعة ولوكا المنيع الملطخ بالحبر، رنين الهاتف، والمواعيد مع القضاة.

في الصيف كانت لولا تذهب أيضاً إلى أوستيا للسباحة. إلى هناك ذهبت بمفردها لأن زوجها لم يحب البحر كثيراً، وأولادها في ذلك الوقت عموماً يكونون في معسكراتهم الكشفية بعيدين عن روما. تذهب إلى هناك مع أناس عابرين، تستخدمهم ببساطة لهذا الغرض، ليأخذوها ويعيدوها إلى البيت في السيارة. مع أولئك العابرين تجري محادثات غير ممتعة ولا مسلية، بسبب وجود جانب دنيوي في مزاجها بعيداً عن التسلية والملل، مرتبط عادةً بمصلحة فورية؛ اصطحابها بالسيارات، أو الحصول على عناوين منجّدين. لقد تعوّدت تعقيد حياتها العملية عبر البحث عن منجّدين بعيدين، نجّارين رخيصين ولكن لا يملكون هواتف، متاجر أقمشة في نهاية العالم حيث يمكنها الحصول على حسومات قليلة بفضل أولئك المعارف العابرين. مع ذلك، في أوستيا، في البحر، تستمتع بوحدتها، تسبح مبتعدةً، تأخذ البرونزاج تحت أشعة الشمس بطريقة لا تحتمل، رغم تحذير الأطباء لها بعدم قضاء وقت طويل تحت أشعة الشمس بسبب المرض الذي عانت منه مرّة وتسبب لها بخوف كبير، لكن ليس بما يكفي لتتجنب البحر والشمس والرمل. تعود عند الرابعة، في موعد الغداء، فتتناثر في أرجاء المنزل صيحتها الأجش الحنون موجهة إلى زوجها، وهي تشعر بالسلام لذلك الصباح من الحرية والعطلة، محبّةً الصيف، الحرارة، ووجود الأطفال في المخيمات، والتجوّل في المنزل بملابس البحر بأقدام حافية.

***

أنا أيضاً بقيت في تورينو، ولكن أجيء إلى روما غالباً، وكنت أستعد للذهاب والعيش هناك بشكل دائم. تزوجت مرّة أخرى، وزوجي يدرّس في روما. بحثنا

عن بيت، وخلال وقت قصير توجّب عليّ نقل الأطفال. كنّا سنستقرّ في روما بشكل دائم.

ذهبت لرؤية بالبو. بقينا صديقَين دوماً، نتحدث عن الأيام الخوالي. قلت لبالبو: "هل تذكر حين كنا تقوم بالنقد الذاتي؟".

في زمن ما، في السنوات التي أعقبت الحرب، شاع فيما بيننا القيام بالنقد الذاتي؛ أي بعد ارتكاب الأخطاء نقوم بتحليلها وتشريحها بصوت مرتفع. نراكم الأخطاء فوق الأخطاء، ثمّ يجيء النقد الذاتي ليشبك الأخطاء، فيشتبك ويختلط بتلك الأخطاء كما تختلط الموسيقا مع كلمات الأوبرا فتحجب معناها وتحملها بعيداً في إيقاع مجدها.

أقول له: "هل تذكر حين أقمنا الخطب؟".

ما تزال لولا تتنهد بـألم حين تتذكر خطابات زوجها، لأنها رأته مرّةً صغيراً فوق السقالات الخشبية وسط الرايات الملوحة فوق الساحة المزدحمة بالناس، يحلل العبارات بصوت متردّد وهو يحكّ مقدمة رأسه بسبابته. حلّ البرد وعتمة المساء وهو يواصل تحليل العبارات ممعناً بتتبع الأثر الغريب والملتوي لأفكاره، مقتنعاً أن الناس الذين يستمعون إليه يسيرون خلفه على طول التعرجات الحجرية العصيّة حيث يشير. الناس كانوا ينتظرون، عبثاً، جرس الكلمات الرنّانة التي اعتادوا التصفيق عند سماعها. لقد صفّقوا على كل حال، ربّما بدافع التعاطف والثقة المطلقة، أو ربّما لأنه صمت أخيراً.

والدي أيضاً ألقى مرّةً خطاباً في تلك السنوات. لقد طلبوا إليه وضع اسمه على قائمة المرشحين عن الجبهة الشعبية. وكانت الجبهة الشعبية تلك هي التسمية التي تقدّم بها الشيوعيون والاشتراكيون معاً. لقد وافق، وطلبوا إليه تحضير خطاب واحد على الأقل، ودعوه ليقول ما يشاء. أخذوه إلى مسرح، وجعلوه يصعد إلى المنبر. بدأ والدي خطابه بهذه الكلمات:

"العلم هو البحث عن الحقيقة!".

تحدّث عن العلم لعشرين دقيقة، والناس صامتون مذهولون. قال في إحدى النقاط إن العلم في أميركا أكثر تقدّماً منه في روسيا. بمزيد من الحيرة بقي الناس صامتين. رغم ذلك جاء في لحظة، وبالصدفة، على ذكر موسوليني الذي

اعتاد تسميته: حمار بيردابيو. اندلع التصفيق مدوياً عندئذ، وأبي يتلفت حوله ذاهلاً، حائراً بدوره. ذلك كان خطاب والدي.

بالبو، الذي حضر ذلك الخطاب، ضحك للذكرى. لقد أعجب بوالدي كثيراً، ولم يتذكره إلا في تلكم السنتين اللتين أمضاهما في كليّة الطب. عند بوابة المعهد، مع بداية العام الدراسي، كانت ثمّة اضطرابات ومعارك بين الطلاب الجدد ووالدي، كما يروي بالبو، ألقى بنفسه وسط تلك المشاجرة برأس منخفض، كثورٍ يلقي نفسه وسط القطيع لفتح ثغرة بين الحشد للمرور.

والدي، أتذكر، ركض هكذا برأس منخفض، مثل الثور، عندما ألقي القبض عليه أثناء قصف الشوارع خلال الحرب. والدي لم ينزل إلى الملاجئ، عندما يسمع صفارة الإنذار يهرع راكضاً، ليس باتجاه الملجأ، بل نحو بيته. يركض محتمياً بالجدران ورأسه للأسفل وسط هدير الطائرات والصفير، سعيداً بالخطر. لأن الخطر كان شيئاً يحبّه.

"أوغاد!" يقول: "تخيلوا أن أذهب إلى الملجأ! الموت يعنيني كثيراً!".

***

أسفت أمّي بشدّة حين أخبرتها أنني سأترك تورينو وأذهب لأقيم في روما.

"ستأخذين أطفالي!" قالت: "يا لك من عاهرة!".

"سترسلهم إليّ بالأسمال" قالت لميراندا: "سترسلهم إليّ في رحلة دون أزرار وبمؤخرات عارية!".

صارت تستعيد الأيام التي جاءت فيها لزيارتي في الحجز حيث كان لديّ في المطبخ سلة تحتوي كلّ الأغراض الواجب إصلاحها، والتي لم أصلحها قطّ. أبدأ الخياطة للحظة، ثم أتركها وأقول:

"لا أستطيع خياطة المزيد. لقد فقدت الإبرة!".

لسنوات كثيرة، وحتى الآن، لم أملك بيتي الخاص، ولا خزانة للملاءات، ولا سلّة فيها أشياء للإصلاح، والتي لن أصلحها لاحقاً. لسنوات كثيرة عشت مع والديّ، وأمّي هي من كانت تفكّر في كلّ شيء.

في الصيف والداي مَن يفكران باصطحاب الأطفال إلى الجبل. وعادة ما يأخذانهم إلى بيرلوتوا، حيث يستأجران المنزل المعتاد مع ذلك المرج أمامه. كنت أبقى في المدينة وحدي لا أغادرها إلا لبضعة أيام حين تقفل دار النشر.

"لنذهب للمشي" يقول أبي في الجبل، في الصباح الباكر، مرتدياً سترته القديمة بلون الصدأ، الجواربَ الطويلة، والحذاءَ ذا المسامير. "هيا، تعالوا. لنذهب للمشي. عليكم ألا تتعثّروا. لا أريدكم أن تبقوا دوماً فوق العشب".

يرجعون في سبتمبر. تقوم أمي باستدعاء تيرسيللا لصنع السراويل ومراويل المدرسة، البيجامات والمعاطف.

"أريدهم مرتبين. أحبّ أن يبقى الأطفال مرتبين. أن تكون أشياؤهم كلّها على أحسن طرز. فكرة أن يكونوا دافئين تشعرني بالطمأنينة المطلقة".

في المساء تقرأ أمّي للأطفال رواية Senza famiglia[7]. "كم هي جميلة *Senza famiglia!*" تقول دوماً: "إنه واحد من أجمل الكتب الموجودة".

7 Senza Famiglia [بلا عائلة]، الرواية التي حُوّلت إلى فيلم سينمائي ومسلسل كارتوني للأطفال حمل عنوان "ريمي".

"كانت جميلة جداً أيضاً كتب ماركيزة كولومبي" تقول: "للأسف ما عادت موجودة. عليك أن تبلغي ناشركِ" تقول لي: "أن يعيد طباعة كتب ماركيزة كولومبي، لقد كانت رائعة".

أهديت الأطفال *Incompreso* [سوء الفهم]. في طفولتي قرأتها لي باولا التي أحبّت في ذلك الوقت القصص شديدة الحزن، المؤثرة، والتي تدفع إلى البكاء، وتمضي نحو النهاية بشكل مأسَوي. أمّي لم تحبّ *Incompreso*. وجدتها حزينة جداً: "*Senza famiglia* أجمل" قالت: "لا مجال للمقارنة. *Incompreso* عاطفية جداً. لم تعجبني كثيراً. بخلاف *Senza famiglia*، كابي، السيد فيتالي، الأربطة الجميلة الكاذبة، أونورا الأب والأم، الأربطة الجميلة التي تقول الحقيقة" وتواصل تعداد شخصيات *Senza famiglia*، وعناوين الفصول التي حفظتها عن ظهر قلب بعد أن قرأت ذلك الكتاب مرات عديدة لأولادها، والآن تقرؤه لأطفالي. فصل واحد كلّ مساء، واقعة دوماً تحت سحر تلك الأحداث التي تأخذ في بعض الأحيان منعطفات دراماتيكية، لكن دون المضيّ نحو نهايات مأسَوية،

وواقعة تحت سحر الكلب كابي، الذي أحبت الكلاب كثيراً بسببه، وامتلكت نحوهم عاطفة كبيرة. "وددت لو أحصل على كلب مثله، لكن البابا! تخيلي أن يسمح لي بالاحتفاظ بكلب!".

"أحبّ أيضاً أن يكون لديّ أسد لطيف! أحب الأسود كثيراً، وجميع الوحوش البرية" تقول وتهرع، حالما تستطيع، إلى السيرك، متذرعةً باصطحاب الأطفال إلى هناك: "يؤسفني عدم وجود حديقة حيوانات في تورينو. كنا ذهبنا إليها كلّ يوم، لديّ رغبة كبيرة دوماً برؤية وجوه بعض الوحوش البرية".

"*Incompreso* لا. ليست جميلة كثيراً" تقول: "أحبّتها باولا في صباها لأن باولا وماريو كانا مهووسَين بالكآبة. لحسن الحظ أن هذا قد مضى الآن".

"منذ صغرهما شكّلا حلفاً قوياً باولا وماريو" يقول أبي: "هل تذكرين مجادلتهما الدائمة مع المرحوم تيرني؟ كانا مهووسين ببروست، لم يتحدثا عن شيء آخر. الآن ساد البرود بين ماريو وباولا. ما عادا ينظران إلى وجهَي بعضهما حتى. هو يرى أنها برجوازية. يا لهما من حمارين!".

"متى صدرت ترجمتكِ لبروست؟" تسألني أمي: "أنا لم أقرأ بروست منذ وقت طويل. لكنني أتذكّر أنه جميل جداً. أتذكّر مدام فيردورين وأوديت. لا بدّ أن مدام فيردورين تشبه دروسيللا بعض الشيء!".

***

حين تزوجت مرّة أخرى وذهبت بعد حين للعيش في روما حملت والدتي شيئاً من الضغينة نحوي لبعض الوقت. لكن الضغينة لم تمدّ جذورها المريرة عميقاً في روحها. صرت أروح وأجيء بين روما وتورينو، وأستعدّ لمغادرة تورينو بشكل دائم.

من قلبي قلت وداعاً لدار النشر وللمدينة. اقترحتُ مواصلة العمل في دار النشر، في مكتب في روما، لكني فكّرت في أنّ الأمر سيكون مختلفاً جداً. تلك التي أحببتها هي دار النشر التي افتتحت في شارع الملك أومبرتو على مسافة أمتار قليلة من مقهى بلاتّي، وعلى بعد أمتار قليلة من البيت الذي أقامت فيه

عائلة بالبو، حين كانوا ما يزالون يعيشون في تورينو، وعلى بعد أمتار قليلة من الفندق الذي توفي فيه بافيزي تحت الأروقة.

في دار النشر أحببت من رفاق العمل هؤلاء وليس غيرهم. ظننت أنني لن أجد صعوبة في العمل مع آخرين. لكن في الحقيقة، وحين صرت في روما بعد ذلك، انتهى بي الأمر إلى ترك دار النشر لأنني لم أملك القدرة على العمل دون الناشر ورفاقي القدامى أولئك.

كتب لي زوجي غابرييل من روما أنّه عليّ الإسراع بالذهاب مع الأطفال. صار صديقاً لبالبو ويذهب لزيارته في المساء حين يكون بمفرده.

***

"في روما عليكِ تعلّم الفلاحة، وإلا فعليك العثور على امرأة تجيد الفلاحة. اعثري على خيّاطة تأتي إلى البيت، مثل تيرسيللا نوعاً ما. اسألي لولا. لولا لديها خيّاطة يومية، أو اسألي آديل راسيتّي، إنها بمنتهى اللطف، أنا أحبّ آديل".

"اكتبي عنوان آديل راسيتّي" قال أبي: "سأكتبه لك أنا، لا تنسيه! سأكتب لك أيضاً عنوان ابن عمي، ابن المرحوم إيتّوري، إنه طبيب ماهر ويمكنكِ استدعاؤه".

"احرصي على الذهاب لرؤية آديل فوراً" قال أبي: "الويل لك إن لم تذهبي! لا أريدك أن تكوني حمارة مع آديل. أنتم كلكم فيكم خصال الحمير. باستثناء جينو، جميعكم حمير مع الناس. ماريو حمار! لا بدّ أنه كان حماراً كبيراً مع فرانشيس حين ذهبت لرؤيتهم في باريس. لا بدّ أن الرسن ترك له بعض الشيء. لقد أفهمتني أن البيت كان بمنتهى الفوضى كالعادة".

"فكّر أن ماريو كان في غاية الترتيب" قالت أمّي: "كان دقيقاً لدرجة مملة. كان مثل سيلفيو!".

"لكن الآن!" قال أبي: "لقد تغيّر. فرانشيس أخبرتني أنه صار فوضوياً. أنتم جميعاً شديدو الفوضى".

"أنا لا. أنا منظّمة!" قالت أمّي: "انظر إلى خزائني!".

”بحق الجحيم! أنت أكبر فوضوية، لم تعثري على طقمي الشتوي“.

”نعم، لقد وجدته، وكنت أعلم جيداً أين هو. لكنني تركته جانباً لأهبه لأنه قديم ولا يمكنك ارتداؤه بعد الآن ببّينو“.

”تخيلي أن تتخلصي منه! لن أفكر في ذلك حتى! سأموت. تخيلي أن أصنع طقماً جديداً!“.

”لقد صنعته حين ذهبت إلى ليبج! ارتديته طوال الحرب، وأنت الآن ترتديه منذ ما يقارب العشر سنوات!“.

”ماذا يهمّ كم ارتديته؟ ما يزال طقماً بحالة ممتازة. أنا لا أبعزق المال مثلكم أنتم! أنتم جميعاً مصابون بجنون العظمة!“.

”حتى المرحومة أمّي“ قال: ”أصرّت دوماً أن أصنع لنفسي طقماً، لم ترغب أن أبدو بهيئة سيئة حين نذهب إلى فانديا! المرحوم إيتّورينو، ابن عمّي، كان أنيقاً للغاية، ولم ترغب أن أبدو مهملاً بالقرب من إيتّورينو!“.

”في فادنيا“ قال: ”يحضّر الغداء لخمسين أو ستين شخصاً. موكب كامل من العربات. بيبو فاكين يخدم على الطاولة. في إحدى المرات سقط على الدرج وحطّم كمية كبيرة من الصحون. أخي، المرحوم شيزاري، حين كان يزن نفسه بعد تلك الولائم يجد أنه قد زاد خمسة إلى ستة كيلوغرامات!“.

”المرحوم شيزاري، أخي، كان بديناً جداً. كان نهماً، لا أريد لألبيرتو، النهم هو الآخر، أن يصبح بديناً مثل المرحوم شيزاري!“.

”الجميع كانوا يأكلون كثيراً. أكلتُ كثيراً في ذلك الوقت. أذكر الجدّة دولشيتّا كم كانت تأكل!“.

”أمّي، المرحومة، بالعكس، كانت تأكل القليل. كانت نحيلة. مسكينة. في شبابها كانت أمّي فائقة الجمال. كان لديها رأس جميل. الجميع قالوا إنها امتلكت رأساً جميلاً جداً. هي أيضاً كانت تقدم الغداء لخمسين أو ستين شخصاً من المدعوين. كان هناك بوظة ساخنة، وبوظة باردة. أكلنا جيداً!“.

”ابنة عمي ريجينا، في تلك الولائم، تبقى في غاية الأناقة. كانت جميلة! آه، كانت جميلة جداً!“.

”لا ببّينو!“ قالت أمي: ”كانت متصنّعة جداً!“.

”أوه، لا، أنت مخطئة. كانت بغاية الجمال. لقد أعجبتني جداً! حتى المرحوم شيزاري أعجب بها جداً. في شبابها كانت مرحة بعض الشيء. كانت مرحة جداً! حتى أمّي قالت دوماً إن ريجينا كانت مرحة جداً!“.

”عمّي ديمينت حضر أيضاً في بعض المرّات ولائم والدتك تلك“ قالت أمّي.

”في بعض المرّات، أوه، وليس دائماً. ديمينت كان يوحي بأنه برجوازي للغاية ورجعيّ. كان عمّك متباهياً بعض الشيء“.

”كان بمنتهى اللطف“ قالت أمّي: ”كم كان لطيفاً ديمينيت، كم كان بارعاً! كان مثل سيلفيو! سيليفو كان يجذبه!“.

”السيد ليبمان المحترم“ قالت أمّي: ”هل تذكر كيف كان يقولها؟ كما كان يقول دوماً ”طوبى لليتامى“ كان يقول إن الكثير من المجانين أصابهم الجنون بذنب والديهم، طوبى لليتامى. لقد فهم في أعماقه التحليل النفسي الذي لم يكن قد اخترع بعد“.

”السيد ليبمان المحترم“ قالت أمّي: ”أشعر أنني ما زلت أسمعها“.

”أمّي، المرحومة، احتفظت بعربة“ قال أبي: ”وكل يوم تقوم بنزهة في العربة“.

”كانت دوماً تأخذ جينو وماريو بالعربة“ قالت أمّي: ”وبعد لحظات يأخذان بالتقيؤ. لأن رائحة الجلد تثير غثيانهما، فيوسّخان العربة وهي تستشيط غضباً“.

”مسكينة!“ قال أبي: ”حين عدت من سبيتيسبيرغ حيث دخلت جمجمة الحوت بحثاً عن العقد الدماغية الشوكية، رجعت بكيس من الملابس المتسخة بدم الحوت. اشمأزت أن تلمسهم. حملتُهم إلى العلية ورائحتهم لا تطاق“.

”لم أجد العقد الدماغية الشوكية“ قال أبي.

أمّي كانت تقول: ”لوّث ملابسه الجيدة من أجل لا شيء“.

”ربّما لم تبحث عنها جيداً ببّينو“ قالت أمّي: ”ربّما كان عليك البحث مرة أخرى“.

”بحق الجحيم! لستِ إلا وغدة ولا شيء آخر. لم يكن أمراً بسيطاً أبداً. أنت مستعدة أن ترسليننني حالاً إلى أسفل السافلين. انظري أية حمارة أنتِ!“.

”عندما كنتُ في مدرستي الداخلية“ قالت أمّي: ”جعلوني أنا أيضاً أدرس عن الحيتان. علّمونا تاريخ الطبيعة بشكل جيد، وأنا أحببته جداً. كانوا يأخذوننا كثيراً إلى الكنيسة. دائماً توجّب علينا الاعتراف. في بعض الأحيان لم نعرف بأي خطيئة سنعترف. عندئذ كنا نقول: ’لقد سرقتُ الثلج‘“.

”لقد سرقتُ الثلج! كم كانت جميلة مدرستي الداخلية، كم استمتعتُ هناك!“.

”كل يوم أحد“ قالت: ”كنت أذهب عند عائلة باربيسون. أخوات باربيسون أطلق عليهنّ المباركات لأنهنّ كنّ متعصّبات للغاية. باربيسون، اسمه الحقيقي بيريغو، كتب له أصدقاؤه هذه القصيدة:

جميل رؤية بيت بيريغو
وقبوه
صبحاً ومساء

”آه. دعينا لا نبدأ مع باربيسون الآن“ قال أبي: ”كم مرّة بالعدد قد سمعت هذه القصّة!“.

معجم الأسماء[8]

8 من المترجم.

- فرانشيسكو جوزيبّي (1830–1916) Francesco Giuseppe: إمبراطور النمسا من العام 1848 وحتى وفاته.
- ليونيدا بيسولاتي (1857–1920) Leonida Bissolati: سياسي وبرلماني إيطالي يساري.
- فيليبّو توراتي (1857–1932) Filippo Turati: قانوني، كاتب ومثقف يساري، من مؤسسي الحزب الاشتراكي الإيطالي PSI.
- آنّا كوليشوف (1857–1925) Anna Kuliscioff: طبيبة ومثقفة وناشطة نسوية يسارية روسيّة، تركّز نضالها السياسي في إيطاليا.
- أندريا كوستا (1851–1911) Andrea Costa: سياسي وبرلماني إيطالي يساري. مؤسس الحزب الثوري الاشتراكي الروماني.
- فيليتشي كازوراتي (1883–1963) Felice Casorati: رسّام ونحّات إيطالي.
- إيتوري بيترولييني (1848–1936) Ettore Petrolini: مسرحي وسينمائي وسيناريست وروائي وكوميدي إيطالي.
- كارلو روسيللي (1899–1937) Carlo Rosselli: فيلسوف وصحافي وناشط سياسي إيطالي مناهض للفاشية. مؤسس حركة "العدالة والحرية" المناهضة للفاشية في باريس.
- تشيزري بافيزي (1908–1950) Cesare Pavese: روائي وشاعر وناقد ومترجم إيطالي.
- ليون غينزبرغ (1909–1944) Leone Ginzburg: كاتب ومحرّر وصحافي ومناضل سياسي مناهض للفاشية.
- فيروتشو بارّي (1890–1981) Fereuccio Parri: سياسي إيطالي منهاض للفاشية، وأول رئيس وزراء لإيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية.
- فاو فيتّوريو 1909 Fao Fettorio: سياسي إيطالي مناهض للفاشية.

- لويجي سالفاتوريللي (Luigi Salvatorelli (1886–1974: صحافي وسياسي إيطالي وعضو في حزب العمل الإشتراكي.
- ماريو فينتشيغويرّا (Mario Vinciguerra (1887–1972: مؤرّخ إيطالي مناهض للفاشية.
- كارلو ليفي (Carlo Levi (1902–1975: رسّام وكاتب وشاعر وطبيب إيطالي.
- جوليو إيناودي (Giulio Einaudi (1912–1999: ناشر إيطالي. مؤسّس دار Einaudi للنشر.
- أندريا كافي (Andrea Cafi (1886–1955: كاتب إيطالي.
- نيكولا كياромونتي (Nicola Chiaromonte (1905–1972: كاتب وناشط سياسي إيطالي.
- إنريكو فيرمي (Enrico Fermi (1901–1954: فيزيائي إيطالي أميركي حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء لعام 1938.
- فيليتشي بالبو (Felice Balbo (1913–1964: فيلسوف ومفكر شيوعي إيطالي من أهم الأصوات الثقافية في النصف الأول من القرن العشرين.
- بينيديتّو كروتشه (Benedetto Croce (1866–1952: فيلسوف مثاليّ، كاتب وسياسي إيطالي.
- إميلو سالغاري (Emilio Salgari (1862–1911: روائي إيطالي.
- إيميليو لوسّو (Emilio Lussu (1890–1970: قانونيّ ومناضل إيطالي.
- ماركيزة كولومبي (Marchesa Colombi (1840–1920: هو الاسم المستعار لماريّا أنطونيتا تيرياني، كاتبة وصحافية وناشطة سياسية إيطالية.
- بييترو نينّي (Pietro Nenni (1891–1980: سياسي اشتراكي إيطالي، السكرتير الوطني للحزب الاشتراكي الإيطالي. حائز جائزة لينين للسلام عام 1951.
- جوزيبّي ساراغات (Giuseppe Saragat (1889–1988: سياسي ورئيس إيطاليا بين العامين 1971–1964.
- بالميرو تولياتّي (Palmiro Togliatti (1893–1964: سياسي وزعيم الحزب الشيوعي الإيطالي منذ العام 1927 وحتى وفاته.
- لويزا فيريدا (Luisa Ferida (1914–1945: ممثلة مسرحية وسينمائية إيطالية.

- أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci (1891–1937: فيلسوف وكاتب ومفكّر إيطالي. زعيم سابق للحزب الشيوعي الإيطالي.

حول الكتاب

نبذة

نحن خمسة إخوة وأَبَوان غريبا الأطوار.

لنا معجمُنا الخاصّ، مفرداتنا وعباراتنا التي لا يعرفها أحدٌ غيرنا في العالم.

والدُنا قرّر أن نتابع دراستَنا مع أساتذة في البيت، لأنّ المدرسة عندَه تنقل الميكروبات.

ووالدتُنا تألّمت بشدّة حين ماتت أمُّها، لكن حين وصلت إلى فلورنسا لدفنها، اشترت فستاناً أحمر بدلاً من فستان الحداد.

نحن عائلة إيطالية عاشت في عصر الفاشية. ضجّ بيتُنا بالسياسة والزوّار والأصدقاء والوجوه الشّهيرة، وفتح أبوابَه للجميع... إلّا الأدباء والشّوكولا: كانوا ممنوعين.

رواية مفعمة بالكوميديا السوداء والسخرية، تُنشر للمرة الأولى بالعربية بعد صدورها بلغات عدة حول العالم.

قيل في الكتاب

«صوتٌ مميّز ودافئ في تصوير الحياة العائلية وتجربة المرأة» The Guardian عن المؤلف

ناتاليا غينزبرغ (1916-1991) روائية وكاتبة مسرحية ومترجمة إيطاليّة. إحدى أهمّ الأدباء الإيطاليين في القرن العشرين. حصدت أعمالها أهمّ الجوائز الأدبية في إيطاليا.